أ د. عقيل حسين عقيل

مِنْ
الفِكَر إلى الفِكْر

تأليف

أ. د عقيل حسين عقيل

2017م

المحتويات

المقدّمة 5

الفِكَرُ 11

الفِكْر: 12

الفكرة: 19

توليد الفكرة: 22

تلازم الفكرة: 36

الفكرة بين كامنٍ وظاهرٍ: 45

تجسيد الفكرة: 48

الفكرة تقتنص حلًّا: 50

الفكرة تضادّ وتحدّ: 51

الفكرةُ خوفا ودراية: 60

التفكير: 67

التفكير ارتقاء: 70

التفكير تفاوضا: 81

التفكّر: 89

التذكّر: 96
التدبّر: 100
تفطّين الذّاكرة: 105
مرحلة تطوّر الفِكَر: 110
تطوّر الفِكَر جدلا وحجّة: 116
الفِكَر تلد حلّا: 124
العمل تفكير: 129
تطوّر الفِكْر 138
الفِكْر الأسطوري: 138
الفِكْر الفلسفي: 143
الفِكْر الفلسفي ارتقاء: 149
حيرة الفِكْر:..... 151
تفسير الخيال أسطوريّة: 156
تفسير العقل والمبدأ:..... 157
مراحل الارتقاء الفكري: 167
. مرحلة العبودية:..... 169

. مرحلة الإقطاع (feudalism):..... 171
مرحلة رأس المال: 172
مرحلة الشيوعيّة:..... 174
مرحلة الفوضويّة: 176
فكِّر لتعرف كيف تُفكِّر:..... 184
الاستبدال الفكري: 197
مرتكزات الاستبدال الفكري:..... 203
ختاما 212
المراجع..... 216
العربية والمترجمة للعربية 216
المراجع الأجنبية..... 222
صدر للمؤلّف 225
مواضيع المؤلّفات..... 226
المؤلّف في سطور..... 235

المقدّمة

تعدّ الفِكَر مولودة التدبّر العقلي منبت المعرفة الواسعة، ومصدر تنوّعها، وهي المطوّرة لها والمجدّدة، تستلهم حيويّتها من المستفزّات العقلية، فتبحث وتتقصى حتى تنتج جديدا يضاف إلى تلك الفِكَر المنتجة معرفة.

ونتيجة للخلط المفاهيمي بين الفِكَر والفِكْر ارتئينا البحث فيهما حتّى تمكنّا من التبيّن المميّز مفهوما ودلالة ومعنى؛ فكانت الفِكَر في دائرة المعرفة دليلا مرشدا لإنتاج العقل وتمكّنه من كشف المجهول، ومن بعده التمكّن من صُنع الخوارق.

وجاءت الفكرة مفردة من مجموع الفِكَر التي ينتجها العقل البشري، والفكرة قد تكون صغيرة المرامي وقد تتّسع مراميها لتكون محور قضية كاملة، وقد تكون سالبة النتيجة وقد تكون موجبة؛ فهي بين هذا وذاك تشدّ المفكّرين والبحّاث والعلماء وأصحاب الاهتمام إلى مواضيعها؛ فيتولونها تحليلا وتفسيرا ونقدا حتى يكتشفوا مناحي القوّة والضّعف فيها، أو أن يصبح بعضهم بين هذه وتلك، ومن ثمّ تتجدّد العلوم وتتطوّر من خلال ما تفسحه الفكرة من آفاق أمام المتفحِّصين أسرارها ومكامن خفاياها. ولهذا بعد كلّ فكرة مضافة تتولّد فِكَر جديدة ولا توقّف إلى النّهاية.

أمّا الفِكْر فهو حاصل صوغ القضايا والنّظريات بعد استقراء للفِكَر وما أنتجته من معارف وعلوم متخصّصة؛ فالفِكْر مع إنَّه من إعمال العقل تدبّرا وتفكّرا وتذكّرا، ولكنّه لم يكن إبداعا من لا شيء كما هو حال إنتاج الفكرة؛ إنّه إنتاج الشيء من الشيء، فلو لم تكن الفِكَر سابقة إنتاجا وإبداعا ما كان الفِكْر من بعدها مصاغا.

والفِكْر بهذا المعنى لا يقتصر على صوغ الجاهز، بل من قَبله يستند على التمعّن الذهني الممكّن من التبيّن والمثير للملكات العقلية تجاه مفاصل القضايا المحيّرة والمشاكل القائمة، والمواضيع الغامضة؛ ليكون التفسير العقلي مؤسّسا على معرفة المتغيرات ذات العلاقة بالمحيّر على المستوى العلمي أو الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي أو الثقافي أو الفني.

والعلاقة واضحة بين الفِكَر (مجموع الفكرة) وبين الفِكْر الذي اتخذ صفته من الفِكْر ذاته كونه لا يكون إلّا منه، ولهذا كان التطابق بين الاسم والصّفة؛ فالاسم فِكْر إذ إنّه ذو ذاكرة وذهن وله ملكات التمييز والتفاعل التي بدونها لا تنتج الفكرة ولا تصاغ الأفكار، وكونه صفة؛ فالأمر يتعلّق بما صاغه الفِكْر من أفكار ونظريات ومعارف تعكس واقع الفِكْر من حيث المقدرة على العمل المنتج، وهذا يدلُّ على العلاقة المباشرة بتلك المحفظة (الذّاكرة) وبذلك الذّهن العقلي الذي يفكّر تفحّصا واستقراء واستنباطا، حتى أوجد ما ينطبق مع وظيفته التي بها خُلق الإنسان في أحسن تقويم. وهنا تطابقت الصّفة مع الموصوف

(الفِكْر الذي له من الملكات العقلية ما له، مع الفِكْر الذي أنتج وينتج معرفة ممّا استخلصه العقل من حلول ومعالجات للمعضل البشري).

وبالرّغم من وجود اختلا واضح من حيث الدّلالة والمعنى والمفهوم بين الفِكَر والفكرة والفِكْر، فجميعها لا تكون إلّا عقلا وتدبّرا ومعرفة، وجميعها بين توافق وتضاد، فكما أنّ الفكرة تؤيّد الفكرة هناك من الفِكَر ما يعارضها، وبالتّمام كما أنّ الفِكْر يعالج قضية أو يجد حلّا، فهناك من الفِكَر ما يخالفه بالتمام؛ ولهذا النّاس مختلفون وسيظلون على الاختلاف، قال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[1].

أمّا التفكير فهو عملية الانشغال الذّهني عن وعي وقصد بما يجب، وهو لا يكون إلّا استمرار في البحث والتفحّص والتقصّي مع تعمّق في الفكرة وكيفية استنتاجها، ثمّ استخلاص النتائج منها، فالتفكير قد يكون نتاج ذلك المجرّد ومستفزّاته، وقد يكون نتاج تلك المشاهدات ومستفزّاتها، وقد يكون نتاج الحيرة التي تولّدت من المقارنات الفكرية والمادّية.

ولهذا يعدّ التفكير عملية اهتمام بالمفكّر فيه، والمفكّر من أجله؛ فالتفكير عملية عقيلة تمكّن من الوصول إلى نتائج كما أنّها تمكّن من بلوغ الحلول وإيجاد المعالجات، وصُنع المستقبل وإحداث النُقلة.

---

[1] هود 118 . 119.

وهنا، تعدّ الفكرة من إنتاج العقل، وتعدّ الفِكَر مجموع الفكرة، أمّا الفِكْر فهو بين اسم وصيفة، اسم؛ لأنّه خُلق في العقل خلقا، وصفة؛ لأنّه يوظَّف وفقا للرّغبة والمقدرة والإرادة.

ومع أنّ لكلّ من (الفكرة والفِكَر والفِكْر) تعريفها، ولكنّها جميعا تستفزُّ العقل بالمحيّر، وهذا من ميزها، لأنّ المحيّر يُلفت إليه؛ فيولى اهتماما بحثيا حتى بلوغ معرفة ما جعله مستفزّا ومحيّرا.

ولأنّ حاجات الإنسان متطوّرة؛ فالبحث عن مشبعاتها يتطوّر معرفة، ولأنّ حياة الإنسان مليئة بالمصاعب والمشاكل؛ فالجهود الفكرية لا تتوقّف بحثا، وفقا للمتنوّع والمختلف، ولهذا مرّ الفكْر الإنساني بمراحل نمو طويلة بدأت من مرحلة الفطرة والخيال، في تلك الأزمنة الأسطوريّة التي كانت فيها الثّقافة شفويّة، وفيها من الخيال والخرافة ما فيها، وفيها من البطولات الكلامية بغير بطولات ما فيها.

ثمّ ظهرت مرحلة الصّيد، ومن بعدها مرحلة العبودية، فتكوّن المجتمع المشاعي الذي بعلل الضرورة تكيّف البعض معه (استثناء) حيث تحكّم الحاجة وتسلّط الملّاك؛ فظهرت قيم جديدة على حساب كرامة الإنسان الذي قبِل العبودية، وارتضى أن يبيع نفسه للغير (جهدا ووجودا) حتى أصبحت أسواق العبيد منتشرة.

ثمّ تطوّر الفكر فلسفة بغاية تُرسِّخ قيمة الإنسان تعبيرا، وسلوكا، وعملا، مع التقدير للمختلف، والقبول بالحوار والتعايش مع الغير، دون

إكراه ولا هيمنة ولا حرمان ولا إقصاء، وترسيخ قيم التسامح والاستيعاب والتقبّل والتفهّم، وتقدير الإرادة وممارسة الحريّة.

ومع أنَّ جذور النّظام الرّأسمالي ضاربة في تلك الفلسفة الرّومانية القديمة، التي رغبت في امتلاك القوّة وبسط النّفوذ والسّيطرة، ولكنّها تطوّرت مع التّاريخ من الإقطاع إلى البرجوازيّة ثمّ من بعدها إلى الرأسمالية المعزّزة للملكيّة الفردية وممارسة الحرّيّة التي جاءت من بعدها مرحلة الشيوعية بغاية ترسيخ مبادئ تأسيس الدّولة على قاعدة الملكية المشتركة لوسائل الإنتاج، وحكم الحزب الواحد، المحاط بطبقة البروليتارية، مع تفسيرهما المادّي للتاريخ، وتقييدهما للمنافسة الحرّة، واعتبارهما أنَّ الدّين قيد ينبغي أن يفكّ.

ومع أنَّ الاستثناء خروج عن القاعدة، ولكنّ البعض لا يراه إلّا حلّا كما هو حال الفوضويّة التي تعدّ من وجهة نظر برودون حلّا للمشكل السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وبخاصّة عندما تنكسر هيبة الدّولة وتحلّ محلّها الجماعات الحرّة التي لا قيود عليها سوى إرادتها ومشيئتها الخاصّة.

ولأنَّ الفوضويّة استثناء، والبعض يطالب بها حلّا؛ فهي عبر التّاريخ تهدّد الأنظمة والسّلطات، وتعدّ أسلوبا ضاغطا على مؤسّسات الدّولة، وهي دائما بمثابة المعارضة غير الديمقراطية.

ونظرا لأهمية هذا الموضوع علميا ثمّ صوغ هذا المؤلّف نتائج مفسّرة ليكون بين أيدي القراء الكرام خاضعا للنقد الموضوعي، أو إلى المزيد من الإضافات الواسعة، أو التصحيح بدلائل وبراهين وحُجج بيّنة.

أ د. عقيل حسين عقيل

القاهرة 2017م

الفِكَرُ

الفِكَرُ هي جمع الفكرة، والفكرة هي: تلك الصّور الذّهنية التي تجعل العقل على حالة من التدبّر. وهي إنتاج العقل (داخليا وخارجيا)؛ فهي داخلية؛ لأنّها مولودة العقل المتدبّر أمره، وهي نتاجه إبداعا. وهي خارجية؛ لأنّها نتاج المشاهد والملاحظ والمحسوس، وتتمدّد من عقل لعقلٍ، فعلى سبيل المثال: يمكن لمن هو متخصّص في علم الاقتصاد أن يعطيك فكرة عن الاقتصاد. ومن ثمّ تنتقل الفكرة من الخارج إلى الدّاخل (من عقل أنتجها أو حملها إلى عقل استمدها أو تعلّمها أو أخذها) ومن هنا تتولّد الفكرة من الفكرة.

الفِكَر مفردات مستقلّة كلّ منها له دلالة موضوعية وكأنّه لا علاقة بينها، ولكلٍّ منها خصوصيّة تميّزها عن غيرها، ومع أنّها تتعدّد، لكنّها لا تجمع إلّا تصنيفا وتبويبا، وهي لا تكون إلّا نتاجا عقليا، بأسباب المحيّر أو الملفت للنظر، ممّا يستدعي البحث حتى التمكّن من التبيّن.

والفكرة ولادة ذهنية منتجة ومبدعة، وتتعلّق بشيء معينٍ، ويمكن أن تكون نتاج المستفزّ الخارجي، ولكن حدودها الإبداعية لا تتجاوز عقل المفكّر أو الباحث، وهكذا هو حال مجموع الفِكَر التي لا تلد الحلول إلّا منها؛ وذلك لأنّها نتاج مبدع ومضاف.

الفِكْر:

الفِكْرُ هو: الصّوغ العام للأفكار والرّؤى وفقا لما يستنتجه الصّائغ ويفسّره، قبل أن يقدّمه للغير، ليكون بين أيديهم نظرية متكاملة تفيد معالجة ما وقعت فيه المجتمعات من أزمات سياسية واقتصادية واجتماعية. وقد يكون الأمر متعلّقا بشأنٍ علمي فتكون النّظرية المتحصّلة خير ما يفسّر المشكل ويقدّم له حلّا.

ولهذا عندما تكون الفِكَر (مجموع الفكرة) إنتاج العقل، يكون الفِكْر هو إعمال العقل وصوغه وتفسيره، والفِكْر هو نتاج تلاقح الأفكار وصوغها في بوتقة النظريات الاجتماعية والإنسانية والطبيعية.

ومن ثمّ؛ فالفِكْر هو عمل العقل في توظيف الفِكَر (مجموع الفكرة) بغاية تفسير الحقائق والنّظريات سواء أكانت في مجال العلوم الاجتماعية والإنسانية أم كانت في مجال العوم الطبيعية.

والفِكْر هو الصّوغ العام لما وصل إليه العقل البشري من نتائج وتجارب مع تطلّع ذهني لما يمكن أن يكون مأمولا للأفراد والجماعات والمجتمعات، وتصوّر عملي يظهر القابلية للتطبيق وفقا للنتائج المراد تحقيقها. وهو التنظير المرسّخ لسابق أو المطوّر له، أو المتضادّ معه، أو المتجاوز لما سبق بحلول جديدة ميسّرة، وهو أوسع من الفكرة، حتى وإن كانت الفكرة من ورائه حيرة.

فالفِكَر تلد الحلول، والفِكْر يتلقّفها ويوظّفها ثمّ يظهرها في صوغٍ مفسّر للظواهر. والعلاقة واضحة بين الفِكَر (مجموع الفكرة) وبين الفِكْر الذي اتخذ صفته من الفكر ذاته كونه لا يكون إلّا منه، ولهذا كان التطابق بين الاسم والصّفة؛ فالاسم فِكْر كونه ذو ذاكرة وذهن وله ملكات التمييز والتفاعل التي بدونها لا تنتج الفكرة ولا تصاغ الأفكار، وكونه صفة؛ لأنَّ الأمر يتعلّق بما صاغه الفِكْر من أفكار ونظريات ومعارف تعكس واقع الفِكْر من حيث المقدرة على العمل المنتج، وهذا يدلُّ على العلاقة المباشرة بتلك المحفظة (الذّاكرة) وبذلك الذّهن العقلي الذي لا تكون المعارف إلّا به، وهنا تطابقت الصّفة مع الموصوف (الفكْر الذي هو من الملكات العقلية مع الفكْر الذي هو ما يستخلصه العقل من حلول ومعالجات للمعضل البشري).

ولسائل أن يسأل:

لماذا سمي التفكير بهذا الاسم تفكيرا؟

لأنّه من الفِكَّر الذي لو لم يكن وجودا ما كان للتفكير مكانة؛ فالذي تميّز به، وبه وُصف (مفكّر)، ولا إمكانية لأن يكون مفكّرا لو لم تكن له ملكة التفكّر. فآدم لو لم يفكّر ما استغفر ربّه، أي: لو لم يكن لآدم فكر ما فكّر، ولهذا الفكْر في أساس وجوده خلق خُلق الإنسان عليه.

ومن هنا؛ فالمفكّر هو الذي تولد الفكرة من ذهنه، ولأنّ الفكرة مولود ذهني، إذن: ألا يكون الذّهن هو مكان الملكة الفكرية؟

وعليه: فالفرق كبير بين ما نفكّر به، وبين ما نفكّر فيه، فالفِكْر كونه ملكة عقلية نفكر به، والفِكْر كونه منتوج معرفي نفكر فيه وهو لا يكون إلّا بين سالبٍ وموجبٍ؛ ووفقا للإرادة نقبل أو نرفض، ونصحّح أو نضيف.

والسؤال:

من الذي يفكّر، هل الذي له عقل، أم الذي له فِكَر؟

العقل خُلق مع كلّ مخلوق، ولكن بنسب غير متساوية، وإلّا العداءات وما يصحبها من التحايلات والدّسائس التي تجري بين القطط والفئران، والثّعالب والدّجاج، والمفترِس والمفترَس ألا تكون هي نتاج عقل وإن كان العداء فطريا؟

كلّ هذه العداءات لا مصالحة من بعدها، وذلك لسبب واحد؛ ألا وهو غياب الفِكْر من عقول تلك المتربصات بعضها ببعض، ومن هنا، تكون الإجابة: الذي يفكّر هو الذي له فِكْر من صُلب خلقه، وهذا لا يتوافر إلّا عند الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم.

فالعقل لا شكّ أنّه يمكّن من التمييز، ولكنّه لا يمكّن من المراجعة حتى يتمّ التقييم والتقويم والتصحيح وتغيير الخطط ورسم خطط بديلة واستراتيجيات بعيدة المدى؛ فالعقل بلا فِكْر يقود إلى المغالبة، القوي يأكل الضعيف، أمّا الفِكْر فهو الضّابط للسّلوك والفعل والعمل، {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[2]. ولهذا فالكائنات الأخرى لها عقول تمكّن من الأفعال السّلوكية، ولكنّها لا تمكّن من التفكير ورسم الاستراتيجيات وهذه خاصّية الإنسان التي خلق عليها.

ولأنّ الفِكْر ملكة من ملكات العقل الواسعة؛ فالإنسان إذا ما سئل عمّا يسأل عنه ولكن في الإجابة ما هو محيّر؛ فلا يجيب إلّا بعد أن يعود إلى ملكة الفِكْر ليتدبّر أمر السؤال دون عفوية غير مسؤولة. ومن ثمّ لا يمكن أن تتمّ المراجعة ما لم يكن الفِكَر يشغل الحيّز الكبير بين ملكات العقل الواسعة؛ ولهذا فالمفكّر بطبعه يتدبّر أموره فكرا قبل أن يتخذ قراره؛ ذلك لأنّ الفِكْر يمكّنه من المعرفة والتمييز والاختيار كما يمكّنه من اتخاذ قرار العفو والصفح والتصالح والتسامح. أمّا غيره من الكائنات بالرّغم من أنّها تعقل، فإنّها لا تصفح ولا تعفو ولا تسامح ولا تصالح.

والإنسان لو لم تكن له ملكة الفكر؛ فهل له أن يفكّر؟

أقول:

---

[2] التين 4.

إنَّ العقل حتى وإن كان بغير فكر يُمكِّن من التعرّف، كما يتعرّف الكلب على صاحبه، وكذلك يمكّن من (الوقوف على الأشياء) وكيفية تجنّبها كما هو حال الكائنات عندما تتفادى السّقوط في بئر أو الوقوع في النّار، ويمكّنها من التعاون كما حال النّحل والنمل، ولكنّه لا يمكّن من معرفة كيف خلقت، ولا يُمكِّن من حُسن التصرّف، ولا يمكّن من رسم الخطط والاستراتيجيات؛ فالذي يمكّن من ذلك هو الفِكْر. ومن ثمّ؛ فالذي له ملكة فكرية ليس له إلّا أن يفكّر ويحسن تصرّف؛ كي لا يصطبغ سلوكه وفعله وعمله بالحيوانية حيث العقل بلا فِكْر.

والفرق كبير بين من يعقل ولا يفكّر، ومن يعقل ويفكّر، فالذي يعقل ولا يفكّر يدرك ويسلك، ويتحسّس الأشياء وينشئ منها شيئا كما هو حال النحل وبناؤه من الطّين بيوتا، أمّا الذي يعقل ويفكّر فيدرك الأشياء حسّا ودلالة ومعنى، وهو كما يدرك المشاهد يدرك المجرّد، ويتطلّع لإحداث النُقلة إلى ما هو أفضل وأجود، وله من الفِكْر ما يمكّنه من معرفة هيئة الشيء المراد صُنعه قبل أن يكون بين الأيدي شيئا مشاهدا، كما أنّ الفِكر يمكّن من التطلّع إلى معرفة الكيفية التي خلقت المخلوقات عليها ولا يتوقّف حتى يتمكّن من معرفة المستحيل مستحيلا ومعرفة المعجز معجزا. {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ}[3].

[3] الغاشية 17 . 21.

إذن: الفِكْر اسم متلازم مع الصّفة الفكرية، فهو الفِكْر خلقا، والفِكْر معرفة، والسؤال:

هل الإنسان الأوّل اكتسب الفِكْر من بعد ما خُلق؟ أم إنّه خُلق والفِكْر من خَلقه؟

أقول:

خُلق آدم عليه السّلام ولا فكر يسبقه، وهو لم يكن مفكّرُ (منظّرٍ) ومع ذلك تعلّم والمدرسة لم تبن، وهنا يُطرح السّؤال: بما أنّه لا تنظير (لا فِكْر) مسبق على خلق آدم، إذن: كيف كان آدم متلقيا للنبأ العظيم لو لم يكن له عقل والفِكْر مركزه؟

نعم إنّ آدم عليه السّلام لم يؤسّس لفكرٍ، بل فِكْر آدم مكّنه من تلقي النبأ العظيم، {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ}[4].

ولأنّ لآدم فكْر فقد ارتكب الخطيئة، ولأنّ لآدم فكْرٍ فقد استغفر ربّه؛ فتاب الله عليه، ومع ذلك كان حكم الله نافذ، ففتقت السّماء الدّنيا والأرض الدّنيا وأهبط بهما ومن كلّ زوجين اثنين، ومن

[4] البقرة 31 . 33.

بعد ذلك أصبح فِكْر آدم الذي خُلق له خلقا مشغولا بتلك الجنّة التي بقيت في علوٍّ، وهو يأمل العودة إليها. ومن هنا، نعرف أنَّ آدم كان على الفِكْر مفطورا، ومن ثمّ نعرف أنّ الفِكْر خاصّية آدمية.

ولأنّه خاصّية آدمية؛ فلابدّ للمفكّر أن يفكّر؛ ذلك لأنّ التفكير من طبعه، ولهذا فالفِكْر يمكّن من الاستشعار استنباطا وتدبّرا ذهنيا وليس استشعارا حسيا ملموسا كما هو حال الكائنات التي لها من العقل ما لها، وحتى لا نغفل، علينا بالتذكّر الذي يعيدنا إلى ما فعل ذلك الغراب يوم أن قصر فكر الإنسان عن المعرفة، {فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ}[5].

أمّا الفكْر المكتسب فهو لا يكون إلّا بأسباب التعلّم والمعرفة والتجربة والخبرة، وهو الذي يجسّد صفة الفِكْر على الإنسان كونه المفكّر، وهنا قال أبو حامد الغزالي: "اعلم أنّ الفكْر هُوَ إحضار

[5] المائدة 30، 31.

معرفتين في القلب ليستخرج منهما معرفة ثالثة"[6] وقال جون ديوي: "إن التفكير هو النّشاط العقلي الذي يرمي إلى حلّ مشكلة ما"[7].

الفكرة:

الفكرة هي: مكمن الحُجّة والتصوّر العقلي وهي تمتدّ من الذّهن إلى ميادين العمل فَتُفعل، وهي في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع بين إبداع واستقراء وتطوّر، ويترتّب عليها تقبُّل أو رفض، وبها تتحسّن الأحوال أو تسوء (إصلاحا أو إفسادا). يتطوّر فكر الإنسان بتوليد فكرة من فكرة، من المجرّد المدرك إلى الملاحظ المتهيئ إلى المشاهد أو من المشاهد إلى الملاحظ ثمَّ إلى المدرك، وهكذا تولَّد الفكرة من الملاحظ بما يجعلها في حالتي المشاهدة والتجرّد.

وفي الواقع إنَّ الأفكار كنشاطات ذهنية يقوم بها الإنسان كونها خاضعة لإرادته إلى حدٍّ بعيد؛ فهو في دائرة الممكن يُبدع الفكرة، بل يمكنه أيضا أن يضع تصوُّرا محدّدا للصّورة التي ينبغي أن يكون عليها التنفيذ، وهو قبل كلّ هذا وذاك بإمكانه أن يختار من بين عدّة أفكار ما يريد، وأن يرفض ما لا يريد، وبهذا ترتبط الأفكار بالإرادة بالرغم من أنَّ وجود الإنسان المريد لم يكن بإرادته.

---

[6] أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، مكتبة كرياطة، 4، ص 412.

[7] أ.د أديب محمد الخالدي – دار وائل للنشر والتوزيع، عمان–الأردن، ط1 2003م، ص19بتصرف.

وبناء على ذلك: هل نملك دائما حشد أذهاننا بشتّى أنواع الفكر؟ وهل نملك أبدا حرّية التنفيذ وحرّية اتخاذ قرارات بشأنها؟ وهل نملك أن نقف بمسارات تفكيرنا عند حدٍّ معين إذا ما تبدت لنا أفكار متسلّطة تسيطر على الذّهن دون أن نستطيع محوها بإرادتنا؟

أقول:

إنَّ كلّ ذلك ممكن، ممّا يجعل الإنسان نفسه في حالة التخيير عندما تكون الإرادة في دائرة الممكن، ويجد نفسه في حالة التسيير عندما لا تكون الإرادة والقدرة في دائرة الممكن، ولذا في هذا العصر تزداد السّرعة في توليد الفكرة، وأكثر سرعة تظهر في التطوّر والتنوّع المصاحب لها فمن المعلومة تتولّد معلومات، ومن المهارة تتولّد مهارات، ومن الفكرة تتولّد أفكار، وهكذا من الخبرة تتولّد الخبرة، كما يتولّد الدّخل من الإنتاج في أسواق المنافسة الحرّة؛ فاليابان على سبيل المثال: لا تهتم كثيرا بإنتاج الفكرة بقدر ما تهتم بتحسينها، وذلك لأنَّ مطالب السّوق كثيرة ومتنوّعة، وإنتاج الفكرة يحتاج إلى زمن أطول، أمَّا تحسين الفكرة فزمنه أقصر إذا ما قورن بزمن إنتاجها، وهكذا الحال في كوريا الجنوبية التي تَعُدّ نفسها في حالة تنافس مع العقل الياباني في تحسين الفكرة.

وفي زمن ما قبل العولمة لا يُهتم كثيرا بالعقول في المجتمعات والطبقات الفقيرة؛ وذلك للافتراض السائد بأنّها عقول غير مبدعة، وغير قادرة على الإنتاج؛ أمَّا في هذا الزمن فالشّركات العابرة للحدود

تخترق الكبير والصغير، والغني والفقير، وهي تبحث عن مكامن الأفكار التي يمكن أن تكون قادرة على نقل صاحب الفكرة من طبقة الفقر إلى طبقة الغنى، وهذا الأمر يترتّب عليه سقوط البعض من طبقات الأغنياء إلى طبقات الفقراء.

ولذلك فإنَّ الفكرة التي يُسوّقها القطيع الإلكتروني اليوم في عصر العولمة هي: لا داعي أن يتمسّك النشء بثقافة الآباء والأجداد، بل عليه أن يلتفت إلى التعرّف على نفسه وما يستطيع أن يُقدّم للمستقبل. ومن يُكتشف في ذهنه فكرة أو حتى في قدمه إذا لم يكن من المتعلّمين كما هو حال اللعيب البرازيلي رونالدو الذي في زمنه كان التنافس عليه في السّوق العالمي بين الأندية وشركات الدّعاية، وغيره كثيرون ممّا ترتّب عليه خروجهم في الحال من طبقة الفقراء إلى طبقة الأغنياء. ولذا في دائرة المتوقّع وغير المتوقّع أصبح من الممكن الانتقال المفاجئ صعودا أو هبوطا لكلّ من يقدر على المنافسة الحرّة بجهده أو فكرته أو ماله.

وبناء على ذلك: كانت الفكرة السائدة بين التجّار الكبار والتجّار الصغار المنافسة الحرّة إلى أن تصبح التجارة في استطاعة كلّ واحدٍ من الجميع، أمَّا اليوم فقد أصبح الشعار: المنافسة الحرّة هي التي لا يستطيع عليها إلّا الجميع، ولذلك بدأت اتجاهات الاندماج في السّوق بين أصحاب الشركات الكبرى، وهذا أدّى وسيؤدّي بدوره إلى سقوط الكثيرين غير القادرين على المنافسة الحرّة؛ وعدم مزاولتهم

التِّجارة كما كانوا يفعلون، وهكذا ستكون المنافسة في هذا العصر حتّى على مستوى الحصول على فرصة عمل؛ فإنْ لم يكن للفرد أكثر من مهنة أو أكثر من حرفة وأكثر من لغة فلن يستطيع دخول سوق المنافسة الحرّة ليتمكّن من الحصول على فرصة عمل.

توليد الفكرة:

تُنتَج الفكرة عقلا ولا شيء غير العقل، ولكنّها لا تنتج إلّا باستفزازٍ ذهني يثيرها بمشاهدةٍ أو بحيرةٍ، ومن هنا هي من إعمال العقل الذي يستمدّ الشيء المجرّد من الشيء المشاهد أو الملاحظ، كما هو استمداد القوانين من المعطيات الكونية والطّبيعية، ولأنّها مولود العقل؛ فهي متى ما وُلدت فيه، وُلدت منه رؤية لشيء قابل للتحقّق بين أيدي النّاس، وهي لا تكون كذلك إلّا بتلاقح الآراء (سالبها وموجبها)، وكلّما كثرت المستفزّات الخَلقيّة والخُلقيّة أثارت العقل انتباها لما يجب؛ فتدفعه حيويّة الحيرة تجاه التخلّص من العَتَمة التي تَحول بين المحيّر والمأمول.

ومع أنّ الفكرة تخلّص من الحيرة، لكنّها لا تكون ارتقاء إلّا من بعدها؛ فالحيرة بالنّسبة إلى الفكرة تعدّ مخاض ولادة، وولادة الفكرة بدون حيرة تسبقها، هي: ولادة قسرية؛ فلا يمكن أن يتطابق الزّمن الافتراضي لولادتها مع زمن قسريتها، فتولد مشوّهة، وبالتالي ستكون

الحلول أو المعالجات أو الإصلاحات المترتّبة عليها منقوصة، أو منحرفة تجاه المخالف للمأمول ارتقاء.

ومع إنّ هذا الأمر يعدّ سالبا بالنّسبة إلى الفكرة ارتقاء، ولكنّه الأمر المحيّر والمستفزّ لعقول الآخرين إيجابا، ممّا يحفّزهم ويدفعهم إلى الالتفات تجاه المحيّر، حتى تلد الحيرة فكرة، تخرج من التأزّم.

ومع أنّ زمن الحيرة الفكرية مُقلق لمن ألمت به وألمّ بها، ولكنّه المخاض الذي ينذر بولادة ما يسرّ العقل والنّفس، وما يسرّ الغير ارتقاء، ولذلك؛ فالبحوث العلمية ارتقاء تسبقها الحيرة المؤدّية إلى ولادة الجديد المحفّزّ على حيرة جديدة من بعدها حيرات تُمكّن من إضافة ما هو أفيد وأنفع.

إذن: فلا داعي للقلق من الحيرة؛ فقلق الحيرة يُمكّن من الإلمام بالمحيّر حتى يُقتنص له حلّ، ومن لا حيرة تستفزّه؛ فعليه أن يفكّر في الشيء استحالة أو إعجازا أو ممكننا حتى يقتنص حيرة بها يقتنص فكرة تلد له حلّا.

وهذا لا يعني: أن تكون الحيرة غاية في ذاتها، بل الغاية من ورائها حلّ، ولكن هذا الأمر يتطلّب مقدرة على تحدي المقلق بما يُقلقه، حتى يصبح القلق بولادة الفكرة في خبر كان؛ فأهل العلم والبحث العلمي لا يمكن أن يصلوا إلى غاية الارتقاء إلّا بعد الحيرة،

ومن لا يقبل الجلوس مع الحيرة في تحدّ؛ فلا إمكانية لأن يُكتب له التحدّي في ميادين العلم والمعرفة المصنّفة.

ولسائل أن يسأل:

هل الفكرة والحيرة ولدتا مع مولد آدم، أم أنّهما اللاحقتان عليه؟

بالنّسبة لآدم لم يكن مولودا، بل مخلوقا خلقا مباشرا بلا أب ولا أم، ولهذا؛ ما وجد عليه، فهو المخلوق معه خلقا، ولكن بنوه؛ فكلّ شيء فيهم خُلق سلالة من نطفة؛ فآدم خُلق في أحسن تقويم، وهذا يدلّ على أنّه معدّ للحياة لحظة خَلقه، أمّا بنوه من بعده؛ فحالهم حال الولادة والنّمو والتعلّم والتعليم، أي: حلهم حال من لا يستطيع أن يفكّر لحظة الولادة، ولكن في دائرة الممكن يبلغ ذلك تعلّما وتعليما.

فآدم كانت علاقته بالخالق والمخلوقات من حوله علاقة فطرة مباشرة، ولكن المحيّر بالنّسبة إلى آدم عليه السّلام هو حياته في كونين مختلفين على التّمام، كون الارتقاء (الجنّة) وكون الدّنيا (الأرض)، فهو بعد أن كسب الجولة خَلقا، خسرها خُلقا، وذلك بعد أن أهبط به بسبب المعصية التي ارتكبها، ومن هنا، بدأ يفكّر كيف يمكنه الارتقاء ثانية من الحياة الدّنيا إلى تلك الحياة العليا؟ في ذلك اليوم وُلدت الحيرة، أي: وُلدت الحيرة إنذارا بولادة الفكرة؛ فكان الاستغفار والتوبة نتيجة الفكرة التي أخرجت آدم من حيرته إلى ما يُمكّنه من بلوغ الارتقاء إلى

تلك الجنّة التي أهبط منها. وهي الحيرة ذاتها التي ألمت بابنه في لحظة قتله أخيه، ولكنّه وقف قاصرا عن المعرفة حيث لا فكرة له عمّا جرى بيديه؛ فبعث الله غرابا ليريه سلوكا وعملا يمكّنه من المعرفة بلا فكرة من عنده.

ولهذا؛ فالفكرة ينتجها العقل، وتأخذها العقول، وتوظفها فيما يمكن أن يوظّف ويفيد.

وعليه:

لقد استلهم آدم الفكرة من أمورٍ:

الأمر الأوّل: من طبيعة الفطرة: التي خُلق عليها واصطبغ بها وجوده في أحسن تقويم، ولكن لأنّه خُلق على التسيير والتخيير؛ فكان للتسيير الطبيعة الخَلقية، وكان للتخيير فسحة الإرادة التي مكّنت آدم من الأكل من تلك الشّجرة المنهي الأكل منها؛ فخالف أمر النّهي معصية؛ بأسباب قصور معرفته أمام كمال الخالق وإحاطته؛ ذلك لأنّ آدم وبنيه لا يعلمون إلّا ما يُعلّم، ومن هنا كان الإنباء لآدم مصدر المعرفة ومكمن الفكرة ارتقاء.

ولهذا؛ فالفطرة التي فُطرت المخلوقات عليها هي التي جعلت لكلّ زوجين خصوصية، دفعتهما تجاه بعضهما، وهي ذاتها التي حالت بينهما وبين الأزواج الأخرى إلّا بما يفيد، فكانت حياة الفطرة ميسّرة

لكلّ الأنواع تيسير جاذبية نوعيّة، وغريزية؛ ومع ذلك ظلّ الإنسان مهيأ لما هو أعظم؛ فكان عقله مقلّدا لما يراه في دائرة الممكن تخييرا.

الأمر الثاني: التقليد: وهو الذي لا يكون إلّا عن عقلّ، ولكن القصور على التقليد لا يمكّن من توليد الفكرة؛ ذلك لأنّه لم يمرّ بزمن الحيرة الممكّن من التعمّق في التفكير حتى كشف اللثام عن الحقيقة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع؛ فآدم تقليدا: قلّد إبليس؛ فأكل من المنهي عنه، وكذلك ابنه: قلّد الغراب؛ فعرف كيف يواري سوءة أخيه، وهكذا، هي الحياة تطوّرا من الخَلق، إلى الفطرة، إلى التقليد، إلى توليد الفكرة، التي توليدها لا ينقطع فكرة من بعد فكرة. ولكن يظل التقليد قاصرا، والفكرة في حيّز العقل مهما عظمت؛ فهي لا تخرج عن دائرة الممكن؛ ولهذا، بعث الله الأنبياء والرّسل عليهم السّلام بالنبأ العظيم مبشّرين ومحرّضين ومنذرين وداعين للتفكير ارتقاء.

الأمر الثالث: النبأ العظيم: مع أنّ الإنسان خُلق في أحسن تقويم، ولكنّه لم يُخلق على الكمال، ولهذا؛ فتفكيره لا يمكن أن يخرج عن حيّز دائرة الممكن؛ فكان الإنباء بما يجب من الخالق إلى المخلوق يمكّن المخلوق من الوقوف على المعجِز، ومعرفة المستحيل مستحيلا؛ فأنزلت الأحكام المنظمّة للعلاقات بأسباب الاختلاف والخلاف الذي حدث على الأرض الدّنيا، معصية واقتتالا؛ ليفتح آفاق التفكير فيما يجب أن يؤخذ، وما يجب أن يُجتنب، وما يجب أن يُنتهى عنه.

ومن ثمّ؛ تعدّ الفكرة هي الأمر الرّابع الممكّن من المعرفة والبحث في دائرة الممكن، وهذا لا يعني: أنّ الإنسان قبل ذلك لا يمتلك الفكرة، بل قبل ذلك كانت حياة الفطرة هي السّائدة، ثمّ حياة التقليد، ثمّ من بعدها حياة الإنباء الذي جاء تنزيلا على الأنبياء والرُّسُل عليهم السّلام، بهدف تقييم الأخطاء، وتقويم السّلوك والعمل، الذي ولّد الفكرة، وولّد منها أفكارا.

فالفكرة إنتاج العقل وإعماله، وهي بالنّسبة إلى من تولّدت في عقله مثل: البذرة، أو النّواة التي يراها المفكّر مخزّنة في محفظة ذاكرته وكأنّها الشّجرة متكاملة، جذورا وجذعا وأغصانا وأوراقا وثمارا؛ فهو يراها على هيئة الصّورة قبل أن تتجسّد في الشّكل والصّورة، ومن هنا، يكون مولود الفكرة هو الإبداع الذي يُسهم في إضافة الجديد النّافع ارتقاء.

ولهذا؛ فالفكرة في ذاتها مجرّدة، حيث لا هيئة لها إلّا في ذهن المفكّر الذي نضجت في عقله مثلما تنضج النّواة من تربتها شجرة متكاملة، ولذا؛ فالهيئة تكون للصّورة التي أساسها فكرة، ومن ثمّ؛ فالفكرة ترتبط بالمشاهد والملاحظ مثلما ترتبط بالمجرّد، والفكرة متى ما تكون نتاج تذكّرٍ، يكون التفكّر هو المهيئ لاصطيادها، أمّا التدبّر؛ فلا يكون إلّا نتاجها سلوكا وعملا.

والفكرة وإن كانت مجرّدة في الذّهن، لكنّها على أرض الواقع تتجسّد في المشاهد والملاحظ، سواء أكانت معرفة قيم وفضائل ونظم

وقوانين، أم إنّها معرفة ملموسة مادّيّا، ومن هنا، كانت هيئة الخلق سابقة على صورته مخلوقا، وهيئة المصنوع سابقة على وجوده مصنوعا.

ومن ثمّ؛ فالفكرة متلازمة مع التكاثر تكاثرا، فمع أنّها لم تكن مخلوقة، ولكنّها تتخلّق في عقل الإنسان تدبّرا من بعد تدبّر، وإنتاجا من بعد إنتاج؛ فهي القوّة الموجدة لما لم يوجد من قَبل، وهي وإن لم تتطابق مع خلق الشيء من لا شيء، لكنّها تتماثل معه من حيث إيجاد الشيء من الشيء نشوءا؛ فالإنسان الذي خُلق نشوءا زوجيا، كان وجوده وفقا لقانون الفطرة والتقليد، ولكنّه من بعد ذلك إنباء استطاع أن يتبيّن مكامن الحقيقة، التي لفتته إلى نفسه ومَن حوله، فاستكشف علاقات قابلة لأن تتطوّر ارتقاء، فاستفزّت عقله يقظة زوّدته بالمعرفة الممكّنة من البناء والإعمار وتحدّي الصّعاب التي تواجهه كلّ يوم.

وكما أنّ الحيرة يقظة عقلية تستوجب مواجهة القلق بما يُقلقه؛ فكذلك الصّعب يعدّ معطية مثيرة للعقل ومستفّزة لملكاته، التي تتحفّز إلى المواجهة معه متى ما اعترض طريقها، ومن هنا، بدأت مواجهة العقل للصّعب تحدٍّ من ورائه تحدٍّ، وفي المقابل الصّعب يقدِّم التنازل من بعد التنازل.

فالصّعب ليس بالمستحيل ولا المعجز، حتى يستحال تحدّيه، بل ميادين تحدي الصّعب هي فسيحة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، ولا خوف من مواجهة الصّعب، بل الخوف من عدم حدوث المواجهة

معه؛ فالمواجهة العقلية معه كلّما حدثت عن تدبّر فكرة، أنتج العقل فكرة أكثر ارتقاء؛ ولذا، ستظل الفكرة عقلية إلى حين استخراجها فيما يمكن أن يكون على الشّكل أو الصّورة، أو المفهوم والدّلالة والمعنى، والذي يتجسّد في العمل والسلوك.

ومع أنّ العقل مكمن الفكرة، ولكنّه أيضا منبع الأمل، ومع أنّهما معا من إعمال العقل وفي محفظته، ولكن الأمل يتعلّق بالغايات الخارجية، التي في دائرة الممكن لا تُبلغ إلّا تخييرا وإرادة؛ فمن يمتلك الإرادة يستطيع الاختيار المِمكّن من التدبّر وحمْل المسؤولية، ومن لا يمتلكها، فإشارة قف لا تسمح له بالعبور إلى ضفاف الارتقاء؛ ولذلك؛ وراء كلّ غاية فكرة، ولكن أيّة فكرة؟

هل هي فكرة فكّ القيد؟ أم إنّها فكرة وضعه؟

أقول: القيد مولود الفكرة؛ فلو لم تكن الفكرة ما كان القيد؛ فالإنسان عندما لا يستطيع ضبط نفسه عن إرادة؛ يجد نفسه يفكّر والحيرة تملؤه حتى يجد قيدا لضبطه، وبعد أن يُقيّد بما أوجده من قيد من قِبل الغير، يبدأ يبحث تفكرا في كيفية فكّه وبكلّ ما يتيسّر له حيلة.

ولذا؛ فمن يريد أن يكون إنسانا في أحسن تقويم؛ فعليه أن يتمسّك بعقله الذي به يتميّز عن غيره، وإذا أرد الحرّيّة؛ فعليه أن يقبل التنازل عن عقله كي يستطيع في دائرة الممكن أن يفعل ما يشاء متى ما

يريد، ولكنه نهاية سيعرف أنَّ للحرّية ثمنا، وهكذا إذا أرد الاثنين معا؛ فعليه أن يقبل بحياة المساجين الأحرار التي يشار إليها بالقضية:

(كل أ ليست أ)

فنحن بنو آدم لولا العقل وما نفكّر فيه ما عرفنا المرغوب والممنوع، ولا المحلّل والمجرّم، ولولا العقل والفكرة ما استعملنا كلمتي: (قفْ وسرْ)، ولا كلمتي: (لا، ونعم)، ومن ثمّ؛ فإن لم يقيّد الإنسان نفسه عقلا، سيجد نفسه مقيّدا من قِبل الغير، بفكرة القيد التي أنتجها عقله، ومع أنّ السّجن هو السّجن؛ ولكن تدبّرا إن وَضع الإنسان نفسه في قيد عقله؛ فهو على الأقل أصبح يمتلك الإرادة، ولكن إن وُضع القيد في يديه كرها؛ فهل يمكن له أن يكون على شيء من الإرادة؟

ومن ثمّ؛ فإذا سلّمنا أنّ العقل هو الذي يقيَّد نفسه، ألا نسلّم بأنّه قادر على فكّ قيده عن نفسه ارتقاء؟

لا شكّ أنّه سيكون قادرا إذا قبل التوقّف عند حدوده، ولا يتمدّد على حساب حدود الغير؛ ولكن إن تمدّد؛ فسيجد نفسه سجين تلك الفكرة التي أنتجها قيدا.

ولهذا؛ فالإنسان الأوّل الذي خُلق على الزّوجية، عاش حياة الفطرة جنّة، إلى أن عصى ربّه؛ فأهبط به والأرض أرضا؛ فظلَّ من بعد الهبوط على أمل العودة إلى تلك الجنّة، وظلّ بنوه من بعده، يسعون

ويعملون كلّ ما من شأنه أن يرتقي بهم إلى المأمول غاية؛ فتولّد التفكير في عقولهم، فكرة من بعدها فكرة؛ فأنتجوا الثّقافات، وبنوا الحضارات، ومع ذلك؛ فهم يعلمون أنّهم كلّما أنتجوا فكرة واجهتهم صعاب تستوجب المزيد من إنتاج الفكرة، ولذلك؛ فهم قبلوا التحدّي والصّعاب كلّ يوم تهزم صعوبة من بعد صعوبة.

ولذلك؛ فمرحلة الفكرة جعلت الإنسان يقف على المعرفة الممكّنة من كشف العلاقة بين الخَلق والنّشوء والإعجاز والارتقاء، وفتحت أمامه آفاق البحث العلمي الممكّن من صناعة المستقبل وتجاوزه ارتقاء.

ومع أنّ الفكرة مولود العقل، ولكن مستفزّتها خارجية، {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ}[8]. ولذلك؛ فالفكرة لا تستمدّ من العالم الخارجي كما كان يراها أرسطو، بل العالم الخارجي هو مصدر استفزازها؛ فيخرجها من الكمون إلى حيّز الوجود وكأنّها تُعبث من العدم.

فالفكرة في ذاتها هي مجرّدة، ولكن في مفهومها ومضمونها تحمل رسالة، أو مشروعا، أو رؤية، أو حلّا يمكّن من فكّ التأزّمات، والإقدام على ما يمكّن من الارتقاء؛ فالفكرة لم تكن خاطرة عابرة تأتي هكذا

[8] الغاشية 17 . 21.

وتذهب وكأنّها لم تأت، بل الفكرة كما تستمدّ من السّابق، فهي تضيف الجديد، ثمّ تفتح آفاق الارتقاء مع المستقبل.

ولهذا؛ فالفكرة تمكّن من استخراج المجهول من المعلوم، أي: تستكشف المعلوم وتخرج المجهول منه؛ فيصبح معلوما وليس مخلوقا؛ فالفكرة تستنبط وتستمدّ من المخلوق شيئا لا ينقص من المخلوق شيئا، وفي المقابل تزداد المعارف أشياء مستكشفة.

والفكرة لم تولد في الخارج، بل الخارج يستفّز العقل ويُلفته إلى ما يُمكِن أن يُستكشف، فيبدأ العقل عمله تجاه المستفزّ والحيرة تلازمه حتى يبلغه، وحينها لا تجد الحيرة مكانا لها عند المستكشف معرفة، أي: لا يمكن أن تبقى الحيرة مع التجلّي المعرفي، بل هي تبقى مع بقاء اللبس والغموض، وفي المقابل تزول بزوالهما.

والفكرة تعدّ صوغا عقليّا لمولودٍ لم يولد بعد، وهو بعد الولادة لن يكون فكرة، بل شيئا غيرها، ولكنّه المؤسّس عليها، فلو لم تكن ما كان، ولهذا؛ فالفكرة هي استنباط الشيء من الشيء، بعد تهيّئه على الشّكل أو الصّورة أو الرّسالة والموضوع، ممّا يجعل المستنبط في صورة موضوع عام، حيث لا تفصيل؛ فالتفصيل لا يكون إلّا للموضوع الذي تمدّدت الفكرة فيه بداية ونهاية، والفكرة هي الفكرة، والموضوع ارتقاء لا يكون إلّا المفسّر للفكرة إيضاحا.

فبعد أن تطوّر الإنسان من حياة الفطرة والتقليد إلى حياة الإنباء والفكرة، أصبح يُبدع استكشافا، وليس خَلقا؛ ذلك لأنّ المخلوق لا يَخلق، ولكنّه في دائرة الممكن يكتشف المخلوقات، ثمّ يكتشف منها أسرارا كانت مجهولة؛ فيكتشفها بحثا، وتأملا، واستنباطا، واستقراء، ثمّ يوظّفها بما يعود عليه بالمنفعة، وهكذا هي الحياة والإنسان فيها يتطوّر بالفكرة، ومع ذلك لم يكن التفكير كلّه مؤسّسا على استنباط الفكرة ارتقاء، بل هناك من الفكرة ما يؤدّي إلى السُفلية والانحدار.

ومع أنّ الفكرة تولد في العقل البشري بداية بمستفزّات خارجية، ولكنّها بعد أن تلد منه إنتاجا، تصبح وفقا للقدرة قابلة للانتقال من عقلٍ إلى عقلٍ مع وافر التأثير، سواء أكان تأثيرا موجبا، أم سالبا، وعندما تكون الفكرة بنائية، تدفع المتلقِّين لها إلى الارتقاء، ولكن إن كانت هدّامة؛ فستدفع بمتلقيها إلى ارتكاب الأعمال الدُّونية. ومع ذلك، فالعيب لا يلاحق الفكرة، بل العيب يلاحق من كان من ورائها (من أوجدها)؛ الذي فكّر فيما يضرّ في الوقت الذي ينبغي أن يفكّر فيه فيما يفيد وينفع، وهنا تكمن العلّة، أي: تكمن العلّة في أصحاب الفكرة الهدّامة سواء الذين أنتجوها، أم أولئك الذين سوّقوا لها ووظّفوها.

ومع أنّ الفكرة في دائرة الممكن (بنائية أو هدمية)، ولكنّها بين هذا وذاك، يمكن أن تكون (إصلاحيّة)، وهذا يعني: أنّ الفكرة البنّاءة

تصحّح أخطاء الفكرة الهدَّامة متى ما كان الحوار والجدل بين النّاس موضعيّا، ولا إمكانية أن تكون الغلبة للفكرة الهدّامة كلّما ساد الحوار والجدل منطقا (حُجّة بحجّة)، ولذلك؛ فالمعلومة الصّائبة تصحّح المعلومة الخاطئة كلّما طرأت؛ ذلك لأنَّ أثر الفكرة اليائسة يصحّح أو يعالج بالفكرة المملؤة أملا؛ فالفكرة الأمل تحفّز على البقاء المرضي، وتدفع تجاه المستقبل الأكثر إرضاء.

والفكرة كونها مجرّدة؛ فلا علاقة لها بالاقتناع من عدمه؛ فالاقتناع من عدمه مسؤولية من ينتج الفكرة، أو يتبنّاها، أو يأخذ بها من صاحبها أو متبنيها؛ فالعقل السّليم في معظم الأحيان يأخذ بأحسن الفكرة، والعقل العليل في معظم الأحيان يأخذ بأسوئها، ومع ذلك فللفكرة الحسنة مسوّقين، وللفكرة السّيئة مسوّقين، ومتى كان المسوّق على مقدرة إقناعية راجت فكرته حتى وإن كانت هدمية، وإن لم يكن له مقدرة إقناعية انكمشت فكرته وإن كانت بنائية، وهذه العلاقة هي بالتّمام علاقة بين من يسعى إلى الارتقاء، ومن يسعى للدّونية والسُفلية؛ أي: فمن أراد ارتقاء فعليه أن يأخذ بفكرة الارتقاء نهضة وتقدّما، أمّا من أراد سُفلية؛ فأفكارها في الأسواق الهدّامة كثيرة.

ولذلك، تعدّ الفكرة ارتقاء مصدرا للرّؤية البنائية، سواء أكانت رؤية فكريّة (تتعلّق بالنّظم والقوانين ورسم السياسات، وما يؤدّي إلى الإصلاح وبلوغ الحلّ) أم أنّها كانت عملية، (تتعلّق بالاقتصاد والتجربة

والبناء والإعمار)؛ فالفكرة سواء أكانت نظرية أم عملية، تخلق جدلا بين منظِّر، ومسوّق، ومؤيّد، ومعارض، وتابعين مختلفين.

وعليه:

الفكرة حرّة، لا تُسجن وإن سُجن أصحابها ومسوّقوها، إنّها مولود العقل الذي فكّر في إيجاد كيفية تسمح له بالتمدّد داخل حدوده أو خارجها على حساب الغير، ثمّ من بعدها فكّر في ما يخالفها غاية، فأوجد كيفية تكبح السّلوك وتقيّده متى ما تمدّد على حساب الغير؛ لأنَّ الفكرة من طبيعتها التمدّد بين العقول، كما تمدّدت ارتقاء من النّظر إلى الخَلق، إلى البحث عمّا يُمكّن من معرفة الكيفيّة التي هو عليها، وذلك بغاية البحث ارتقاء عمّا يمكّن من معرفة المشاهد (هو كما هو)، ويمكّن من معرفة المعجز (آية بعد آية)، ثمّ يمكّن من بلوغ معرفة المستحيل مستحيلا، وهكذا هي الفكرة تتمدّد بين أيدينا ارتقاء.

فنحن بنو آدم عرفنا أنّ الشيء في أساس خلقه قد خُلق من غير موجود، وعرفنا أنّ بلوغ المستحيل مستحيل، وعرفنا نشوء الشيء من الشيء معجزة، وعرفنا أنّنا نعرف ما عرفنا ارتقاء، ثمّ عرفنا أنّنا في حاجة لمعرفة المزيد.

ومن ثمّ؛ فالفكرة لا تخلق الشّيء، ولكنّها تستكشفه، ولا علاقة لها بالخَلق؛ فالخَلق لم يكن من الفكرة، ولا من المفكّر. وإنما الخَلق من العلم، وبالأمر كن، ومن هنا؛ فالخالق لا يفكّر، بل الخالق يعلم كلّ

شيء؛ وفي المقابل الذي يفكّر هو الذي لا يعلم، ولهذا يفكّر ويبحث بغاية أن يعلم.

والفكرة كمفردة تتشعّب فكرا، فتتمدّد في شؤون الموضوع الذي يحملها في أثنائه فروعا فهي مثل النّواة التي تغرس في التّربة والمناخ المناسبين لها؛ فتنمو شجرة ضاربة في الأرض وجذعها إلى السّماء فروع متفرّعة، أي: تتفرّع الفكرة الواحدة فكر متعدّدة التفاصيل حتى يكتمل الموضوع رسالة أو رؤية. بمعنى: تتعدّد الفِكَر المتفرّعة من الفكرة بما يمكّن من استيعاب الموضوع فِكَرا مفصّلة.

وتعدّ الفكرة قاعدة التنظير، فلسفة وسياسة واقتصاد واجتماع، أمّا الدين؛ فلا تنظير فيه؛ فهو لا يكون إلّا من خالق؛ ذلك لأنّ الدّين لم يبن على الفكرة، مع أنّ الفِكَر الثّمينة لا تستمدّ إلّا منه، أي: كلّ شيء يؤسّس على الفِكَر، لا يكون إلّا من مفكّر، والدّين ليس كذلك، ولهذا؛ فلا فكر ديني كما يعتقد البعض، بل الدّين لا يكون إلّا علم من عليم، ولهذا؛ فهو لا يستند على الفكرة، بل يستند على المعجزة، التي تتنزّل نباء ورسالة، وتنسب لخالقٍ، ولا تنسب لمفكر.

تلازم الفكرة:

الفكرة على علاقة تلازم بين طرفين: الإنسان والموضوع، وإلّا هل يمكن أن يكون هناك موضوع بلا فكرة؟ أو أن يكون الموضوع بلا مفكّر؟

إنَّها علاقة تلازم، فأينما ما تكون الفكرة يكون الإنسان، وأينما ما يوجد الموضوع توجد الفكرة، وبما أنَّ الأمر كذلك: فإنَّ الأفكار ليست واحدة، بل إنّها مرتبطة بالأفراد وبمستوى تفكيرهم وبالفروق الفردية التي تميّزهم؛ فالأفراد يفكّرون تقاربا وتباعدا، وقد يحدث التفاعل بينها أو يقع الاختلاف، ولذا لا تفاعل إلّا بعد لقاء، ولا لقاء إلّا على موضوع، ولا تفهُّم إلّا بالفكرة.

وإذا تساءل البعض:

هل التفاعل يتمُّ بين الأفراد أم الأفكار؟

أقول:

قد يلتقي الأفراد ولا يتمّ بينهم تفاعل ولا تفهّم، والسّبب هو: اختلافهم على الموضوع والفكرة، والأفراد بدون موضوع لا خلاف بينهم، والجدل والحوار الفكري هما المحقّقان للتفاعل والتفهّم أو الاختلاف، فإذا حدث التفاعل بين الأفكار حدث التفاعل بين الأفراد والجماعات والمجتمعات وتفهّم كلّ منهم الآخر، وإذا لم يتحقّق التفاعل بين الأفكار فلا يمكن أن يتحقّق التفاعل بين الأفراد والجماعات والمجتمعات9؛ فالإنسان لا يجد نفسه إلّا في الفكرة التي تعبِّر عن ذاته،

---

5 عقيل حسين عقيل، المفاهيم العلمية (دراسة في فلسفة التحليل). طرابلس: دار الروّاد، 2000، ص 41.

من خلال طموحاته وآماله وأحلامه، وهذا سببٌ آخر لتعدّد الأفكار وعدم توحيدها؛ فالفكرة التي يراها البعض معبِّرة عن ذاته قد لا تتماثل مع الفكرة التي يراها البعض الآخر هي خير معبِّرٍ عن ذاته، بالرغم من أنَّها قد تدخل في حيّز التشابه معها، والفكرة التي يراها البعض أنَّها تجسّد طموحاته في فترةٍ ما من فترات الحياة قد تُستبدل بأخرى في فتراتٍ لاحقة عندما تتغيّر هذه الطموحات أو تتجدّد، وهكذا يكمن الإنسان في الفكرة التي تطوي به المسافات وتصله بالآخرين.

وعليه:

. لا أدري هل أنا الذي أنقل الفكرة من مكان وزمان إلى مكانٍ وزمانٍ آخر، أم أنَّ الفكرة هي التي تنقلني في كلّ حين وكلّ مكان؟

. لا أدري هل أنا الذي أتفاعل مع من تنقلني إليهم الفكرة، أم أن فكرتي هي المتفاعلة معهم؟

في كلّ الحالات أنا في الفكرة أكمن، مثلما تكمن الفكرة في مكمن أفكاري، وفي مثل هذه الحالة تكمن الفكرة في المدركات العقلية مثلما يكمن الزيت في حبة الزّيتون.

ولذلك اختلاف الأفكار لا يجرّدها من صفة التشابه، كونها متشابهة فيما بينها بما يفسح مجالا لاختلافها في آنٍ واحد، ففي الاختلاف تشابه، وفي التشابه اختلاف، والطّرفان المتشابهان من زاوية يمكن أن يكونا مختلفين من زاويةٍ أخرى والعكس جائزٌ أيضا، ولذلك

فالاختلاف في الفكرة هو قرين التشابه، وحيثما وجدنا التشابه وجدنا معه الاختلاف، فقد تتشابه المجتمعات في الأفكار وتختلف في طرق التعبير وأساليبه عنها، وقد تتشابه مضامين الأفكار وتختلف محتوياتها، والاختلاف على هذا النحو ليس عيبا؛ لأنَّه لو كان كذلك لخلقنا الله تعالى متطابقين في كلّ شيء يتعلّق بالفكرة، ولذا يجب أن يسود بين النّاس احترام الرأي والرأي الآخر، ولا إكراه بين النّاس؛ فلو كان للإكراه قيمة حميدة ما نهى الله تعالى عنه حتى في الدين مصداقا لقوله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}10، وقال تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}11، وقال تعالى: {أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}12.

ولأنَّ القاعدة الأخلاقية قيما وفضائلا تتمركز على (لا إكراه)، إذن لابدّ وأن يكون الاختلاف بين الذين يدركون الأمر (هو كما هو) والذين لا يدركونه بالصّفات والحقائق ذاتها، ولا عيب في الاختلاف، بل العيب أن تُفرض وجهة النّظر الواحدة على الآخرين كرها.

ولأنَّ الفكرة تتمركز على (أنَّ لكلِّ مشكلة حلّا) إذن لماذا لا يتمّ الحوار والجدل بالتي هي أحسن؛ ليكون التفاهم بين النّاس قيمة

---

[10] هود، 118، 119.

[11] البقرة 256.

[12] يونس 99.

حميدة، ولتمتدّ الفكرة وتنتشر من عقل إلى عقلٍ آخر، وإذا انكمشت الفكرة ليس لها بدّا إلّا أن تعود إلى الأصل، أي: إلى العقل الذي كمنت فيه أوّل مرّة، فالأفكار في أساسها منكمشة في العقول والصّدور، ثم تتمدّد من خلال الاتصال، وتختلف وتتشابه بالتفاعل، وتنتشر بالتبشير، والترشيد، والتحريض، والتنظير، وبالجدل تترسّخ، أو تُصحَّح، وإن خضعت للشكّ تُصبح قابلة للإثبات أو النفي بعد معرفة واعية وتبيّن صادق.

ولذا تتمددّ الأفكار وتنتشر بقوّة حجّتها، ثمَّ تعود إلى الانكماش عندما تضعف أو تشيخ. وعندما تتمدّد الأفكار من عقول حامليها وصدورهم إلى عقول وصدور أخرى، فإنّها تشغل حيّزا في محافظهم الذهنية نتيجة امتدادها إليهم، وهي تنتشر بين النّاس حسب قوّة تأثيرها سلبا أم إيجابا. والأفكار الموجبة عندما تتمدّد خارج المجال أو البعد الذي يمكنها التأثير فيه، قد تحقِّق نتائج سالبة وفقا للموضوع الممتدّة منه والممتدّة إليه13.

إنّ تمدّد الفكرة من عقلٍ إلى عقلٍ، هو بمثابة التمهيد لتبنِّيها، ومن ثمّ لتُجسّدَ في سلوكٍ، وهي لا تمتدّ هكذا جزافًا، وإنَّما بقوّة الحجّة التي تمتلكها، والتي تكون وسيلة مهمّة لدعم هذا الامتداد؛ فقوّة الحجّة المتضمِّنة في الفكرة وقوّة التأثير الذي تتمتّع به سواءً اتَّسم هذا التأثير بالسلب أم الإيجاب هما دافعان للامتداد أو الانتشار، ذلك لأنَّ انتشار

13 المرجع السابق، ص 122.

الفكرة من فرد إلى فرد، والخروج بها من حيّز العقل إلى حيّز السّلوك والفعل يدلُّ على أنّها تتمتّع بالتأثير الحيوي الدّافع وراء هذا الامتداد.

وتظل الفكرة متأرجحة بين الشكّ واليقين إلى أن تثبت بمصادق فتتمدّد انتشارا، ومن ثمّ يمكن أن تتجسّد في سلوك وفعل، أو أن تُنفى من قِبل الموجّهة إليهم؛ فتضعف وتنكمش إلى أن تعود إلى النواة التي كانت تكمن فيها وهي العقل مكمن توليدها.

ولأنَّها الفكرة الممتدّة من عقلٍ إلى عقلٍ فالتساؤلات تلاحقها من أجل المعرفة والتبيّن:

- من الذي أنتج الفكرة ؟

- ما علاقة الفكرة بالموضوع؟

- من هو المستهدف منها؟

. ما هو الظاهر والكامن منها؟

- من هو المستهدف بها؟

فالفكرة لا ينبغي أن تواجه بالرفض أو القبول المسبق، بل ينبغي أن تكون بين الأطراف قابلة للتحليل والاستبصار والتبيّن، ثمَّ اتخاذ القرار المستقل من أجل قبولها أو رفضها أو تحسينها. فقد تمتلك الفكرة المستحدثة القوّة اللازمة لقبولها والاقتناع بها والعمل على نشرها، وقد تنسجم الفكرة المستحدثة التي يُراد لها الامتداد مع الأفكار السائدة من

قَبل، وقد تتعارض معها فيصبح هناك نوع من العداء بين من يؤمن بالفكرة القديمة ومن يؤمن بالفكرة المستحدثة أو الحديثة؛ فبعض النّاس يحاربون عادة كلّ ما من شأنه أن يصدم أفكارهم القديمة أو أن يحطّ من قدرها بإحلال بدائل حتى ولو كانت أفضل، وهم يتّسمون عادةً في مثل هذه المواقف بعدم القدرة على اكتشاف المزايا الجديدة التي يمكن أن تحملها الأفكار المستحدثة؛ فنجدهم ينكرونها ويحاربونها بشدّة، وهكذا إلى أن يتمكّنوا من الإلمام بالفوائد العائدة منها، وعندئذٍ قد تنشط حركة امتداد الفكرة من جديد.

وفي كلِّ الحالات، فإنَّ قبول الفكرة الجديدة أو المستحدثة يستلزم أن يعطي المتلقي أو المتقبّل لهذه الفكرة مؤشّرات سريعة كاستجابة دالة على التقبُّل والاستيعاب والقدرة على التجاوب والتطوّر مع الفكرة الجديدة، ويكون السّلوك في هذه الحالة هو الاستجابة الدّالة على القبول والاقتناع سواءً اصطبغت هذه الاستجابة بصبغة فعلية أم قولية أم سلوكيّة.

ولأجل التبيين قد يتساءل البعض:

هل تحديد صدق الأفكار من كذبها هو أمر يتبع الفكرة في حدِّ ذاتها أم هو أمر متعلّق بالنتائج التي يمكن أن تحقّقها؟

أقول:

إن الخيار الأوّل في اعتقادنا مسألة صعبة ومعقّدة؛ لأنّه مادامت الأفكار (مجرّد أفكار تسري في الذّهن)؛ فهي ما زالت قابعة في مكمنها، ومن ثمَّ لا يمكننا التحقّق منها في ذاتها والحكم عليها في دلالاتها، ولكن يمكن ذلك في ضوء مطابقتها للواقع، وفي ضوء الممكن المتوقّع والممكن غير المتوقّع.

فالفكرة التي استساغها الفرد وتبنّاها في مرحلةٍ ما من مراحل حياته باعتبارها صادقة، قد لا تكون كذلك عنده في مرحلةٍ أخرى وبخاصّةً إذا اكتشف الفرد مدى عدم جدوى هذه الفكرة، أو عدم انسجامها مع المتغيّرات التي يمرّ بها؛ فالذي يعطي مصادق للفكرة قبل التطبيق والعمل بها هو قوّة الحجّة وما تحمله من حلول للتأزُّمات، ومدى ما تقدّمه من معالجات للآلام والأوجاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية والثقافية والذوقية، وهكذا في كثير من الأحيان يتبنّى البعض فكرة أو جملة من الأفكار، ثمَّ يكتشف أخيرا عدم مصداقيتها، ولكن في حقيقة الأمر إنَّ الفكرة الصّادقة ستظلّ صادقة، والفكرة الكاذبة ستظلّ كاذبة، ولذا فإنَّ كشف الزيف عنها أو إثباته فيها مسألة تحتاج إلى تثبُّت قبل إصدار الحكم، ولذك فالخطأ لا يعود إلى الفكرة، بل يعود إلى الآخذين بها، ممّا يجعل الإنسان الموضوعي مضطر إلى التصحيح، ولهذا على الإنسان أنْ (يفكّر لكي يعرف كيف يفكر).

وعليه:

. فكّر فيما أنت تفكّر.

. فكّر وأنت تفكّر.

. تعرَّف قبل أن تُقرّر.

. تقدَّم بعد أن تعرف.

. اعترض أو أيّد بعد أن تستمع.

. نفّذ بعد أن تقرّر بوعي.

. قوِّم جهودك قبل أنْ يقومك الغير.

. حدّد أهدافك.

. ارسم خططك.

. توقّع ما سيتوقّع منك وفكّر بمتسع.

. توقّع ما لا يتوقّع منك وفكّر عن إرادة.

. حدّد ما تتوقّعه من الآخر.

. حدّد ما لا تتوقّعه من الآخر.

هذه المرتكزات القيمية إذا ما وضعت في الحُسبان، فانَّ الخطط والاستراتيجيات والبرامج ستصاغ وتوضع في دائرة الممكن الذي لا يترتّب عليه المفاجئة والاستغراب.

الفكرة بين كامنٍ وظاهرٍ:

الفكرة الناضجة في حقيقة الأمر هي جهد عقلي متكامل؛ فعندما تدرك تنجزها (الأعمال)، وتجسّدها الشعوب، إنّها الصغيرة كفكرة تشغل حيزا يسيرا من ذهن وعقل المفكّر المبدع، وهي الكبيرة كعمل يتطلّب تكاثف الجموع والجهود لأجل إنجازها وتحقيق الغايات من ورائها.

فالفكرة الكامنة تتضمّن قانونا كاملا يكشفها للظّهور؛ ليجعلها حقيقة ظاهرة مع أنَّها لدى البعض لم تكن في دائرة المتوقّع. ومع أنَّ الفكرة في أساسها التجريد، إلّا أنَّها بعد ظهورها تصبح تحت سيطرة المشاهد والملاحظ، وتخضع للتجريب الممكّن من كشفها دون ريب.

الفكرة تكمن في العقول؛ فهي بداية لا تظهر إلّا لمنتجها الذي تولّدت في ذهنه، أمَّا بالنسبة لغيره فبما أنَّها لم تخرج من حيّزها الكامنة فيه؛ فلا تعدّ ظاهرة ما لم تصبح بين اليدين مشاهدة أو ملاحظة أو مقروءة.

إذن: الفكرة بالنّسبة إلى صاحبها، هي كامنةٌ تارةً في ذهنه من حيث إنّه لم يتأتَ له التعبير عنها، وتارة أخرى واضحة متجلّية له؛ لأنّها قد تكوّنت في ذهنه واكتملت فيه واكتسبت هيئة معيّنة وأضحت ذات مسمّى محدّد، وهنا فهي كامنة بالنسبة له وظاهرة في آنٍ واحدٍ، أمَّا

بالنّسبة إلى الآخرين فهي الكامنة. ومع ذلك ليس كلّ كمون يتبعه ظهور، فقد تظل الفكرة حبيسة مكمنها سرّا دون أن يتمَّ التعبير عنها بأيّة صورة مُمكنة.

أمَّا الظاهر فنحن نشبّهه بالصورة التي قد تُمثّل انعكاسا مباشرا لجوهره، ولهذا فالتفكير كونه المنتِج للفكرة لا يمكن أن ينضج ويفيد الآخرين إلَّا إذا أصبح ماثلا أمام ملاحظاتهم ومشاهداتهم ومدركاتهم بشكل شمولي، وهنا لا يمكن أن يستوي الأعمى والبصير مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ}14، فالمشاهدة يتمّ الاسترشاد بها حجّة ماثلة، غير أنَّ الفكرة الناتجة عن حاسّة البصر ليست دائما صادقة وحقيقية؛ فالفكرة التي ارتسمت في أذهاننا نتيجة رؤيتنا للشيء قد تفتقد المصداقية؛ ذلك لأنَّ ما تبدّى لنا عند المشاهدة هو الظاهر فقط، ولهذا فظاهر الشيء قد لا يعكس باطنه دائما، ولأجل الوصول إلى بناء أفكار صحيحة فإنَّه يتوجّب عدم الإغفال عن استخدام وسيلة الملاحظة؛ تفاديا للخطأ الذي يمكن أن يصدر عن استخدام وسيلة المشاهدة؛ فعن طريق الملاحظة يمكننا تفحُّص الأشياء والتنقُّل من ظاهرها إلى باطنها مباشرة؛ فالملاحظة تمتاز بعمقها وقدرتها على اختراق قلب الشيء الذي نفكّر فيه، فإذا كانت المشاهدة تقتصر على الصورة (الظاهر فقط)، فإنَّ الملاحظة تتعدّاه للتعرّف على الباطن الذي انضوى عليه الظاهر وتُمكِّن

[14] الرعد، 16.

من معرفة علل وجوده. وهكذا فإنَّ الأفكار الصحيحة تُجسّد الملاحظة والمشاهدة معًا في ميادين العمل والممارسة.

ومع أنَّ الفكرة في حدِّ ذاتها غير قابلة للمشاهدة كونها مجرّدة؛ إلّا أنّها تُولد وتنمو في العقل، وتصبح قابلة للمشاهدة أو الملاحظة أو بهما معًا عندما تُكشف قوانينها ويتمّ التعبير عنها أو التعبير بها، ولهذا ستظلّ مجرد فكرة تسري في الذّهن ولا يمكن التعرّف عليها من قِبل الغير أو إدراكها إلّا إذا تمّ التعبير عنها لغة أو رمزا أو صورة وشكلا، وبعد أن يتمَّ التعبير عنها فإنَّها تخرج من حيّز تقوقعها الذي تكمن فيه إلى الحيّز الواسع الذي يُمكّن من التعرّف عليها إدراكا تامّا بوسائل محسوسة قابلة للمشاهدة والملاحظة المِمكّنة من حُسن التدبُّر.

فلو عبّر الإنسان عن فكرته بهيئة الصّورة (المشاهدة) فإنَّنا نتمكّن من مشاهدة الصّورة وهو الأكثر تيسيرا للمعرفة، وإن تمّ التعبير عن الفكرة بفعلٍ؛ فإنّنا نتمكّن من ملاحظة الفعل في الوقت الذي لا إمكانية لمشاهدته؛ وذلك لانعدام الصورة، وهذا الأمر بطبيعة الحال لا يمنع من التفكير ثانية في هيئة الفكرة وعللها وأسباب وجودها، وهكذا يستمرّ التفكير ويتحدّ بشكل مزدوج مع الأفكار قديمها وحديثها إلى النهاية التي تستوجب التفكير فيها عندما نتذكّر ونفكّر.

ولأنَّ للتفكير بداية ونهاية؛ فكذلك للأفكار المتولِّدة عن هذا التفكير بداية ونهاية أيضا، ولأنَّ قدراتنا العقلية متناهية؛ فهي تعجز بدورها عن عدِّ أو حصر أفكارنا وإحصائها.

ولأنَّ الأفكار لا حدود لها Unlimited؛ فلا ينبغي أن يوضع على التفكير الإنساني سقف ليحدّ منه، بل ينبغي أن يحفِّز على التفكير الحرّ؛ ليكون مبدعا ومنتجا، وهكذا فالأفكار وليدة التفكير، والتفكير وليد العقل، والعقل شأنه في ذلك شأن سائر الموجودات الأخرى المحدّدة بعمر زمني لابدّ أن تنتهي إليه، لكنّنا لا نعلم تحديدا متى تكون النهاية أو كيف تكون.

تجسيد الفكرة:

تتجسّد الفكرة في الفعل أو الصّورة أو الشكل أو الهيئة عندما تكون بنائية وبعدما تَمْثُل للمشاهدة والملاحظة وتُدرك؛ ذلك لأنَّ الشيء لا يتجرّد إلّا في الفكرة، وعندما يصبح شيئا، يصبح على هيئة أو صورة أو شكل، وحينها تنتهي الفكرة بالتجسّد ليكون الفراغ من بعدها حيّزا لتداعي أو توليد فكرة جديدة، وهكذا يستمرّ إنتاج الفكرة ويستمر التطوّر، ففكرة الدّولة أو بناء الدّولة تنتهي عندما تَحلّ الدّولة محلّها (محلّ الفكرة المجرّدة للدّولة)، بنظمها ودساتيرها وقوانينها ولوائحها وهيئاتها وبناء مؤسّساتها.

فالإنسان الذي يُنتج الفكرة أو يبدعها في بعض الأحيان يجد نفسه من حيث الجهد أضعف قوّة من قوّة تأثيرها على أرض الواقع؛ ففكرة البارود والتفجير النّووي، وغزو الفضاء، مع أنّها نتاج قوّة عقل الإنسان إلّا إنَّها كفيلة بالقضاء على من أبدعها وأنتجها عندما تنتهي

قوّة التحكّم والسّيطرة على مفاتيح استخداماتها. وهكذا بعض العباقرة والمبدعين قد فقدوا عقولهم وأذهانهم، وهم في مرحلة إنتاج الفكرة، ممّا يجعل الفكرة في زمن الفقدان قبل ظهورها وهذا الأمر يدلّ على قوّة الفكرة التي لم يطيقها عقل من فكّر فيها وتبيّن هيئتها وقوّتها. وهناك من فارق عقله بعد أن شاهد أو لاحظ قوّة أثرها، سواء في حالة البناء أم في حالة الهدم.

وبالرّغم ممّا يتميّز به تفكير المبدع من سرعة في خلق عدد كبير من الأفكار فإنَّ الفكر المبدع لا يستمدّ مادّته من هذا الكم الهائل من الأفكار، بل يستمدّها من الكيف والنّوع الذي يميّز بين فكرة وأخرى؛ فالفكرة المبدعة هي التي تؤدّي إلى التطوّر والتحسّن في الفعل والسّلوك والإنتاج، وهي التي تؤدّي أيضا إلى اختلاف المجتمعات عن بعضها البعض ليس بحجم الأفكار التي يمتلكونها، وإنّما بأنواعها وخصائصها والنتائج التي يمكن أن تحقّقها. وحتى لا تكون أفكارنا طوباوية ينبغي أن تكون في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، وأن تكون منتجة للأثر الموجب؛ لكي تجد مجالا يسندها على أرض الواقع، إنّها الفكرة الفاعلة والفكرة المفعولة.

ولهذا فالفكرة قد تكون في زمن الصّمت الواعي (التفكير في حالة الصّمت)، وقد تكون في زمن التحليل والبرهان، وقد تكون في زمن التفسير (اندماج زمن نهاية الفكرة مع زمن التطلّع للجديد وإحداث النُقلة).

وعليه: فإنَّ العقل المنتج للفكرة في حالة اتّصال ذهني، بين ما فكّر فيه، وما يجب أن يفكّر فيه، وكذلك بين حالة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، وهذا ما يجعله في الوقت الذي يُفسّر فيه، فيه يُفكّر.

ولأنَّ الأمر كذلك، إذن التفكير فيما يجب التفكير فيه واجب، ومن لم يفكّر فيما يُفكِّر فيه أكثر من مرّة، سيجد نفسه في مواجهة غير المتوقّع؛ فتحدث له المفاجئة ويسيطر عليه الاستغراب ويحوطه النّدم، وقد يتعلّق الخوف أو الجبن به، وقد يكون الزّمن لا يمكِّن من تلافي الأمر؛ فينفرط العقد، وتتناثر حبّاته، ولا يوجد من حوله من يجمّع معه العقيق المتناثر هنا وهناك؛ فتشتدّ الأزمة.

الفكرة تقتنص حلًّا:

الفكرة نُضج تدبّري تحمل في أحشائها حلّا، في مقابل الخوف دائما يبحث عن حلٍّ؛ فالخوف يثير العقل تفكّرا وتذكرh وتدبّرا حتى يقتنص الفكرة التي فيها يكمن الحلّ، ولذا لن يكون الخوف آمنا إلّا في الفكرة المقتنصة حلّا.

فالفكرة تحملها الكلمة بين مرسلٍ ومستقبلٍ، وهي في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع تحمل قضيّة تقدِّم حلّا يخرج من التأزّمات أو يُدخل فيها، فكثير من الأسوياء والعلماء والمفكّرين العظام يَجدّون في إنتاج الفكرة التي تحمل حلّا يُخرج من التأزمات، والبعض الآخر يكيد أو يمكر أو يحسد ظلما؛ فيُسخِّرون فكرهم وما يمتلكون أحيانا من أجل

إشعال نار فتنة يعتبرونها حلّا. فما جرى في الصومال من تدخّل أجنبي كان مؤسّسا على فكرة تحمل حلّا لأزمة من وجهة نظر المتدخّلين الأجانب، ثمّ بعد أنْ لاقوا المقاومة الشديدة من أبناء الصومال المتدافعين على قبول الموت في سبيل تحرير تراب وطنهم، جاءت فكرة الانسحاب ونُفِّذت كونها تَحِلَّ حلّا مؤسّسا على فكرةِ كلّما اشتدّت التأزّمات فُرجت؛ فاشتدّت التأزمات ولكنّها لم تُفرج بعد بأسباب الفكرة المتجدِّدة التي ترى في اشتداد التأزّمات حلّا.

وفي دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع الفكرة تتعرّض لمواجهة الفكرة، ممّا يجعل نيران الاقتتال والفتنة كلّما انطفأت اشتعلت من جديد وعلى وجه السّرعة؛ فالوطن عندما لا يكون الرأي فيه مؤسّسا على فكرة حلّ التأزّمات لا يمكن أن يأمن مواطنوه. وإن لم يشتدّ الخوف في نفوسهم على مستقبل أبنائهم ووطنهم وحرّيّتهم فلن يبلغوا حلّا يجمع شتات أبناء الأمّة إرادة في ممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمْل المسؤوليات الوطنيّة سياسةً واقتصادا واجتماعا.

الفكرة تضادّ وتحدّ:

الفكرة تضادّ وتحدّ تحملها الكلمة وبها تُدفع وهي تحمْل قضية تقدِّم حلّا يُخرج من التأزُّمات؛ فيسود الفرج الذي فيه تحلّ السّكينة والأمن محلّ ما يؤدّي إلى الخوف؛ فالفكرة مكمن الأسرار، والعقل يُرشِدُ

إليها عن تدبّر، والفكرة يسترشد بها عن دراية ومعرفة، ومع ذلك الفكرة يمكن أن تباع وتشترى في أسواق المنافسة الحرّة، وقد تُسرق.

والفكرة إن تمّ الإلمام بها وبما ترمي إليه من مقاصد الأفكار والأسرار هي مكمن الإبداع، وأصحابها دائما يأملون من الآخرين التوقّف عندها حتى التبيّن، ومع أنَّ الفكرة مكمن الأسرار، إلّا أنّها من حيث معرفتها ووضوحها في ذهن صاحبها المتدبّر أمرها لم تكن كامنة، بل ظاهرة وضوحا ومعرفةً، ولكنّها كامنة عن الآخرين حتى تُنتج إبداعا مضافا لما سبق من إنتاج فكري.

فالفكرة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع قد يُعظّم أصحابها، وقد يُحقّرون؛ فهي قد تفتح أمامهم آفاق سوق العمل، فتُسهِم في حلّ التأزُّمات، وقد تضيّق سوق العمل عندما تنتج ما يحلّ محلّ الإنسان دون أن تجد له بديلا نافعا فتزداد البطالة وتتّسع دائرة الحاجة أمام ارتفاع كُلفة مشبعاتها وتزداد التأزُّمات تأزُّما.

الفكرة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع هي دائما ذات تأثير سالبٍ أو موجب؛ فالذي يُنتجها فكرا يعدّها إضافة موجبة، أمّا مستغلّها إن وجد فيها ما يضر قد يتبناها ويحيلها صناعة لإنتاج المضرّ، وذلك مثال الذّرة، التي اكتشفت نفعا ولكنّها وظّفت فيما يضر قنابل وصواريخ، ومن هنا أصبحت الفكرة تباع في الأسواق بفاعلية تضادّها سالب بسالب، وموجب في مواجهة سالبٍ، وسالبٍ في مواجهة موجبٍ.

إنّها الفكرة المتضادة التي لا يمكن التخلّص منها إلّا بالفكرة تنج ما يفيد وينفع ويحقّق الطمأنينة لمن افتقدها بمواجع الفكرة المضرّة وفواجعها.

ولمتسائل أن يتسأل:

هل الفكرة هي علّة التضاد بين المسلمين وأهل الغرب؟

أقول:

نعم.

فتلك الفكرة التي أنتجت رؤية لاحتلال الأوطان واستعمارها جعلت للعداء تاريخ يصعب محوه ما لم تسوّى القضايا المطالبة بالتعويض، فذلك الاستعمار (نتاج الفكرة) الذي جاء غازيا للدّول وبخاصّة التي لها معتقد ديني لا يسمح لها أن تركع أو تسجد إلّا لله تعالى، عليه أن يفكّر في تسوية موضوعية مؤسّسة على التقدير والاعتبار، أمّا الفكرة التي تؤدّي إلى مزيد من التهديد والمواجهات لا تزيدهم إلّا إصرارا على قبول التحدّي مع مزيدٍ من الرّغبة في نسف جسور الخوف؛ ذلك لأنّ معتقدهم جعلهم بين خيارين:

أ ـ النّصر.

ب ـ الاستشهاد.

وعليه فمن يقول: (الله أكبر) من أعلى المآذن يعلن أنّه قد نزع الخوف من نفسه بمخافته الله، ولهذا من يعتقد أنّه قادر على إخافته سيجده شجاعا مستبسلا؛ ولا مكان في نفسه لاستقرار الخوف، وإن حدثت المواجهة من أجل إحقاق الحقّ سيجد نفسه مُقدِما بالقوّة وهو متأكد أنّه قد ضمن النتيجة المرضية (نصرا أو استشهادا) أي: بالنسبة له في الحالتين لا هزيمة.

وقد يتساءل البعض:

وما هي المبرّرات التي أقنعته بأنّها لا هزيمة؟

أقول:

بدون شكّ المبررات هي: الخوف من الله تعالى.

وبناء على ذلك فإنّ ما يجري في أوطان المسلمين هو مولود الفكرة: (فرّق تسد)؛ فكانت الفُرقة بين المسلمين (إيرانيين وعرب) و(أفغان وباكستانيين وأتراك) و(مسلمين هنود ومسلمين باكستانيين) و(سنّة وشيعة) و(حماس وفتح) و(إخوان وبعثيون وناصريون، وشيوعيون وحكومة وشعب....الخ) و(عرب وأمازيغ) و(طوارق وزنوج) إلى جانب (عرب مسلمين، وعرب مسيحيين، أكراد، وعرب دروز، وتركمانستان....الخ)، وفوق كلّ هذا فالمسلمون جميعهم وخاصّة العرب منهم: متّهمون بأفعال الإرهاب والتطرُّف، ولكي تكتمل الفكرة تأسّست دولة (إسرائيل) في فلسطين عن قصد؛ لعلّتين رئيستين هما:

أ ـ كُره صاحب الفكرة للعرب ليعاقبهم بمن يكره.

ب ـ كُره صاحب الفكرة لليهود، جَعله يقرّر عِقابهم مرتين:

الأولى: سلبهم حقّ المواطنة الذي أقرّه لهم في أوروبا، وكذلك سلبهم دورهم التجاري فيها.

الثانية: لتنتقل الاضطرابات من أوروبا وتُدفع إلى خارجها، ويتمّ القضاء عليهم من قبل الذين عبر التاريخ لم يستسلموا لعدوٍ من أعدائهم، ولكن لن يُسمح لهم بالقضاء عليهم إلّا بعد أن يؤدّوا رسالتهم تخريبا وفتنة وتفكيكا للمكوّن الاجتماعي العربي كما سبق أنْ أدّوها في أوروبا وعوقبوا عليها تقتيلا وتحريقا وتهجيرا وتشريدا، قال تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ}15.

وعليه: فإنَّ كره صاحب الفكرة لكلٍّ من اليهود والعرب، هو الذي جعله يتّخذ قرار إقامة دولة إسرائيل في أرض العرب (فلسطين)، وللتّاريخ شواهد على كرههِ لبني إسرائيل حيث جاءت الحركة الصّليبية وما صاحبها من تطرُّف ديني وهوس لتصبَّ مزيدا من السّخط على نيران الكراهية ضدّ اليهود الذين اشتهروا بالتّجارة كما اشتهروا بالمراباة في استغلال الفقراء في أوروبا، ممّا جعل نيران غضب الفقراء في أوربا تشتعل ضدّ اليهود الذين يعتبرونهم المفسدين فيها.

---

15 الأعراف 167.

ولما كان المرابون في أيّ مجتمع محلّ كراهية النَّاس وحقدهم، فإنَّ الغطاء الدّيني الذي وفّرته الحركة الصّليبية للغضب ضدّ اليهود يسّرَ لجموع الصّليبين الهائجة أن تنتقم لنفسها من المستغلّين؛ فكانت مذابح سنة 1096 ضدّ يهود شمال غرب أوروبا، وكانت كلّ حملة صليبية تالية ترتكب مذابح مماثلة ضدّ اليهود، بحيث عاشت الجماعات اليهودية بشكلٍ مستمرّ في ظل العزلة والخوف، ولقد امتدّت النزعة العدائية لليهود باعتبارهم هم من أعداء المسيح والكنيسة؛ فكانت المذابح متوالية، ومنها: مذابح اليهود في لندن ويورك في 1189-1190 في بريطانيا، ومذابح ضدّ اليهود في إسبانيا ارتكبتها المسيحية في قرطبة وغرناطة، وحتّى الأرثوذكس المسيحيين في أوروبا الشرقية لم يتركوا فرصة للاعتداء على اليهود إلّا واستغلّوها، ومنها مذبحة اليهود خلال انتفاضة الأكران الأرثوذكس في 1654-161648.

ومنذُ بدايات الاتصال والتدافع بين الأوروبيين واليهود والعداء مستمرّ بينهم، والقيود القانونية تُسن ضدّ اليهود إلى سبتمبر عام 1791 حيث تمّ تحرير اليهود في فرنسا بإزالة أشكال التمييز العنصري القانوني ضدّ اليهود، ومنحهم حقوقا مساوية لغيرهم من مواطني البلد؛ ففي سبتمبر عام 1791، منح البرلمان الفرنسي اليهود حقوق المواطنة،

---

[16] Posted by FILKKA ISRAEL at Wednesday, February 18, 2009

ثمّ تمَّ تحرير اليهود بعد ذلك في اليونان عام 1830، وفي بريطانيا عام 1858، وفي إيطاليا عام 1870، وفي ألمانيا عام 1891. ورغم أنَّ المساواة المدنية التي مُنحت لليهود كانت قانونية، فإنَّ يهود أوروبا ظلوا يلاقون مضايقات من خلال معاداة الساميّة والتمييز الاجتماعي؛ فجاءت مذبحة 9 مارس عام 1936 ببولندا إذ اندلع عُنف قُتل فيه ثلاثة يهود وجُرح أكثر من ستّين آخرين في مدينة برزايتايك، وبعدها امتدّت نيران الكره اشتعالا إلى المدن المجاورة، وقبل انتهاء المذبحة، قُتل ما يقارب من 80 يهوديّا وجُرح أكثر من 200.

وفي التّاسع من نوفمبر 1938 بدأت السّلطات الألمانية تقوم بهدم منازل اليهود وممتلكاتهم، وفي السّنة التالية 1939 كان قد رُحِّل عدد كبير من اليهود إلى بولندا، واستقرّ أغلبيتهم في وارسو، وكان آنذاك عدد اليهود 400 ألف يهودي تقريبا، لكن هتلر كان وراءهم بالمرصاد؛ فضيّق عليهم سُبل الحياة، وكانت فكرة هتلر لإبادة اليهود من العالم قد دخلت حيّز التنفيذ بالقوّة العلنيّة منذ مجيئه إلى السّلطة في سنة 1933، وبدأ بمطاردتهم من كلِّ النواحي، وحرمانهم من العمل، ومطالبتهم كذلك بدفع الضرائب، هذا الأمر في حقيقته لم يكن إلّا بداية انتقام هتلر من اليهود، حيث كان يعيش في ذلك الوقت حوالي ثلثي يهود العالم في أوروبا، وعندما غزت الجيوش الألمانية روسيا في يونيو 1941 أعدَّ هتلر خُطَّة قتل جماعي، لكلّ اليهود فجمع اليهود في معسكرات خاصَّة على أساس وجود مهمّة عسكرية، ثمّ أُصدرت

الأوامر بأن يحفر كلّ واحد منهم قبره بيديه، ثمّ اصطفّ اليهود صفّا واحدا بجوار قبورهم وأطْلِقَ عليهم الرّصاص، ولم يكتف هتلر بهذه الطريقة في إبادة اليهود ومحو آثارهم من العالم، بل أعدَّ لهم طرقا أخرى للموت، إذ أقام لهم الألمان أفرانا خاصّة لحرقهم، واستمرت عملية الإبادة إلى 1945.

وإبادة هتلر لليهود كانت نتاج دوافع انتقامية؛ فكان الانتقام شرسا بحجّة ما سبّبه اليهود من تخريب للاقتصاد الألماني، وما قاموا به من فتن لتفكيك وحدة الشّعب الألماني وإذلاله.

وهنا يذكّرِنا تاريخ 09 نوفمبر 1938 بتلك الفكرة، فكرة تقسيم فلسطين لدولتين (اليهود والفلسطينيون) حيث كانت اللجنة الملكية البريطانية التي ترأسها (الاميرال بيل) قد نشرت تقريرها في شهر تموز سنة 1937 واقترحت فيه حلّا لمعضلة فلسطين بواسطة مشروع للتقسيم، تنشأ بموجبه دولة عربية مستقلة وأخرى يهودية، ثمّ أعلنت عزمها على إسقاط اقتراح التقسيم ومحاولة إيجاد تفاهم بين العرب والإسرائيليين عن طريق المفاوضات المباشرة في لندن17.

وعليه: فإنَّ كُره الأوروبيين لليهود في أساسه هو أشدّ كرها من كرههم للعرب، ولأنّ الأمر كذلك قرّ الأوربيون ما أقرّته بريطانيا دولة

[17] هتلر قاهر اليهود، 2009.

لليهود في فلسطين (أبعد المكروه وأدفعه تجاه المكروه تشتدّ التأزّمات بينهم وتأمن)، فكرة في عالم السياسة لا تساويها فكرة في الدّهاء.

إذن: فكرةٌ هذا حالها، ما هو المقصد من ورائها؟

المقصد إشعال نار الفتنة في الأمّة التي لا تركع إلّا لله تعالى لعلّها تركع، ومع أنّهم يعرفون جيّدا أنّ من يركع يقينا لله لن يركع لأحدٍ، إلّا أنّهم واثقون على الأقل أنّه من الممكن أن تتمّ المواجهة بين أبناء الأمّة تجاه بعضهم بعضا؛ فتُبثّ الفوضى ويُبثّ الرّعب، والفساد، والتخريب في المؤسّسات وإفساد الذمم والنّظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية كي يجد صاحب الفكرة مبرّرا للتدخّل، وهذا ما تخفيه الفكرة في ثناياها.

ونحن نعتقد أنّ الفكرة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع كالبذرة تُزرع بذرة؛ فتنتج بذورا، ولذا فتلك الفكرة التي نضجت وقُطفت ثمارها ذات مرّة ومرّة (احتلال يليه احتلال)، و(تقسيم يتبعه تقسيم)، هي اليوم من جديد قد بُذرت في الأرض المهيّأة لها؛ فظهرت أوراقها فوضى في الصومال والعراق وسوريا وليبيا واليمن، وهي كذلك في غيرها بذرت ولكنّها على قوائم الانتظار.

وهكذا هو الأمر في القارة الإفريقية التي توجّها إليها أصحاب الفكرة تدافع، (استثمارا واستغلالا) وفي المقابل شعوبها وحكوماتها تتدافع إليهم هجرة واستقراضا، إنّها علاقة تمازج الألوان، وعليه ستختلط

الدّماء بين القارّتين الأفريقية والأوروبية تدافعا (استثمارا واستعمارا وهجرة)؛ فتتغيّر الألوان من (أحمر وأسود) إلى دمٍ جديد في البرلمانات والحكومات الأوروبية تحت الشّعار (الأسمر المحمر) المجنّس تجانسا.

الفكرةُ خوفا ودراية:

الفكرة نُضج تدبّري تحمل في أحشائها حلّا، والخوف دائما يبحث عن حلٍّ؛ فالخوف يثير العقل تفكّرا وتذكرا وتدبّرا حتى يقتنص الفكرة التي فيها يكمن الحلّ، ولن يكون الخوف أمنا إلّا في الفكرة المقتنصة حلّا يُخرج من التأزُّمات؛ فيسود الفرج الذي فيه تحلّ السكينة والأمن محلّ ما يؤدّي إلى الخوف.

إذن الفكرة مع أنّها فكرة، إلّا أنّها مكمن الفصاحة إن تمّ الإلمام بها وبما ترمي إليه من أسرار، وأصحابها هم دائمون يأملون من الآخرين التوقّف عندها حتى التبيّن، ولا داعٍ للاستعجال والتسرّع لمن أراد أن يستقرئ فكرة، ولا داعٍ للّعب بها.

ولسائل أن يسأل:

هل للفكرة مجتمع؟

أقول:

نعم، مجتمع الفكرة هو من ينتجها، أو هو الذي بها يتكوَّن وينتظم؛ فالمدينة الفاضلة على سبيل المثال فكرة فرديّة تحمل رؤية،

حاول بعض الفلاسفة سعيا في تطبيقها، ومع ذلك لم تظهر الفضيلة في تطبيقاتها؛ ذلك لأنَّ ما تمّ وصفه (بالفكرة الفاضلة) في ذلك الزمان لا يُعدّ فاضلا في زماننا، وذلك بأسباب معرفة القصور في تلك الفكرة، ولهذا لم تتحقّق المدينة الفاضلة بتلك الفكرة والرّؤية التي تحملها ولن تتحقّق؛ لأنّها فكرة والفضيلة منعدمة.

إذن: المجتمع في أساسه لم يكن نتاج فكرة، ولكن بالمعرفة الواعية أصبح ينتظم على قيم وفضائل وفكرة، هذه الفكرة قد تكون اجتماعية وقد تكون اقتصادية وقد تكون سياسيّة، ولهذا تكوّنت المجتمعات الرأسمالية على فكرة رأس المال، وتكوّنت المجتمعات القبلية والعشائرية على فكرة الإنسان اجتماعي بطبعه، وتكوّنت المجتمعات الإسلامية على فكرة: المعتقد المستمدّ من الدين.

وعليه: فالفكرة قوّة تفاعل تتولّد من فروض مجرّدة، وتساؤلات حُرّة؛ فبها يُلهم من أُلمِت به وسكنت قلبه وعقله، وبها تتغيّر الأحوال إن تلقّفتها أيدٍ منتجة، تُدرك الواقع وتتطلّع للمستقبل، بعد أن تخلق سوقا للعمل.

فالفكرة تُلفت انتباه العقل؛ لأنْ يعقل ما كان عنه غافلا، وتدفعه تجاه الآخرين ليكون من أجلهم، ولكن البعض يستطيعون أن يحرِّفوا الكلم عن مواضعه، فيتمّ الانحراف بالفكرة.

وهنا؛ فالفكرة المجرّدة لا تتجاوز حدود العقل؛ فإن تجاوزته تجسّدت على أرض الواقع، وإنْ لم تتجاوزه ستظلّ سجينة جدران تفكيره إلى أن تُقبر مع صاحبها، ولكن من حيث كونها فكرة؛ فهي قابلة لأن يُبرهن بها، وقابلة للاستدلال عليها، وكشفها حتى معرفة مكامن أسرارها.

ولسائل أن يسأل:

ألا يمكن للفكرة أن تتغيّر؟

نعم، تَحسُّن الأحوال يُغيّر الفكرة.

وكيف يمكن أنْ تتحسّن الأحوال؟

بالاستيعاب الذي به تَحلّ الطمأنينة محلّ الخوف.

ولهذا يجب أن يكون الاستيعاب بلا تردّد مع تقبُّل وتفهّم للخصوصيات حتى بلوغ الحلّ؛ ذلك لأنَّ الاستيعاب يجمع الشمل، ويمكِّن من الوقوف على نقاط التمركز والتشتُّت في مواضع الالتقاء والفرقة، ممّا يستوجب الأخذ بنقاط الالتقاء واعتمادها جزءا من الحلّ، ونقاط الاختلاف واعتمادها هي الأخرى جزءا من الحلّ، ولذا فإنَّ الإلمام بالحالة وظروفها المتنوعة والمتغيّرة والمتباينة والمتصادمة يُمكّن الجميع من معرفة العلل والأسباب مكامن الإصلاح والحلّول حيث لا حلّ إلّا ونابع من عِلةٍ أو سببٍ؛ فالاستيعاب مع أنّه يؤدّي إلى الحلّ، ولكنّه لا

يُمكِّن منه، بل الذي يمكِّن منه هو الخوف، فخذوا حذركم حتى يصبح الحلّ بين أيديكم.

ومن أجل ألا يكون للتطرّف دائرة يمتدّ فيها أفراد وجماعات ومؤسّسات ودولة ورأس دولة، علينا ألا نستهين بالآخر؛ فلا نلغيه ولا نخاف منه، ولا نغيّبه، ولا نقصيه من شيء ينبغي أن يكون له أو يكون شريكا فيه، ومن ثمّ؛ فعلينا أنْ نفكّر في العواقب قريبها وبعيدها.

ولمتسائلٍ أنْ يتساءل:

متى يلد الحلّ السياسي والاجتماعي والاقتصادي من الفكرة؟

أقول:

. عندما يتمكّنون من ممارسة حقوقهم.

. عندما يلتزمون بتأدية واجباتهم.

. عندما يكونون قادرين على حمْل مسؤولياتهم.

. عندما يكون لسان حالهم (نحن معا).

. إذا تمكّنوا من استيعاب بعضهم بعضا دون تفرقة وتحسُّس.

. إذا تمكّنوا من التطلُّع نحو الأفضل.

. عندما يتهيؤون لإحداث التغيير إلى ما هو أفضل وأحسن وأجود.

. عندما يقومون بأدوار وفقا للصلاحيات والاختصاصات بمهارات متنوعة خدمة للجميع.

. عندما يتفهَّم كلّ منهم ظروف الآخر ويقدِّرها.

. عندما يقف كلّ منهم عند حدّه.

. عندما يُقصى الإقصاء والتغييب من أذهانهم وأفكارهم تجاه البعض.

. عندما يستثمرون إمكاناتهم المادّية الاستثمار الأمثل، تمشيا مع كلّ حلقة من حلقات التطوّر والتقدّم التقني والعلمي.

. عندما تُشبع حاجاتهم المتطوِّرة.

. عندما يكون التطلّع للمفيد والنافع قيمة في السّلوك والفعل.

. عندما تصبح الثروة ملكا للأنا والآخر في الوطن الواحد وفقا لقاعدة (نحن معا) دون أيِّ حرمان من الملكية الحرّة والاستثمار الحرّ الخالي من الاستغلال والاحتكار.

. عندما تُلغى من القواميس الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية كلّ كلمات الإفساد وما يؤدّي بينهم إلى سفك الدّماء، وتحلّ محلّها كلمات وأفكار التسامح والتآخي والبناء والإعمار والإصلاح.

. عندما تكون الثّروة قوّة تمكّنهم من إحداث النُقلة وتجاوز الجمود والسّكون والتخلّف.

. عندما تكون مستهدفات التعليم والصّحة والثقافة والإعلام والشؤون الاجتماعية من أجل التنمية البشرية التي بها يتمكّن المواطن من تنمية قدراته واستعداداته ومواهبه وخبراته ومهاراته وتأهيله بكلِّ جديد مفيد.

. عندما تصبح لهم هويّة واحدة متنوّعة.

. عندما يصبحون منتجين للفكرة وقادرين على توليد الفكرة من الفكرة.

. عندما يصبحون مفكرين وهم يتكلّمون وهم يقرءون، وهم يستمعون ويتأملون، وهم يُفكّرون فيما هم فيه يفكّرون.

. عندما لا يغفلون عن أهمية الخوف في صناعة التّاريخ وترسيخ الهويّة.

. عندما يخافون الله (يقضون على الخوف).

. عندما يستوعبون الآخرين ويتطلّعون إليهم معرفة بمعرفة، ومعلومة بمعلومة، وقوّة بقوّة.

. عندما تكون لهم إدارة ماهرة قادرة على أن تلاحق المنتجين والعاملين في مواقعهم؛ من أجل زيادة الإنتاج وتحسين أحوال المواطنين

تعليما وصحةً وضمانا اجتماعيا مع وافر الجودة في الخدمات المقدّمة. ولذا فالإدارة المركز ينبغي أن تكون قوّة جذب لمواطنيها، تجمع ولا تشتت كالجاذبية التي جمعت شتات الأرض وحافظت عليه، والتي إن فقدت جاذبيتها فقدت وجودها.

. عندما يعرفون أنَّ عقل الإنسان قوّة، ونفسه قوّة، وحواسه قوّة، وعواطفه قوّة، ومشاعره قوّة، وإرادته قوّة، وتهيّؤه قوّة، واستعداداته قوّة، وقراره قوّة، وتأهّبه قوّة، وأفعاله نتاج القوّة، ومع وافر التقدير والاعتبار.

وعليه: كلّ معطيات القوّة يمكن أن تكون بيد الإنسان إذا عرف أنّ عقله قوّة، وقدراته قوّة، ومهاراته قوّة. وإذا فكّر وخطط، ومن ثمّ فإذا رسم الاستراتيجيات أنجز أهدافه بكلّ قوّة، وإذا لم يستثمر ذلك فلن يكون إلّا على الوهن ضعيفا.

ولهذا فإنّ قوّة (نحن معا) تكمن في:

. قوّة العلائق وترابطها.

. قوّة المشاركة وحجمها.

. قوّة التفاعل وانتشاره.

. قوّة التنظيم وتشريعاته.

. قوّة الدين وتسامحه.

. قوّة العرف وأصالته.

. قوّة القوانين وشفافيتها.

. قوّة الفكر ونزاهته.

ولذا إنْ أردنا أن ننهض من غفلتنا، ونستطلع مستقبلنا، ونعمل على صُنعه، فعلينا بالمعرفة الواعية التي تُمكِّن من الحقيقة، وعلينا بتيسيرها في المساجد والمدارس ووسائل الإعلام المتنوّعة دون تطرُّف ولا إكراه؛ فلا ينبغي أن يكون من ورائها قصد لتحقير من خُلق في أحسن تقويم، ولا يقصد من ورائها إقصائه أو تغييبه أو التخلّص منه؛ فكما أنّ الدين للجميع والله ربّ الجميع؛ فكذلك الوطن ملك للجميع، والنّاس فيه متساوون حقوقا وواجباتٍ ومسؤولياتٍ، ومن يرى غير ذلك فنظره قصير وعتبة النهاية بين قدميه وهو لم يرها[18].

التفكير:

التفكير عملية عقلية تتقصّى ظاهرة أو مشكلة محيّرة مع إصرار المفكّر في الخروج من الحيرة بنتيجة تجيب على التساؤلات أو الافتراضات قيد التفكير والتقصّي الذهني.

[18] عقيل حسين عقيل، الخوف وآفاق المستقبل، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م، ص 277. 319.

والتفكير في الشّيء لا يكون إلّا بتمكّن العقل منه شيئا محيّرا؛ فيقرر العقل تحدّيه معرفة حتى يذلل صعابه، ويُلبِّنه مرونة ومعرفة ذهنية، ثمّ يهيئه وضوحا للخروج؛ ليكون بين الأيدي معرفة منتجة، أو إبداع مضافا.

فالتفكير إشغال العقل بعملية ذهنية تلفته إلى الموضوع تفحُّصا وتتبّعا، والتفكير هو انشغال بما هو موجب، ولهذا لم يكن هو التخمين الذي فيه من التلاعب العقلي ما فيه (السّالب ومن الموجب)، ممّا يجعل صاحبه لاعبا بالورقة التي يعتقد أنّها المربحة، ومن هنا يجد نفسه بين النّاس بين مذموم ومشكور وكلّ حسب ما هيّأ نفسه له عقليا؛ فالتخمين مع أنّه من إعمال العقل ولكنّ نتائجه غير يقينية؛ وذلك لامتلائها بالشكوك والظنون، إنّها لا تستند على الحجّة.

إذن: التفكير هو نشاط العقل في ذاته تفكيرا، ولا وظيفة له إلّا أن يفكّر، وعندما يفكّر فيما يفكّر فيه يكون في حالة عمل لافت للمفكّر، ولذلك تعدّ الاستجابات المفاجئة بأسباب الاستفزاز المرعب هي استجابات عن غير وعي (عن غير تمعُّن) استجابات غير مسؤولة؛ لأنّها لم تكن نتاج انصهار المعرفة والأفكار في بوتقة الانتباه، ممّا يجعل الشوائب تتعلّق بها وهي تفتقد إلى الحقيقة، فالحقيقة نتاج التفكير هي التي يبلغها العقل عن وعي وانتباه سواء أكانت نتيجة موجبة أم سالبة.

فالتفكير في الموضوع أو المشكلة قيد البحث، تفكير وعيٍ؛ لأنّه وفقا لأهداف محدّدة وفروض أو تساؤلات تمّ صوغها موضوعيا بغاية

الوقوف على العلل والأسباب التي تكمن من ورائه، ممّا يجعل العقل المدبّر لأمره يفكّر في حلول أو معالجات، ولن يتوقّف عن التفكير حتى ينجز بحثه استقصاء بنتائج قابلة للتفسير وتُخرِج من الحيرة.

التفكير كونه عملية عقلية ذهنية غير قابل للمشاهدة والملاحظة، مع أنّه لا عمل قابل للمشاهدة والملاحظة إلّا وهو نتاج ما يبذله العقل من عمل تفكيري.

فالتفكير يُمكّن من معرفة الشيء قبل أن يصبح شيئا عند من لم يشغل عقله به تفكيرا، ولأنّ الشيء في دائرة الممكن هو نتاج التفكير الذّهني، فهو في زمن التفكير فيه لم يكن شيئا على الصّورة المشاهدة، بل يكون على الهيئة، والهيئة هي ما يُمكن أن يكون عليه الشيء قبل أن يصبح شيئا مشاهدا وملاحظا، فالمفكّر متى ما تمكّن تفكيرا من معرفة أو اكتشاف الهيئة التي عليها المكتشف يستطيع من بعدها أن ينقل أو يُخرج تلك الهيئة التي تصورها وضوحا إلى حيّز المعرفة المشاهدة والملاحظة؛ ولهذا فلا هيئة في دائرة الممكن إلّا بالتفكير المتعمّق الذي من خلاله يستطيع المفكّر أن ينتقل من حالة المشاهدة إلى حالة التفكير تجريدا، ومن ثمّ يستطيع تفكيرا أن يضيف مشاهدا جديدا إلى ذلك المشاهد الذي حيّره حتى تخلّص من حيرته تفكيرا.

إذن: بأسباب التفكير والغوص في مفاصل مواضيعه تتمّ المعرفة المضافة للمعارف السّابقة، ومن هنا:

. لِمَ لا نفكّر حتى نتمكّن من الإضافة؟

. لِمَ لا نفكّر حتى نتمكّن من المعرفة الواعية؟

. لِمَ لا نفكّر بلا إشارة قف حتى نعرف ما يكمن من ورائها؟

. لِمَ لا نفكّر في كلّ شيء بغاية تحسين أحوالنا التعليمية والصحية والبيئية والذوقية والاقتصادية والسياسية والثقافية والنفسية والاجتماعية؟

التفكير ارتقاء:

التفكير في الشيء يظهر المفكّر على حيثيته، ويمكّنه من كشف خفاياه، والتفكير ارتقاء هو بحث عقلي وتفحّص فيما يجب وما لا يجب، مع اختيار الوسائل المتحقّق لفعل الارتقاء؛ فبنو آدم في دائرة التفكّر ارتقاء هم بين متوقّع وغير متوقّع، أي: إنّهم بين متوقّع الارتقاء ومتوقّع الدّونية، ومن جهة أخرى هم: يتبدّلون حيث لا ثوابت؛ فمنهم من يبقى على الارتقاء، ومنهم من يتخلّى عنه، ومنهم من نراه في دونية، ولكن من بعدها يبلغ القمم ارتقاء. ولذلك، ينبغي العمل مع بني آدم من حيث هم، من أجل الارتقاء بهم إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه قمّة.

ولأجل ذلك: ينبغي أن نغوص في عقولنا تدبّرا حتى نميّز بين تحديد الأهداف وإنجازها، وبين تحديد الأغراض وتحقيقها، وبين تحديد

الغايات وبلوغها، وبين تحديد المأمولات ونيلها؛ فالأهداف تحدّد تفكيرا قبل أن تصاغ أهدافا قابلة للإنجاز، وهي في دائرة الممكن المتوقّع لا تنتهي إلّا بانتهاء من يعمل عليها، ولهذا؛ فلا توقّف بعد إنجاز الأهداف، بل ينبغي ارتقاء أن يتمّ التفكير في أهداف أهم من التي أنجزت، ثم التفكير من بعدها في أهداف أعظم، وهذه من سُبل تحقيق الارتقاء غاية.

ولأنّها أهداف تحقيق الارتقاء؛ فلا تكون ذات أهمية إلّا ومن ورائها أغراض، ثمّ من وراء الأغراض غايات عظيمة، ولهذا؛ لا ينبغي أن تكون الأهداف غاية في ذاتها، بل يجب أن تكون الغايات من ورائها رفعة.

إنَّ قاعدة التفكير في تحديد الأهداف مؤسّسة على التفكير في المنجز قبل أن ينجز ثمّ التفكير في كيفية إنجازه، أي: كلّ ما أنجز بنو آدم هدفا ينبغي أن يكون من ورائه هدف أهم، ثمّ من ورائه هدف أكثر أهمية، ووراء كلّ هدف غرض من ورائه غرض أعظم، وهكذا هي سُبل تحقيق الارتقاء غاية ومن ورائها غاية ومن وراء الغايات مأمولا.

ولذلك في دائرة الممكن غير المتوقّع، البعض يحدّد أهدفه، ولكنّه لا يفكّر في كيفية إنجازها ولا يعمل على إنجازها وكأنّ تحديدها هو الغاية، وكذلك هناك من يحدّد أهدافه ويعمل على إنجازها دون أن تكون له أهداف من بعدها، وهنا يكمن الفشل أمام تطوّر الحاجات

وتنوّع مشبعاتها، ولهذا؛ فالأهداف ارتقاء: ينبغي أن يكون من ورائها غرض تكمن من ورائه غاية.

وكذلك في دائرة الممكن غير المتوقّع هناك من يحدّد أهدافه بمعزل عن قدراته وإمكاناته المتاحة، ممّا يجعل الأهداف لا تزيد عن كونها قد كتبت على الورق، أو خبّأت في الصّدور، وهنا يقف حمار الشّيخ عند العقبة، حيث لا شيء ينجز، سوى الحديث عن تلك الأهداف المقبورة.

ومن ثمّ فمن يريد أن يبلغ الغايات العظيمة، وينال المأمول؛ فعليه أن يجعل أهدافه درجات سلّم (درجة أعلى من درجة) أي: كلّما وضع الإنسان أحد قدميه على درجة من درجات السّلّم، أهّب قدمه الأخرى إلى الدّرجة التي هي أعلى من التي وضع عليها قدمه الأولى، ولذا؛ فلا ينبغي أن يغفل أحد من بني آدم ويضع قدميه معا على درجة من درجات السّلم؛ حتى لا تنكسر بأيّ علّة ويجد نفسه قد وقع على الأرض الدّنيا حطاما؛ فالقدمان لا يوضعان بسلام وصاحبهما مطمئن إلّا على قمّة استراحة السّلم الذي يرتق الأرض مع السّماء ارتقاء.

ومن ثمّ، ينبغي على بني آدم عند رسم السياسات أن يجعلوا وراء كلّ هدف غرضا، من ورائه أغراضا تحقّق لهم المكانة والكرامة، أي: تحقّق لهم المكانة الشّخصية قدوة، وتحقّق لهم الكرامة الآدميّة رفعة، وتحقّق لهم العيش السعيد قيمة. ولكن إن لم يفكّروا ويعملوا ويفعلوا؛ فلا

شيء لهم إلّا البقاء على الرّصيف بين حاجة وشُبهة، وهنا يكمن الانحدار علّة.

ولذا؛ فالحياة الدّنيا لا غاية من ورائها إلّا رتق الأرض بالسّماء ارتقاء، أي: كلّما وضع الإنسان أحد قدميه على درجة من درجات السّلم ارتقاء، وتحقّقت له الرّغبة المرضية قيمة وفضيلة، يجدّ نفسه أكثر تفكيرا وأكثر رغبة تجاه الصّعود إلى الطوابق العليا حتى يرى بأمّ عينيه أنّ الأرض والسّماء قد رُتقتا جنّة.

فعلى بني آدم أن يعرفوا إنّهم سيبلغون السّماء ارتقاء كلّما فكّروا وتدبّروا ثمّ عملوا، ولكن إن أحسّ بعضهم بشيء من التّعب؛ فعليهم بإعادة التفكير في المحيّر وعليهم بوضع أيديهم مع أيدي الصّاعدين ارتقاء، وعليهم أن يتأكدوا أنّهم في حاجة لوضع أيدهم مع أيدي الصّاعدين ارتقاء.

ولأجل بلوغ الارتقاء قمّة؛ فلا بدّ من سيادة الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة بين بني آدم، تقبّلا، واحتراما، وتقديرا، واعتبارا، واستيعابا، وتفهّما، وتدبّرا، مع مراعاة البدء مع النّاس من حيث هم، من أجل ما يجب أن يكونوا عليه ارتقاء.

فالارتقاء معمار ينبغي أن يُبنى لبنة فوق لبنة (قيمة فوق قيمة)، وهدف فوق هدف، وغرض فوق غرض، وغاية من فوقها غاية، ولكن في المقابل هناك من يهدم المعمار رأسا على عقب، وهناك من يهدّه

لبنة بعد لبنة؛ فالصّراع بين بني آدم لن ينتهي بين البناة رُقيّا، والهادمين له انحدارا؛ ذلك لأنّ الخالق خلقنا على الاختلاف وسنظل عليه مختلفين حتى وإن فكّر من فكّر في غير ذلك، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}19.

إنّ الاختلاف الذي خُلقنا عليه وسنظل عليه مختلفين قيمة، هو: اختلاف التنوّع المشبع للحاجات المتطوّرة عن رغبة وإرادة، ولكن هذا الإشباع لا ينبغي أن يكون على حساب ما يشبع حاجات الآخرين، ولذلك يجب على بني آدم أن يفكّروا بعيدا عن كلّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى الخلاف الذي فيه الاقتتال والفتنة، أي: ينبغي أن تحدّد الأهداف وفقا لما يجمع شمل المتفرّقين خِصاما، ويحلّ تأزّماتهم، ويشبع حاجاتهم المتطوّرة عدلا وارتقاء.

فمن أجل الارتقاء قمّة، ينبغي الابتعاد عمّا يؤدّي إلى الاقتتال والفتن؛ فالاقتتال والفتن ضياع فرصة، والزّمن لا يعطي الفرصة مرّتين؛ فيجب عدم إضاعة الفرص كلّما سنحت الظروف ارتقاء، ومن يضيعها سيجد نفسه على غفلة من أمره، وحينها لن ينفعه النّدم؛ فالنّدم عندما تضيع الفرص قد يؤدّي بأصحابه إلى الهاوية، ولكن إن كانت الفرص مازالت سانحة؛ فالنّدم يؤدّي إلى تصحيح المواقف الخاطئة بمواقف صائبة، أي: متى ما ضعف الإنسان انحدر غفلة، ومتى ما قوي ارتقاء

[19] هود 118، 119.

تذكّر؛ فاتعظ واعتبر، ومتى ما تدبّر، عمل وأنتج، ومتى ما فكّر، حدّد أهدافا من ورائها أغراضا، والغاية من ورائها قمّة.

ولذلك، وجب التفكّر والتدبّر بما يبعد بني آدم عن الجلوس على رصيف المتسوّلين؛ فالتسوّل يؤخّر أصحابه عن الالتحاق بركب من يحدِّدون أهدافهم وأغراضهم وغاياتهم بأمل تحقيق الرّفعة والارتقاء قمّة.

وفي المقابل لا ينبغي أن تجرّ العاطفة أصحابها إلى دعم مواقف المتسوّلين (الذين يتخذون التسوّل مصدرا للعيش)، بل العقل المتدبّر لأمره يجب أن يدفع أصحابه إلى ما يمكّن المتسوّلين من المشاركة في العمل المنتج، الذي يحفّزهم على تنمية قدراتهم، وتوجيهها وفقا لما يحقّق لهم الارتقاء نهضة ورفعة، فيخلّصهم من التسوّل إرادة وعملا، وكذلك لا ينبغي أن يضع بنو آدم أنفسهم في مواقف الاستعطاف، ولا ينبغي لهم الأخذ بالعاطفة فيما يؤسّس إلى ترسيخ الفضائل والقيم وبناء الدّولة؛ فرجالات الدّولة كلّما أخذتهم العاطفة أخّرتهم عن إنجاز الأهداف السّامية، والأغراض الرّفيعة، والغايات العظيمة.

فرجالات الدّولة ارتقاء هم من لا تأخذهم العصبيّة؛ ذلك لأنّ العصبيّة مقبرة الذين لا يعلمون، فرجالات الدّولة ارتقاء كلّما حكموا عدلوا، وكلّما قالوا صدقوا، وكلّما عاهدوا أوفوا، وكلّما كبروا تواضعوا، أمّا المدّعون لذلك؛ فهم مع كلّ هبة ريح يميلون، وهنا تكمن علّتهم وعلّة الدّولة.

فالدّولة ارتقاء تستهدف رجالات بعينهم وفقا لما هم عليه من مكانة، ومع ذلك، تخضعهم للتقييم قبل أن يتمّ اختيارهم إلى مناصب إداراتها، وكذلك هم بعد الاختيار يقوّمون كلّما حادوا عن القيم والفضائل الخيّرة؛ بهدف إعادتهم إليها ارتقاء.

ومن ثمّ، فمن يرى نفسه رجل دولة، فعليه باختبار نفسه وتقويمها قبل أن يُختبر ويقوّم من قِبل الغير.

فبنو آدم سواء أكانوا رجالات دولة، أم مواطنون هم يدركون أنَّ السّبيل إلى النّجاح هو: التفكير في كلّ شيء يدفع ويحفّز على الارتقاء عن كلّ شيء يؤلم، أو يؤزّم العلاقات، أو يؤدّي إلى تفكّك اللحمة الاجتماعية، أو الوطنية، أو الإنسانية، أو يمسّ معتقدا دينيا.

ولكن من بني آدم من يجهل ويغفل؛ فلا يفكّر فيما يجب؛ فيقع في فخّ مصيدة الغاوين والمزيّنين والمضللين التي تزداد ضيقا على رقاب من يقع في فخّها كلّما حاول أن يرى نفسه غير مختنقٍ.

ومع إنّ للألم أوجاعا، وللتأزّم أوجاع، ولكن أكثر الأوجاع بين بني آدم ما يتركه الغدر والخيانة من ألم، فآلام الغدر والخيانة لا تموت، حتّى وإن سامحك من أجرمت في حقّه؛ ولذلك، وجب أخذ الحيطة والحذر، حتى لا يحدث الوقوع في فخّ المصيدة مرّتين.

أمّا الحقد بين بني آدم فهو مثل حطب نار جهنّم يحترق قبل أن يحرق غيره، أي: إنّ نار الحقد تحرق أوّل ما تحرق حطبها (الحاقدين)،

ولذلك؛ فالحقد يُلهي الحاقد من بني آدم عن نفسه، والحاقد في حقيقة أمره هو في حاجة لمن يطفئ عنه النّار التي يحرق بها نفسه. ومن ثمّ، فمن يعتقد أنّه إذا تمكّن من عضّ يد أحد وعضّها؛ فلا شكّ أنّ عضّ اليد يفكر الآخر في أنيابه إن لم تكن له مخالب.

ولذا؛ فإنّ الجهل والحقد والظّلم والعدوان والكيد والمكر عندما تشتعل نيرانها بين بني آدم؛ فلا سبيل لهم إلّا التخلّف، والانحدار، والسُفلية المؤلمة، وفي المقابل الشّعوب ترتقي علما ومعرفة وتسامحا وخبرة وتجربة؛ فتغزوا الأرض سلاما، والسّماء بحثا وارتقاء.

فبنو آدم الذين بلا أمل لا يعدّون إلّا أمواتا وهم على قيد الحياة، والذين يأملون الارتقاء ولا يعملون من أجله؛ فسيبقون على أملهم وكأنّهم بلا أمل، أمّا البعض الذي يأمل ويعمل ويفعل، فلا شكّ أنّه سيُسهم في إحداث النُقلة ارتقاء، وفي المقابل هناك من يهدم وهو لا يعتقد أنّ الهدم سيقع على رأسه وكأنّه بلا رأس.

وهكذا، هناك من يصدّق كلّ ما يقال، ثمّ يحمّسه بين بني آدم مثلما يحمّس القمح في الحمّاس. ولذلك؛ فلا ينبغي أن يكون بنو آدم سماعيّون فيصدّقون كلّ ما يقال، بل عليهم بالتذكّر اتعاظا، وعليهم بالتدبّر تحليلا وتفسيرا وتخطيطا وسلوكا وعملا، وعليهم بالتّفكّر من أجل ما يجب، حتى يتمكّنوا من الارتقاء من خلال ما يمارسونه من حقوق عن رغبة، وما يؤدونه من واجبات عن إرادة، وما يحملونه من مسؤوليات وهم متحمّلون كلّ ما يترتّب عليها من أعباء جِسام.

وعليه:

فارتقاء بني آدم مؤسّس على ما أخبرهم وأنبأهم به أبوهم آدم، ومن بُعث من بعده من الأنبياء والرّسل صلوات الله وسلامه عليهم، ولهذا؛ فهم يفكّرون والأمل لا يفارقهم بغاية العيش في ذلك النّعيم المنبئ عنه، ولأجل ذلك فمن آمن منهم يسعى ويعمل من أجله ارتقاء، ومن لم يؤمن ستظل فُرصه على قائمة الانتظار ما بقي حيّا.

فبنو آدم من أجل تلك الجنّة التي وُصفت بما وُصفت به من عظمة، يصلّون لله من أجل بلوغها، ويصومون ويزكّون ويتصدّقون ويحجّون ويجاهدون بأموالهم وأنفسهم من أجل بلوغها، ولذلك، هم يصلحون أحوالهم ويعفون ويصفحون من أجل بلوغها، ويتعلّمون ويعملون من أجل بلوغها، ومع ذلك؛ فهم في حاجة للمزيد المعرفي الممكّن من زيادة الارتقاء قمّة، وخير وسيلة لذلك، المزيد من البحث العلمي والمعرفي في الكون المتسارع اتساعا وتمدّدا.

وهنا، أقول لبعض علماء الفيزياء وعلماء الفلك: ما قد تمّ اكتشافه عن الكون من قبلكم، فقد أخبرنا به القرآن الكريم الذي أنزل قبل أن يفكّر أحد في غزو الفضاء، وقبل أن يتمّ اكتشاف أسرار الكون، ولذا، فَلِمَ لا تفكّرون بموضوعية وتتوقّفون عند الكتاب لتتبيّنوا قوله لعلكم ترشدون إلى المزيد من التفكير الممكّن من المزيد من الاكتشاف العلمي، وإلى ما يُمكّن من الارتقاء من أجل بني آدم (النّاس جميعا). فإن كنتم أهل موضوعية؛ فلا يليق أن تتجاهلوا كتابا يملؤه العلم

والبيّنة؛ فأنا لا أقول لكم ادخلوا الإسلام، ولكن أقول: أنتم أهل علم، وها هو مصدر ثمين يملأه العلم آية وراء آية.

ولهذا؛ فلا ارتقاء لبني آدم إلّا والبحث العلمي مصدره، والفضائل الخيّرة مصدره، والقيم الحميدة مصدره، ومن يغفل عن ذلك ليس له من خيار إلّا الانحدار على بلاطة الدّنيا.

ومن ثمّ؛ فالارتقاء بالنّسبة لبني آدم هو: أمل قابل لأن يتحقّق ويتمّ بلوغه، ولكنّ مفهوم الارتقاء غاية لا يتّضح إلّا بمقارنة بين العُلية والدُّنيا؛ فالعُلية هي السّماء وما فيها من نعيم الجنّة وبقاء الحياة، أمّا الدُّنيا؛ فهي: الأرض، وما عليها من مخلوقات وزوال الحياة، وبين هذا وذاك، وجد الإنسان نفسه تفكيرا بين التّخيير تارة، والتّسيير تارة أخرى، فالتّخيير: (تؤمن أو لا تؤمن، تعمل صالحا أو تعمل طالحا، تَصدُق أو تكذب أو تنافق أو تدّعي ما تشاء....)، أمّا التّسيير: فلا خيار لأحدٍ فيه (حياة أو موت، شروق أو غروب، برق ومطر ورعد وصواعق وزلازل وبراكين وتمدّد كوني متسارع، ومفاجآت عظيمة....).

ولهذا؛ فالارتقاء قمّة، هو: ما يمكّن بني آدم من العيش الرّغد في الحياة الدّنيا (الزائلة) وما يمكّنهم من العيش السّعيد في الحياة العلية (الباقية)؛ فبنو آدم لا يقصرون أملهم على الحياة الزّائلة، التي يصرّون على أخذ نصيبهم منها، بل يربطون أملّ عيشهم فيها بأمل العيش في الحياة الدّائمة، ومن هنا؛ فهم يعملون ويسعون إلى بلوغ المزيد المرضي ارتقاء.

فالإنسان ينبغي أن يعيش والأمل لا يفارقه، فإن فارقه الأمل فلا معنى للحياة، فالله خلق أبانا آدم في النّعيم؛ ليعيش وبنيه حياة النّعيم، ولكن بأسباب الإغواء والمعصية أفسد حياته الباقية بالحياة الزائلة (الحياة المنقوصة) حيث الفقر والألم والفاقة والمرض والتعرّض للمفاجآت والموت، ومع ذلك؛ وجب العمل الممكّن من بلوغ الحلّ رفعة وارتقاء.

ولسائل أن يسأل:

أيّ حلّ تعني؟

أقول: حلّ أزمة الحياة الدّنيا، التي تتطلّب تفكيرا واعيا كما تتطلب من بعده عملا مبدعا ومنتجا بهدف النّهوض، وغرض الارتقاء، وغاية بلوغ القمّة (الحياة الباقية) والفوز بها نعيم مأمولا.

فيجب التفكير في كلّ شيء ولا شيء، ولا سقف ولا موانع توضع أمام الفكر الإنساني، ثمّ يجب من بعد ذلك الإقدام على العمل المشبع للحاجات المتطوّرة بلا حدود، ذلك لأنّ الحدود عوائق أمام التقدّم تجاه بلوغ الأفضل والأعظم. ولهذا، فلا ينبغي أن يرتضي بنو آدم بالفقر؛ فالفقر مرض ينبغي القضاء عليه بالعمل المنتج؛ فلو عمل بنو آدم جميعهم، لما وجد الفقر مكان له على الأرض، ولأنّهم لا يعملون جميعا؛ فسيظلون فقراء مهما استغنى منهم من استغنى.

ولذلك؛ فالغنى رحمة؛ والفقر أزمة ومواجع، ولأنّهما كذلك، وجب على الأغنياء العمل إلى جانب ما يعملون ويجنون من مكاسب من أجل إزالة الألم عن الفقراء وتحويلهم إلى ميادين العمل المنتج ارتقاء.

فالغنى ارتقاء حقّ لا يكون إلّا نتاج العمل المرضي، أمّا الفقر ليس بحقّ؛ بل الفقر أوجدته أسباب وعلل ينبغي أن تزال. أمّا العجزة والقصّر فحقوق عيشهم المرضي على كواهل العاملين من ذويهم، ولكن إن كان ذووهم يعيشون اتكالا على الغير؛ فالعيب لا شكّ أنّه سيلاحقهم ومن ورائهم سيلاحق من هم مسؤول عن الدّولة.

إذن؛ فالارتقاء لا يمكن أن يكون على حساب الغير، بل يكون بجهودهم المشتركة حيث لا إقصاء ولا تغييب لأحد عن ممارسة حقوقه، أو أداء واجباته، أو حمْل مسؤولياته، وفي المقابل يحدث الانحدار والنّزول سُفلية لمن يتخلّى عمّا يجب التمسّك به حقّا وواجبا ومسؤولية.

ولذلك، ينبغي أن يعمل الجميع بهدف الاستغناء والحياة الرّاقية، وكلّما بلغ الجميع مستوى من العيش الرّفيع الرّغد يجب أن يفكّروا فيما هو أرفع وأرغد منه حتى تُرتق الأرض والسّماء بالعمل ارتقاء.

التفكير تفاوضا:

التفكير سلسلة من العمليات الذّهنية التي تُمكّن المفكّر من المعرفة أو التبيّن بعد غوصٍ فيما يفكّر فيه تقصٍّ، أمّا التفكير تفاوضٍ؛

فهو المستهدف حلّا لأزمة أو اختلافٍ بعد قناعة أو ضرورة استوجبت الاعتراف بتجاوز الخلاف من خلال حلول مرضية للمختلفين، والتفاوض لا يكون إلّا بغرض التسوية التي لابدّ وأن يكون فيها شيء من التنازلات.

التفاوض فن إدارة الحوار والنقاش والجدال، وهو يعتمد على مواجهة الحجّة بالحجّة والدّليل بالدّليل، أو الشاهد بالشاهد، وينتهي إلى نتيجة مفادها التعويض أو العفو أو التسامح أو كلّها وفقا للقضايا المتجزئة من القضية العامّة (المشكل الرئيسي).

ولأنَّ التفاوض فنّ؛ فإذا دخلت مجالات التفاوض في القضايا السياسية لا تجعل العاطفة مرتكزا رئيسا في ملكاتك العقلية حتى لا تغفل، وعليك أن تفكّر وفقا للآتي:

. تقبّل المفاوضين كما هم لا كما يجب أن يكونوا عليه.

. تأكّد أنّ في بدايات التفاوض ستكون الجفوة؛ فلا تستغرب، ولا تتسرّع بالأحكام؛ فالزّمن كفيل بإزالتها.

. فكّر فيما أنت تفكّر فيه أثناء التفاوض.

. فكّر فيما يقال قبل الردّ على ما قيل.

. اعتمد في آرائك على دائرة الممكن (المتوقّع وغير المتوقّع).

. لا تضع أهدافك الرّئيسة في مواجهة العاصفة.

. اعرف أنّك ستتعرّض للاستفزازات من وقت لآخر؛ فلا تستغرب حتى لا تفقد توازنك.

. اقبل الاستفزازات إذا كانت المفاوضات تسير في الاتجاه الموجب؛ حتى تمتصّ الغضب، ثمَّ أرسل ما يقابلها في الوقت المناسب الذي تكون فيه الفرصة سانحة للطّرف الآخر لامتصاصها.

. ارفض الاستفزازات في وقتها إذا كانت المفاوضات لا تسير في الاتجاه الموجب لقضيّتك.

. إذا أردت إطالة زمن التفاوض لأسباب تخدم القضية؛ فأعمل ما من شأنه أن ينهي التفاوض ليتأجل حتى تكسب وقتا للعودة في زمن لاحق.

. إذا كنت في حالة ضعف فعليك بإطالة زمن التفاوض.

. إذا كنت قويّا ومنتصرا عليك بالإسراع بإنهاء زمن المفاوضات؛ فطولها قد يعطي الفرصة للخصم بأن يُجمّع قواه من جديد فلا يُمكِّنك من تحقيق ما أنت تريد.

. إذا تماثلت قوّة المفاوضين فعليهم باعتماد المنطق في التفاوض، أمّا اللغة ففيها من إضاعة الوقت والخروج عن الموضوع ما فيها.

. إذا كنت منتصرا وخصمك ضعيف فأعتمد على اللغة؛ فخصمك بلا شكّ سيحاول قدر المستطاع أن يعتمد المنطق ليضعك في دائرة الإدانة.

. ارفع سقف المطالب إذا أردت الموافقة على المطالب الأقل.

. عند الضّرورة اقبل بالتنازل، ولكن لا تُقدِّم تنازلاتك دفعة واحدة.

. إذا قرّرت التنازل للضّرورة فلا تتنازل إلّا بمقابل.

. لا تضع حُسن النيّة رفيقا لك في زمن التفاوض.

. لا تقر الأحكام المسبقة فكلّ شيء يتغيّر.

. إذا قبلت أن تكون مفاوضا نيابة عن النّظام؛ فلا تستغرب أنْ تكون الضحية من قِبل النّظام الذي التي أنت تفاوض من أجله.

. التفاوض فرصة لأن تتعلّم؛ فاغتنم الفرصة تعلّما وخبرة.

. التفاوض تجربة احرص على نجاحك فيه حتى وإن فشلت المفاوضات.

. المفاوضات إذا فشلت في جولة فلا تتسرّع بإصدار الحكم على فشلها؛ فزمن التفاوض طويل.

. كن فطنا لكلِّ ما يقال في الجلسات الرّسمية أو في جلسات الرّاحة المشتركة.

. التقارب في جلسات الراحة المشتركة أكبر فرصة لتسريب ما يمكن أن يسرّب من أجل نجاح المفاوضات.

. قراءة كلّ ردَّة فعل سواء أكانت كلمة أم حركة أم فعل.

. استقراء أفكار الخصم أو من ينوب عنه قبل أن تُقدِّم رأيا أو مقترحا.

. قبل الاتفاق عليك بالاعتماد على التحليل أكثر من أن تعتمد على تقديم الآراء والمقترحات.

. لا تتسرّع في تقديم الحلول؛ فالتسرّع بتقديمها يحرق أوراقك التفاوضية، ويجعلك ملاحقا بإعطاء المزيد من التنازلات.

. بعد الاتفاق لا داعي للتحليل؛ فزمنه قد ولى.

. كن في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع قادرا على الإنصات، ولا تترك شاردة ولا واردة إلّا وتلمَّ بها.

. كن صبورا؛ فالصبر يُمكِّنك من المغالبة.

. أحسس الطّرف الآخر بحرصك واهتمامك، واضع اللوم عليه كلّما تهيئة لك الفرصة في إلصاق ذلك به.

. تقبَّل الآخر كما هو؛ لتعمل على نقله لما يجب.

. إذا أحسست أنّ الطّرف المفاوض سيجرُّك إلى ما لا ترغب؛ فعليك بأن تطلب زمنا للرّاحة؛ لكي تتمكّن من أنْ تستجمع أفكارك وقواك الذّهنيّة.

. حاول قدر الإمكان في بعض الأحيان أن يحسَّ الطّرف المفاوض وكأنّك محايد بما تقدّمه من نصائح لخدمة الطّرفين أو الأطراف ذات العلاقة.

. إذا طلب منك الطّرف المفاوض (الآخر) رأيا فلا تستعجل على تقديمه حتى وإن كنت واثقا، بل عليك أن تناقشه أوّلا مع فريقك المفاوض إنْ كنت أحد أعضاء الفريق.

. إذا طلب منك الخصم رأيا، تأنّ وفكِّر جيدا حتى لا تقع في الفخّ من الغاية المترتّبة عليه.

. لا تظن أنَّ المفاوضين المتقابلين معك على طاولة المفاوضات بلهاء؛ إن ظننت ذلك تأكد أنّك استعجلت استعجالا في غير محلِّه.

. كن مرنا من أجل القضية التي تفاوض من أجلها ولا تكون مرنا على حسابها، أي كن صلبا من أجلها.

. حاول قدر الإمكان أن تستكشف نقاط الضّعف في بعض من أعضاء الطّرف المفاوض لك، واعمل عليها، ولا تجعل القيم قيدا

عليك، بل اعمل عليها حتى تكون قيدا بين يديك، ولا تغفل حتى لا تؤخذ منك، وبها تُقيَّد.

. كُن قادرا على الاستقراء والاستنباط فمعظم ما يثار بين المفاوضين وبخاصّة في جلسات الحوار الأولى هو حديث مُبطَّن.

. لا تغفل عن قوانين نظرية الاحتمالات التي بها تُقلَّب المعلومة على عدد زواياها وأركانها؛ فعلى أساسها أسّس حديثك في أثناء الحوار والتفاوض؛ ليكون حمَّالا لأوجه، ولِعلمك أنَّ المفاوضين قادرين على استقرائه من أوجه عدّة فلا تظن أنّهم غير متمكّنين من الفهم المتعمَّق لنظريّة الاحتمالات، ولكن بحوارك حمَّال الأوجه تمتلك الحقّ الذي به تؤكّد على أيّة كيفية أنت تقصدها في اتجاه استمرار الحوار أو في اتجاه توقُّفه.

. إذا أحسست بأنّك أصبحت مؤيدا من الطّرف الآخر فاعلم أنّك تحتاج لمراجعة نفسك أو مراجعة الكيفية التي بها قد أثرت الموضوع، وإلّا ستجد نفسك في اتجاه بداياته لا تؤدّي إلى النهايات التي من أجلها كنت مفاوضا، إلّا إذا كنت عن قصدٍ ودراية بالمترتّب عليه.

. اعرف كيف يُفكِّر الخصم؛ لكي تتمكَّن من تقديم الحُجَّة المناسبة في وقتها المناسب؛ فعلى سبيل المثال: إذا كنت ليبيًّا والطرف المفاوض لك فرنسيا؛ فعليك أن تُفكر في القضية مع المفاوضين

الفرنسيين بعقل باريس، وإذا كان الطرف المفاوض لك ألمانيًا ففكر وحلل واستخلص وفسّر بعقل برلين. وهكذا إذا كان المفاوض أمريكيا فعليك أن تفكِّرَ وتحلل وتستنتج وتفسِّر بعقل واشنطن. إمّا إذا فكّرت وحللت واستنتجت وفسّرت بعقلك فإنّك قد لا تتمكّن من اختراق عقل الآخر والتأثير فيه والوصول إلى نتيجة مرضية.

وعليه:

. تأكد قبل أن تَقدِم.

. تبيّن قبل أن تتخذ قرارا.

. خطّط قبل أن تعمل.

. فكّر حتى تعرف.

. لا تتسرّع فالتسرّع مصيدة.

. تأنّى فكلّ شيء ممكن.

. تحقّق بمقارنة.

. دقّق بملاحظة.

. استنبط بفطنة.

. حلل بمنهج.

. ابحث بطريقة ووسيلة وأسلوب.

. شكّ حتى ترى الحقيقة بين يديك بيّنة.

ولهذا:

. شُك قبل أن تَقدِم على الفعل.

. تيقَّن قبل أن تَقدِم على الفعل.

. اقراء قبل أن تكتب.

. فكّر قبل أن ترسم خطّة.

. ارسم خطّة قبل أن تعدّ برنامج.

ولهذا لا يمكن أن يتمّ إصلاح أو تقويم القول أو السّلوك أو الفعل أو العمل ما لم تكن الفكرة واضحة؛ كي يتمَّ تصحيح أو تغيير المعلومات الخاطئة بمعلومات صائبة.

التفكّر:

التفكّر لا يكون إلّا في قضية أو موضوع أو مشكلة محيّرة، وهو من أعمال العقل وعمليات الذّهن، وهو يُمكّن من الإدراك (ملاحقة المعلومة أو الفكرة) وإدراكها أينما كانت بحثا أو تفكيرا يخلّص من الحيرة المقلقة؛ فالتفكّر كونه يمكّن من إدراك الشيء قبل فوات أوانه، يعدّ حيوية العقل ونشاطه توجيها إراديا، وهو لا يقتصر على التفكّر في

المتوفّر من المعلومات أو المتوفّر بذاته للمشاهدة، بل يمتدّ في دائرة الممكن إلى معرفة المزيد المضاف والمبدع.

ولأنّه التفكّر؛ فهو يلاحق كلّ ما يقع في الزّمن، وهدفه معرفة طبيعة المتعرّف عليه، والاستفادة منه حاضرا ومستقبلا، أمّا غايته فهي: التجويد وإحداث النُقلة وصُنع المستقبل ونيل المأمول أو الفوز به.

ولهذا فالتفكّر تشغيل العقل وتوجيهه تفكيرا فيما يجب أن يكون غاية وأملا، فإنّ كان المأمول مرتبطا بماضٍ فتشغيل العقل تفكّرا يقود إليه، مثل: أبونا آدم عليه السّلام الذي في زمانه أصبح يفكّر في العودة إلى تلك الجنّة التي افتقدها بعد أن أهبط به والأرض إلى الحياة الدَنيا. أمّا بالنسبة لبنيه من بعده فالتفكّر يربطهم بالمستقبل المأمول، ولأجل ذلك وجب الاتعاظ حتى لا يتمّ الإغفال عن التفكّر في المستقبل، {فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}[20]، فإنْ تذكر بنو آدم تلك الآلام التي حدثت بعلل التفكير اتعظوا ومن ثمّ ليس لهم بدّ إلّا التفكّر فيما يجب أن يصنع لهم مأمولا ومستقبلا عظيم. أمّا التفكّر في المجرّد فدائما ينقل المفكّرين إلى ما يمكّنهم من المعرفة المضافة كما يمكّنهم من إحداث النُقلة.

ويرتبط التفكّر بالمستقبل المأمول وهو يمثل الامتداد الطبيعي للحياة من ماضيها وحاضرها، وله أهمية كبرى في البناء المرتقب الذي

[20] الأعراف 176.

يكون من ورائه امتدادات مختلفة تتّجه بحسب الاستراتيجية التي وضعت له اللبنات الأولى، فالمستقبل يعدّ الأرضية الجديدة التي يُؤسّس من خلالها كلّ ما هو مطلوب ضمن دائرة المتوقّع وغير المتوقّع، وبذلك يكون التفكّر عنصرا مهمّا في خلق مستقبل موافق لكلّ التوجهات التي تسعى إلى المضي قدما نحو التفاضل والوصول إلى الدّرجة التي تكون إخافتها حاصلة، ودون وجود مخيف يمكن أن يماثلها أو أن يكون ندّا لها.

ولا يكون التفكّر منزويا عن الماضي والحاضر، بل هو مرتبط بهما ويمثلان له قاعدة للتأسيس لكلّ الافتراضات التي من شأنها أن تكون مسهمة وفاعلة في المستقبل؛ فالمستقبل لا يمكن بناؤه دون النّظر إلى امتداداته الحاصلة التي يكون الانطلاق منها حاصلا في كلّ التوجهات، وتكون التوجهات المختلفة منتمية إلى جذور تمدّها بما يسمح لها بالسعي إلى إيجاد حلول واضحة المعالم، فلا يكون هنا أيّ انكفاء، بل تكون الأمور عامّة سائرة نحو تشابك منظم يكون من ورائه وجود تبعات تبحث لها عن رؤى تفاعلية تثري التفكّر وتمنحه أبعادا مختلفة ومهمة، وهنا يكون الإيضاح سمة مطلوبة؛ كي يكون الاتساع المرافق ملبّيا للإدراكات الحاصلة، فتحصل بذلك شمولية مطلوبة تطرح التواصل الذي يكون من ورائه تحقّق التفكّر.

ومع ذلك فالمستقبل يكتنفه في بعض الأحيان غموض معيّن يسير في مدارات قد تبدو للوهلة الأولى غير منضبطة وفق الرؤيا

المطروحة، وهنا يكون الاستشراف حالة ملبّية للكثير من الطموحات وحتى التداعيات التي تخلف انفراجا وإن كان وقتيا إلّا أنّه قد يكون سببا في حلّ الكثير من المتعلقات المفترضة، كما أنّ التشكيل العام لهذه الرّؤى يكون مطويا خلف إزاحات دائمة تريد أن تجد لها مكانا بين الحضور الحاصل، إلّا أنّ مكمنها قد لا يبدو واضحا نتيجة البعثرة التي تحصل في بعض الأحيان، وهنا تنبري لنا مسألة مهمة ألا وهي: التنظيم المطلوب ضمن هذه الصيرورة؛ إذ يحتّم المكوث عند هذا التنظيم وجعله منهجا يكمن فيه التحقّق المطلوب، ويكون الحذر حاضرا في هذا التنظيم بطرق متباينة؛ فالحذر يقف عند كلّ النقاط المهمّة التي يكون من ورائها الوصول إلى الامتدادات المستقبلية المطلوبة؛ فتكون الآليات المطروحة تسير وفق اتجاه يكتنفه الحذر وفق كلّ التفصيلات المتاحة، وهذا الأمر يسهم بشكلّ أو بآخر في إيجاد نتائج واضحة المعالم يُرى فيها معالم الحذر في كافة جوانبها؛ فيكون الظهور المتحقّق وفق هذا التفكّر ملبيا للبداية التي طرحت كلّ ما من شأنه كي يصل التفكّر إلى هذه المرحلة وما بعدها ارتقاء.

وينفتح الحذر على كلّ الأزمنة، وهذا من باب الاتساع المطلوب؛ كي تكون الصورة المطلوبة واضحة وملبّية لكلّ التغايرات التي يمكن أن تحصل، فالارتباط المطلوب يغرس في كلّ خطوة من الخطوات اتكاءات جديدة يكون مبعثها متزامنا مع التفكّر في التفصيلات التي يكمن فيها الحذر من أجل تحقيق مستقبل أفضل، وهذا يسير بوتيرة

إفضائية تتحكّم بشكلّ ينمّ عن وجود ارتباط فعلي بين هذه الامتدادات الثلاث، ولأنَّ النّهاية مفتوحة؛ سيبقى الحذر مفتوحا ولا يتقيد بأيّ قيد يمكن أن يكفّه عن تحقيق فاعليته؛ فالنّهاية المفتوحة تكون حافزا على خلق استمرارية في البحث تتّجه دائما نحو شمولية يتّسع مداها كي تكون متجاوزة لكلّ الأساليب التقليدية التي تكتفي بالبقاء عند عتبات تجد أنّها تمثّل النّهاية التي يجب أن تكون، وهذا الأمر بطبيعته مخالف للحياة التي نعيشها؛ فهي قائمة على استنهاض مستمر، وبحث مستمر والأمل لا يفارق، فالتوقّف أو الانكفاء سمة تشير إلى وجود خلخلة وبعثرة حقيقية في التفكير؛ لأنَّ البقاء ضمن هذه الأطر يخلق ارتباكا وفوضى معرفية لا تكون نتائجها محمودة أبدا، وفي المقابل تفطين الذاكرة لاحتواء ما يُنتج عبر الزّمن ماضيا وحاضرا يقود بسلام إلى تطلّع مأمول لا يتحقّق إلّا بالعمل في دائرة الممكن مستقبلا.

ونحن إذ نشير إلى هذا التعالق؛ فهو من باب أنّ التفكّر لا يمكن له أن يكون سائرا بالاتجاه الصحيح دون أن تكون له قاعدة يتكأ عليها، تمدّه بكلّ ما يمنحه من امتدادات مختلفة سواء أكانت نظرية أم عملية؛ فتوجه الحذر يكون متماشيا مع هذه الامتدادات كونها تتوافق معه فيسمح لها بالمثول عند أيّ ارتكاز تريده.

وعليه يكون التفكّر واقعا ضمن دوائر متعدّدة تكون حاضنة له، فتمنحه كلّ ما من شأنه أن يحقّقه، وإن كان الأمر ضمن دفعات تتابعية إلا أنّه لا يخلو من إرهاصات قد تكون متواجدة بشكلّ لا

يكون من ورائها انزياحات كبيرة، وهنا يكون الحذر من أجل صناعة المستقبل المأمول متغلغلا في كلّ الجوانب التي تريد أن تقف عند أعتاب كلّ التشكيلات التي يكون من ورائها البناء المطلوب؛ لأنّ هذه الصّفة بلزوميتها تواكب الحاصل الذي لا يسير معها، بل هي تسير معه، وهنا تكون عظمة المرافقة التي تمنح التفكّر أبعادا مهمة تسهم بفاعلية كبيرة في خلق مستقبل غير مسبوق، لأنّ السّابق متحقّق بكلّ ما فيه أمام المستقبل الذي يسعى نحو التفاضل والتمايز، فتتحقّق بذلك الافتراقات التي تخلق بناءا مغايرا مبنيا على تشعبات استبطانية وجدت في الماضي والحاضر البداية التي لا يمكن أن تكون ثابتة، بل هي موجّه نحو إيجاد البدائل أو إيجاد الجديد الذي يكمن فيه التغاير والتباعد عن نقاط الالتقاء التي تكون ملبّية للتساوي الذي يجب ألاّ يكون.

إنَّ التفكّر في المستقبل يسير بالفكر الإنساني نحو إيجاد بدائل يكمن فيها النّهوض المأمول الذي يمنح النّاس جميعا حياة أفضل، لكن هذا الأمر لا يتحقّق للجميع؛ كونه يرتبط بأخذ الحيطة والحذر؛ فالمخاوف بسمتها الإيجابية المفقودة يكون الرّكون إليها متفاوتا، وهذا ناتج عن الإدراك غير الواعي بالحقيقة الموجودة؛ فالخوف لم يكن سلبيا على مدار الوجود الإنساني، بل كان حافزا مهمّا في المعالجة والوقاية ودرء المخاطر في أوقات مختلفة؛ فهو يشير دائما إلى وجود خروقات طبيعية وغير طبيعة، تخرج عن نطاق المتعارف أو الطبيعي الذي يجب أن يكون؛ فهو بذلك منبّه من الدّرجة التي يكون استشعاره باعثا على

إيجاد كلّ ما من شأنه أن يدفع بالمتغيرات الحاصلة التي ظهرت منها المخاطر نحو حدود جديدة يكمن فيها الدرء المنشود من أجل بلوغ مستقبل أنفع، وهذا الحال حين يكون تحقّقه مستمرا يمنح الإنسان وعيا مستمرا أيضا، ذلك أنَّ تكرار المنبهات يحيل إلى زيادة في الوعي المتحقّق؛ فيكون الخزين العام منساقا نحو هذه الزيادة التي يُرى فيها إضافات جديدة على المساحة الفكرية المطروحة؛ فيكون الاغتناء الفكري قد وجد له تمويلا مستمرا يمنحه ما يشاء، وبتفصيلات تلهمه المتابعة التي يجد فيها كلّ ما هو جديد وكلّ ما هو بديل للحاصل21.

وعليه:

لا يمكن أن يُصنع المستقبل إلّا بالتفكّر، ولهذا فعلينا به تخطيطا، مع السّماح للبحاث بالتفكّر حتى بلوغ الخوارق، وبلوغ المعرفة التي تمكّن من معرفة المستحيل مستحيلا، ومن معرفة المعجز معجزا، ومن معرفة الممكن ممكنا حتى وإن كان غير متوقّعٍ، ولهذا فصناعة المستقبل المأمول تمكّن من معرفة المجهول وكشف خفاياه.

ولأنّ الحياة من أجل المستقبل؛ فنحن بنو آدم نتعلّم، ونبحث عن فرص عمل، ونتزوج، ونصادق من يصادقنا، وعندما نتعرّض لسوء التكيف قد نُطلق عند الضّرورة، وعندما تقوى علاقاتنا نُشرّع، ونسنّ القوانين والنّظم، ونحدّد الأهداف ونرسم الخطط، ونتطلّع بأمل إلى

[21] عقيل حسين عقيل، الخوف وآفاق المستقبل، ص 131 . 135.

المستقبل القريب والبعيد، ولهذا نصوم ونصلي من أجل نيل المستقبل جنّة.

التذكّر:

يعد التذكّر الفكري عملية من عمليات الفعل العقلي المتعلّق بالمراجعات والاستقراءات بغاية الاستنباط والاستمداد الممكن من تدبّر الحاضر وصُنع المأمول والتفكير فيما يحفّز على بلوغه ونيله.

ويمثل الماضي خزينا معرفيا متعدّدا ومتنوّعا، بما يستثير العقل ويحفّزه على الانتباه والأخذ بما يجب اتعظا، فهو حافل بالكثير من التجارب المختلفة التي كان لها حضور واضح ومؤثّر سواء أكان ذلك على مستوى السّلب أم الإيجاب، ولهذا فإنّ الوقوف عند هذه التجارب باختلافها يُعدّ وقوفا على إرث إنساني يمثل حقبة من حقب الماضي، والتاريخ بتفريعاته وارتماءاته وتنوّعه يمثّل مجموعة من التجارب الإنسانية سواء أكانت على مستوى الأفراد أم على مستوى الجماعات، وهنا يكون النّظر الحاصل منطويا على الفكرة المطلوبة، فتُصبح بعد ذلك مطلبا من المطالب التي لا يمكن الاستغناء عنها؛ فيكون هذا الطّلب فيما بعد حاجةً ملحةً تكون حاضرة بشكلّ أو بآخر في كثير من التفصيلات التي يكون حضورها ملبّيا للبداية الافتراضية التي كانت السّبب في هذا الحضور.

إنَّ استدعاء الماضي تفكيرا فيه من الترابط ما يجعل التجارب الإنسانية تسير وفق نسق واحد رغم العقبات التي يمكن أن تحدث؛ فالتفاعل من خلال كلّ المديات الحاصلة يمثل هذا الترابط، ممّا يجعل البحث الدّائم متحقِّقا في كلّ زوايا الماضي، ذلك أنَّ الماضي فيه من التحقّق ما يمنح الحياة الآنية والمستقبلية حلولا مهمة إلا أنَّنا لا نعتقد بالتكرار المتطابق في الحياة كون الظروف مختلفة أو غير متماثلة؛ فيكون الاختزال في كثير القضايا متحقّقا بدرجة بعيدة ممّا يسمح بظهور مديات واضحة يُطرح من خلالها هذا التفاوت؛ ولذا تكون الصورة المطلوبة في كثير من الأحيان غير مكتملة الأركان ضمن التشكيل المطلوب، وهذا يكون في حالة طلب الماضي ودمجه مع توجّهات الحاضر من أجل الوصول إلى إعادة تفعيل متشابهة.

ويدخل التفكير الماضي حقل التراث لكن ليس من باب الجمود كأيِّ إيقونة ممكن أن تكون، ولكن من باب التبصّر والتمعّن والإيضاح، فالإنسان يمرّ بظروف تكاد تتشابه كثيرا على مر العصور؛ فينتج من ذلك نهايات تكون مختلفة؛ ممّا يطرح هذا الاختلاف وجود آراء مختلفة وقد شكلّت هذه النهايات ممرّ تجرّ الأمور بعد ذلك إلى منعطفات لم تكن في كثير من الأحيان بالحسبان، ولعلّ تحقّق الأحداث العظام في الماضي يمثّل أحد هذه الاختلافات؛ فالإنسان يختلف تصرّفه كثيرا حتى في القضية الواحدة؛ إذ تحكمه الكثير من الظّروف التي تتنوّع فلا تقف عند حدٍ معين؛ فيكون الارتماء ممثّلا بتداعيات مختلفة تطرح

من خلالها الحدود المفترضة التي تكون النّهاية عند أعتابها؛ فتنساق الأمور إلى امتدادات وإن كانت في بعض الأحيان واهية إلا أنّها ممثّلة لاتجاهات فكرية كانت وراءها، ولهذا لا يمكن أن تكون هناك قطعية في الحلول، فالماضي حمل الكثير من الحلول المختلفة ممّا يحيل إلى انتفاء القطعية التي يمكن أن تطرح على أيٍّ صعيد، فلم يكن هناك حلّا واحدا لكثير من القضايا وإن تشابهت هذه القضايا إلى درجة التطابق.

ويكتنف التفكّر في الماضي الكثير من التشكيلات التي يكون الوصول إليها يمثّل قراءة واعية بما أسبغ الماضي من طروحات، ولهذا نجد يوما بعد يوم ظهور تأويلات مختلفة للماضي وقد تكون متناقضة لكن هذا يدلل على وجود حيّز كبير في الامتداد الفكري الذي يجوب أروقة الماضي ويقف عند محطاته الشاخصة التي تكون فيما بعد دروسا يستفيد منها من يبحث عن حلّ لما يمرّ به الإنسان.

ويطرح التاريخ مغايرات مهمّة تكون عند أعتابها نهايات قد تتكرّر، وهذا يُسيّر عجلة الزّمن نحو إيجاد تعالقات متشابهة تكون أكثرها منتمية لبداية سعت دائما إلى حلحلت ما يمكن حلحلته في سبيل الوقوف على حدود واضحة المعالم، وهنا يكون السّير في هذا الرواق منكفيا على تجارب حاضرة وملبّية في الوقت نفسه للتساؤلات التي يمكن أن تُطرح، فتكون التبعات متحقّقة كونها تمثّل امتدادا مطلوبا، والتاريخ فيه من السعة ما يجعل الكثير من المقولات شاخصة في كلّ زمان ومكان، فمقولة: (التاريخ يعيد نفسه) تتكرّر على كثير من

الألسنة لكنّها كما نعتقد أنّها لا تمثّل تشكيلا عاما في هذا النسق الإنساني، فالتكرار قد يحصل لكنَّه هل يحصل كما حصل في الماضي؟

هذا التساؤل يفضي بنا إلى أن نقول:

إنَّ التاريخ يمكن أن يعيد نفسه، لكن هذه الإعادة لا تكون بالتطابق التام؛ لأنّ هذا الأمر يكون من الصعوبة بمكان أن يتحقّق، ومع ذلك فالتجارب الإنسانية متشابهة ويمكن تكرارها، فيكون النّظر إلى تلك التجارب من باب البحث عن حلولٍ علّها تكون ناجعة في معالجة ما يحدث، وهنا تكون النّظرة إلى الماضي من باب البحث عن كلّ ما من شأنه أن يسهم بشكلّ أو بآخر في الوصول إلى حلّ حتى وإن كان افتراضيا، لأنَّ الكثير من المشاكلّ تحتاج إلى اتكاءات جديدة تكون قادرة على حلّها، فيحدث الانزياح المراد ضمن توليفة يُجمع فيها في بعض الأحيان حتى النقائض التي لا يتوقّع لها أن تجتمع في يوم من الأيام.

وكلّ التشكيل الذي ذهبنا إليه يكون الخوف حاضرا فيه، كونه يمثّل الانطلاقة الأولى التي يكون على أساسها الوصول إلى الغايات المرجوة، فالبحث عن حلّ يكمن من خلفه وجود خوف يحفّزه ويرشده بطريقة أو بأخرى إلى البحث عن حلّ يكون من بعده سقوط أو تبدّد كلّ المخاوف القائمة، ولذا يكون الاستشعار في هذا التوجه قائما على درجة عالية من الحذر كي تكون النهاية ملبّية للخوف الأول الذي كان محفّزا بدرجة جعل من آليات البحث عن حلّ خاضعة لهذا الخوف

بشكل كبير. ولهذا علينا أن نفكّر في المجهول بغاية كشف حقيقته ومعرفة علله وأسبابه وإضافته إلى معافنا التي تسهم في إشباع حاجاتنا المتطوّرة.

التدبّر:

التدبّر هو إعمال العقل وانشغاله تفكيرا في ما يجب تجاه ما نفكّر فيه، واتجاه من نفكّر من أجلهم، ما يجعل التخطيط تدبّرا عن تدبّر، أي: تدبّرا وفقا لدائرة الممكن (تهيؤا وعدة واستعدادا وتأهّبا وعملا) أمّا كونه عن تدبّر فالأمر هنا يعود لما وصل إليه العقل البشري من تفكير حتى أوجد طريقة تمكّن من الحلّ، ومن هنا صاغ لها خطّة لإنجازها.

التدبّر حُسن إدارة وجودة عمل، به ترسم السياسات والخطط وتُتّخذ التدابير الممكّنة من إيجاد معالجات لأيّ طارئ؛ فالتدبّر دراية عقلية يرتقي بحاضر أصحابه إلى ما يمكّنهم من الأخذ بما ينبغي في سبيل إحداث النُقلة سياسة واقتصادا وعلما ومعرفة، نُقلة تطوي صفحات الحاجات المتطوّرة بمشبعات مُرضية وفقا للفرضيات التي تأسّست عليها؛ ممّا يجعل المعالجة منطوية على إيجاد حلول سريعة يمكن من خلالها تفادي المشكلّة، أو حلّها من جذورها؛ فالتدبُّر ارتقاء يمكّن من مواجهة المفاجآت التي يمكن أن تحصل في الزّمن الحاضر دون أن تترك أثرا سلبيا.

ويتّسع التدبّر العقلي والفكري ارتقاء ليكون حضوره ملبّيا أو محتويا للأحداث الحاصلة، إلا أنّه لا يكون حلّا نهائيا؛ فكلّ الحلول الآنية قد لا تصلح لأن تكون حلولا دائمة، لكنّها في وقتها إن كانت ارتقاء؛ فهي لا شكّ تمثّل الحلّ الأمثل في دائرة الممكن الذي تكون نتائجه باهرة وغير متوقّعة، كما أنَّ التدبُّر وإن كان آنيا إلّا أنَّه يفتح مدارك الإنسان رُقيّا في البحث عن حلول تكمن فيها النّهاية المرجوة، التي تتّسع لكلّ المفاجآت، التي يمكن أن تحدث. وهو بهذا يسير نحو إيجاد حلول منفتحة ومكتسية بثوابت افتراضية ممّا يكون مستقبلها حاصلا ومنتميا لهذه الافتراضات.

ففي الزّمن الآني يحدث الكثير من الأحداث التي يكون وقوعها ممثّلا لكارثة أو لأمر غير متوقّع؛ فتكون المعالجة منطوية على إيجاد حلول سريعة يمكن من خلالها تفادي المشكلّة.

فالتدبُّر تفكير يمكّن من حلّ المفاجآت التي يمكن أن تحصل، ولهذا لا يكون الحلّ نهائيا، بل وقتيّا من أجل تجاوز المرحلة المهمّة، ومن الشّواهد التي رأينا فيها التدبّر العقلي مثالا حاصلا بالكيفية الآنية ما حصل في تشيلي لعمال المناجم بتاريخ 14 أكتوبر 2010، فبعد أن أصبحوا في غياهب الظلمات في مسافة تزيد عن ستمائة متر تحت الأرض، فما كان من السلطات التشيليّة إلّا بحثت عن حلّ سريع يكون فيه النّجاة لهؤلاء العمّال، وفي كلّ تفاصيل الإنقاذ كان الخوف حاضرا بدرجة كبيرة، ممّا استوجب ضرورة لحسن التدبّر، فأدوات النجاة

وطرقها كان يرافقها الخوف ممّا أفضى ذلك بأن يكون النجاح حليف عملية الإنقاذ، واستعملت في عملية الإنقاذ كبسولة أطلق عليها اسم: (فينكس) نسبة إلى طائر (الفينيق) الأسطوري، وبلغ قطرها 53 سم، وخضعت هذه الكبسولة للتجريب إذ عمد عمال الإنقاذ إلى إنزالها مرّتين في باطن الأرض قبل بدء عمليات إنقاذ العمال. فما كان من الخوف إلّا أن يكون حاضرا في جميع تفاصيل مهمة الإنقاذ؛ فالبداية تدبّرا كانت باحثة عن كلّ الأساليب التي تجعل من العمال يبقون على قيد الحياة سالمين، كالغذاء والاتصال وغير ذلك، أمّا المهمّة الثانية؛ فكانت في تفاصيل وسائل الإنقاذ بداية من الحفر عن أقرب مكان يصل إليهم إلى الكبسولة التي تقلّهم إلى سطح الأرض؛ فالتدبّر في حاضره كان في كلّ شيء يسهم في الإنقاذ، والكبسولة حيطة وحذرا لم تكن واحدة بل كانت أكثر من واحدة، ووسائل الحماية المتوفِّرة فيها تدبّرا كانت خاضعة لمقاييس الخوف من أجل أن يصل العامل إلى سطح الأرض بكلّ سلامة، ولم يكن الخوف والتبّر قابعا تحت الأرض فقط، بل كان حاضرا عند سطح الأرض في توفير كلّ المستلزمات الصحيّة التي تحافظ على صحة العمال بما فيها النظّارة الشمسية الخاصّة التي كانت البداية متمثّلة فيها.

ويسهم الحلّ الآني تدبّرا في خلق فروض متعدِّدة منتمية إلى مخاوف مفترضة، وهنا يظهر الخوف كمؤسّس حقيقي لفرضيات تسهم بشكلّ كبير في إيجاد مساحات جديدة فيها من التدبّر والمتناوبات

المختلفة التي تشير بشكلّ أو بآخر إلى وجود افتراقات في المنجز الافتراضي، وهذا يبعث في الرؤى العامّة المتحقّقة روح الامتداد المستفيض الذي يخلق تبعات واضحة تجد صداها عند كلّ فرضية موجودة سواء أكانت متحقِّقة أم كانت في طور الانتماء العام لفرضيات أخذ الحيطة والحذر من أجل سلامة المتدبّر من أجله.

ويكون التدبّر المتعاقب في هذا المنجز الافتراضي أداة فاعلة في بناء استمرارية حقيقية تكون رافده للعملية المطلوبة، فالانكفاء غير حاصل كونه يخلق انزواءات غير فاعلة تسهم بشكلٍ كبيرٍ في انضواء أنساق عديدة يكون لها دور مهم في الإيضاح والتفاعل والخلق والمبادرة، فتستحيل كلّ ملاحظاتها إلى برامج تتابعية ترشد وترسم ما سيكون وفق عملية نجد فيها تشاكل واضح ينضح بكلّ السياقات التي يكون حضورها فاعلا ومؤثّرا.

وعليه تكون المساحة المطلوبة لهذه الفرضيات منتمية إلى الاتساع الذي يجب أن يكون، وهنا تظهر المدارات بأنواعها؛ كي تشغل حيزا واضحا في هذه المساحة التي تتّسع لكلّ الأطراف، أمّا حدود هذه المساحة فهي مفتوحة كونها تريد أن تكون نهايتها مفتوحة كي تتّسع لكلّ المفاجآت التي يمكن أن تحدث؛ لأنَّ الواقع يفيض بالمفاجآت؛ فتكون معالجتها تفكّرا وتدبّرا غير منضوية تحت أيّ إدراج، وبغضّ النّظر عن الوسائل التي تُستخدم، ممّا يسمح لها باستقطاب الحلول التي تنقلها من واقعها التي هي فيه إلى واقعٍ جديدٍ يكمن فيه الانتشال المطلوب.

إذن: يوجد التصاق بين التدبّر الإنساني وبين الزّمن الحاضر، أي: لا تدبّر إلّا حاضرا، وهذا الأمر جعل من يتدبّر يدور في المعاجم التي تنتمي إليها الحلول الآنية التي لا يمكن معاودتها مرّة ثانية، لأنّها لم تنتمي إلى دائرة الثبات التحقّقي؛ فهي تزاول نشاطها ضمن مساحات محدودة يدفعها الخوف باتجاهات ترتبط به وبدون أن يمنحها حقّ التراجع، لأنّها في حقيقة الأمر لا تمتلكه كونها تابعة للخوف بوصفه المانح لكلّ الرسوم التي تُسيّر الحلول في زمنها الحاضر وفقا لما هو ممكن.

وهنا يباشر التدبّر وجوده من خلال الارتماء في حضن الواقع الذي يكون فيه المشكل حاصلا بكيفية متوقّعة وغير متوقّعة؛ فتنبري الحلول المستدعاة تدبّرا بتقنيات مختلفة، إذ تدور كلّها حول إيجاد حلّ سريع وملبّي للواقع، ويكون الزّمن مفتوحا ضمن مدى يقصر وقد يطول بحسب الاحتياج المطلوب، فتتعالق عوامل متعدّدة ومتنوّعة تسهم بأشكال مختلفة من أجل الوصول إلى الحلّ المنشود أملا.

والإنسان في حاضره يبحث عن سبل كثيرة يريد من خلالها الوصول إلى مبتغاه تدبّرا، ويكتنف هذا البحث تبعات في حالة الحصول على المبتغى؛ ويكون حسن التدبُّر موجّها للعقل ضمن دائرة المتوقّع وغير المتوقّع، فالمتوقّع يكون حافزه ليس بالكبير كونه حاصلا وحدوده يمكن تبيانها ووضع علامات لها، وتكون مدعاة للتقييم، ومن ثمَّ تكون قابلة للرصد والتحليل وللتمثّل، إلّا أنَّ غير المتوقّع تكون حدوده غير واضحة المعالم؛ فيكون الاستغراق الفكري حاضرا في إيجاد افتراضات

مستمرّة تحاول أن تجيب عن كلّ ما يُطرح، وهذا بدوره يخلق حالة من الارتدادات المعرفية التي يكون فيها التسابق حاصلا للوصول إلى كنف جديد يكون ملبّيا للمراحل المرادة، فالانزواءت غير مطلوبة، والعبثية غير مطلوبة، والتوقّف غير مطلوب، والتسليم بما هو موجود غير مطلوب، ذلك أنَّ التدبّر يمرّ دائما بحالة من الحضور المغاير ممّا يحمله على البحث عن كلّ ما يمكن أن يكون فيه الحلّ المرجو22.

تفطّين الذّاكرة:

الذّاكرة محفظة المعلومات والمعارف والمخزن الحصين الذي لا تكون مفاتيحه بيد الغير، إنّها مكمن الأسرار والصندوق الأسود للعقل البشري، الذي منه تستدعى المعلومة وفقا للطلب أو الأمر المرغوب إرادة، وهنا تكون المعلومة صادقة، أمّا إذا كان استدعاء المعلومة نتاج أفعال الكره والإجبار؛ فلا شكّ أنّها ستكون للضرورة ملبية للأمر، ولكنَّ الشكوك والظنون تحيط بها.

ولأنَّ الذّاكرة مكمن الأسرار، ومخزن المعارف والخبرات والتجارب الإنسانية، فهي قابلة لأن تُنشّط بمزيدٍ من الانتباه والدّراية من خلال عمليات التذكّر والتدبّر والتفكّر؛ فينبغي على الإنسان أنْ يفكّر عن انتباه إذا أراد أن لا تضمر ذاكرته، وعليه بتنشيط ملكات عقله من خلال المران الذّهني وإجراء عمليات المقارنة التي تمكّنه من التمييز بين

[22] عقيل حسين عقيل، الخوف وآفاق المستقبل، ص 127 . 131.

الدّقيق والأدق منه، ومن ثمّ تمكّنه من التفكير المتوقّع وغير المتوقّع ارتقاء؛ فالعقول دائما في حاجة لأن تُمرّن حتى تمتلك القوّة التي تُلفت الإنسان لنفسه، وتيسّر له مشاهدة وملاحظة الآخرين وردود أفعالهم تجاه الغير.

ومن ثمّ؛ فعلى الإنسان أن يستدعي محفظته من الذّاكرة ويخضعها للتقييم، ثمّ يقوّم حالته حتى يستبصر نفسه وما هي عليه، وما يجب أن يُغيره من أجل نفسه وأجل الآخرين.

فالإنسان إذا أراد ارتقاء فعليه أن يستوضح نفسه مثلما يحاول استيضاح أنفس الآخرين؛ حتى يتمكّن من إزاحة النقاط المظلمة فيها، وأن يتنزّه في نفسه حتى يستبصر من هو؟ وما له؟ وما عليه؟ ثمّ يعمل على التصحيح، ويتحدّى عقله تفكيرا في نفسه حتى يدرك أسرارها وخفاياها، ومن ثمّ، يعرف أنَّ قوّة البصيرة بقوّة التفكير فيها، وهي لا تضعف إلّا إذا دخلتها الغفلة وسيّرتها الشّهوة. ولهذا؛ فالفكر ارتقاء يمكّن الآخذين به من التفكير فيما يفكّرون فيه حتى يفكّروا فيما هو أحسن منه.

ولهذا؛ فتفطين الذّاكرة لا يكون إلّا نتاج الوعي بأهميتها للإنسان الذي له من الآمال ما له، وله من ورائها آمال تحدث النُقلة لكلّ مأمول نافع، فتفطين الذّاكرة ضرورة تستوجب حُسن التدبّر الذي يصنع المستقبل المشبع للحاجات المتطوّرة والمتنوّعة، ويُمكّن من بلوغ الغايات العظام التي تجعل من الإنسان قيمة مقدّرة، فينبغي الارتقاء

فكرا وعلما ومعرفة وخُلقا، وأسلوبا، وإلّا سيجد نفسه في منازل المستهلكين الذين يعيشون ليومهم عالة على جهود المنتجين والمبدعين وأهل الحُجّة والحكمة؛ فهم بهذه الأعباء يُجهدون المنتجين ويُشَدّونهم للخلف ممّا يجعل الفارق كبيرا بين الجهد المبذول من أجل بلوغ قِمم الارتقاء، والحاصل المنتج الذي تُنتجه الصّفوة العاملة والمتطلّعة أملا وارتقاء.

ومع أنَّ الذاكرة حافظة، ولكنّها قابلة لأن توسّع معرفة، وتُنشّط تذكّرا من خلال تمكّنها من معرفة الموروث المعرفي الواسع، وتنشّط تدبّرا من خلال حسن الانتباه والالتفات لما يجب وقت وجوبه، وليس بعد أن يفلت ويصبح ماضيا، كما أنّها تُنشّط بالتفكّر الذي يمّدها بالحيويّة المحفّزة على بلوغ الأمل.

ولأنَّ الإنسان يولد اجتماعيا حيث لا إمكانية للعيش منفردا، فهو في حاجة لمن يذكّره ويعلّمه كيف يتدبّر أمره وأمر من تربطه به علاقات، ومع أنّ هذه قاعدة ولكن كما يقولون: لكلّ قاعدة استثناء؛ فآدم وزوجه لم يمرّا بهذه المرحلة، وذلك بأسباب الخَلق الآدمي المتكامل، إذ لا طفولة لهما ولا مراحل نمو قبل النضج، فهما قد خُلقا على النضج خلقا، وبالتّالي ليس لهما ما يتذكّران، ولكن بعد أن علّم الله آدم وأنبأه، أصبح لديه رصيد واسع من العلم والمعرفة؛ فيُمكنه أن يتذكّره، لِيُذكّر به الغير، {قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ}23؛ فتلك الأسماء التي

[23] البقرة 33.

أصبحت في محفظة عقل آدم، وتمّ استدعاؤها، أنبأ بها الملائكة حجة؛ فسلّم الملائكة لآدم بعد إن كان الرأي اختلافا.

ولكن على المستوى البشري من بعد آدم؛ فالتّجارب الإنسانية متشابهة، ويمكن تكرارها، فيكون النّظر إلى تلك التجارب من باب البحث عن حلولٍ علّها تكون ناجعة في معالجة ما يحدث، وهنا تكون النّظرة إلى الماضي من باب البحث عن كلّ ما من شأنه أن يسهم في الوصول إلى حلّ، حتى وإن كان افتراضيا؛ لأنَّ الكثير من المشاكلّ تحتاج إلى اتكاءات جديدة تكون قادرة على حلّها؛ فيحدث الانزياح المراد ضمن توليفة يُجمع فيها في بعض الأحيان حتى النقائض التي لا يتوقّع لها أن تجتمع في يوم من الأيام.

وقد يكون الخوف حاضرا فيها، لكونه يمثّل الانطلاقة الأولى التي يكون على أساسها الوصول إلى الغايات المرجوة، فالبحث عن اتفاق وحلّ يكمن من خلفه وجود خوف يحفّز ويرشد بطريقة أو بأخرى إلى تجنّب ما يجب تجنّبه وأخذ ما يجب الأخذ به؛ فيكون الاستشعار في هذا التوجّه قائما على درجة عالية من الحذر كي تكون النّهاية ملبّية للخوف المجنّب من الوقوع في السُفلية ومؤدّيا إلى ارتقاء مأمول.

فالذاكرة محفظة المعارف والخبرات والتجارب الماضية التي يمكن الاتعاظ بها في زمن التدبّر، والوقوف عند هذه التجارب باختلافها يُعدّ وقوفا على إرث إنساني يمثل حقبة من حقب الماضي؛ فالتاريخ بتفريعاته

وارتماءاته وتنوّعه يمثّل مجموعة من التجارب الإنسانية سواء أكانت على مستوى الأفراد أم على مستوى الجماعات، وهنا يكون النّظر الحاصل منطويا على الفكرة المطلوبة، فتُصبح بعد ذلك مطلبا من المطالب التي لا يمكن الاستغناء عنها، فيكون هذا الطلب فيما بعد حاجةً ملحةً تكون حاضرة يشكلّ أو بآخر في كثير من التفصيلات التي يكون حضورها ملبّيا للبداية الافتراضية التي كانت السبب في هذا الحضور.

إنَّ استدعاء الذكرة للماضي فيه من الترابط ما يجعل التجارب الإنسانية تسير وفق نسق واحد بالرّغم من العقبات التي يمكن أن تحدث؛ فالتفاعل من خلال كلّ المديات الحاصلة يمثل هذا الترابط، ممّا يجعل البحث الدائم متحقِّقا في كلّ زوايا الماضي، ذلك أنَّ الماضي فيه من التحقّق ما يمنح الحياة الآنية والمستقبلية حلولا مهمة، إلاّ أنَّنا لا نعتقد بالتكرار المتطابق في الحياة كون الظروف مختلفة أو غير متماثلة؛ فيكون الاختزال في بعض القضايا متحققا بدرجة بعيدة ممّا يسمح بظهور مديات واضحة يُطرح من خلالها هذا التفاوت؛ فتكون الصّورة المطلوبة في كثير من الأحيان غير مكتملة الأركان ضمن التشكيل المطلوب، وهذا يكون في حالة طلب الماضي ودمجه مع توجّهات الحاضر من أجل الوصول إلى إعادة تفعيل متشابهة تُمكّن الذاكرة وعيا ويقظة.

وفي الذّاكرة يكتنف الماضي الكثير من التشكيلات التي يكون الوصول إليها يمثّل قراءة واعية بما أسبغه عليها من طروحات، ولهذا نجد

يوما بعد يوم ظهور تأويلات مختلفة للماضي وقد تكون متناقضة، لكن هذا يدلل على وجود حيّز كبير في الامتداد الفكري الذي يجوب أروقة الماضي ويقف عند محطاته الشّاخصة التي تكون فيما بعد دروسا يستفيد منها من يبحث عن حلّ لما يمرّ به الإنسان، ولهذا وجب العمل على تفطين الذّاكرة من خلال تمرينها تدبّرا، وتنشيطها تذكّرا وتفكّرا.

ومع أنَّ للذاكرة علاقة بالتّاريخ من حيث إنّها محفظة أحداثه وقضاياه، ولكن التّاريخ دائما وما يحتويه من أحداث فيها من التشابه ما فيها، وفيها من الاختلاف ما فيها، وفيها من المتوقّع وما لم يكن متوقّعا، ونتيجة لما تحمله الذّاكرة من متناقضات تاريخية؛ فهي دائما في حاجة للتفطين والتنشيط حتى لا تُفقد العلوم والمعارف والخبرات والتجارب والعبر والمواعظ24.

مرحلة تطوّر الفِكَر:

تعدّ الفِكَر من إنتاج العقل، ويعدّ الفِكْر من إعماله؛ ولأنّ الفِكَر هي مجموع الفكرة؛ فهي على الكثرة التي في حاجة لأن تصنّف بين ما يؤدّي إلى الارتقاء، وما يؤدّي إلى الانحدار؛ ذلك لأنَّ الإنسان سواء أكان هو مصدر الفكرة، أم متلقيها؛ فهو المخيّر قبولا، أو رفضا، أو حيادا.

[24] عقيل حسين عقيل، الخوف وآفاق المستقبل، ص 124 . 127.

ولأنّ الإنسان مخيّر، فيما هو ليس بمستحيلٍ؛ فهو يفكّر كما يشاء، دون أن يتجاوز الحقائق والشّواهد الدّالة على الوجود، سواء أكان وجودا مستحيلا، أم معجزا أم ممكنا؛ فالإنسان لا ينبغي أن يغفل عمّا يمكّنه من تطوير فِكْره، بغاية تنشيط إعمال فكره؛ ليكون عقله متهيأ ومتأهبا للاستنباط من المجرد والمعجز، والاستقراء من المشاهد والملاحظ، وهذه من صفات العقل المتدبّر أمره. كما أنّه لا ينبغي أن يغفل عمّا يمكّنه من تطوير فِكَره (مجموع الفكرة) أي: لا ينبغي أن يتوقّف عند حدود إنتاج الفكرة، بل ينبغي أن يتجاوز ذلك إلى ما يمكّنه من تطوير الفكرة بالفكرة حتى يبلغ تطوير ما بلغه من فِكَر. ولهذا، فالفِكْر، هو: إعمال العقل، أما الفِكَر: فهي إنتاج العقل.

ومع أنَّ الإنسان خُلق على التّسيير فيما لا طاقة له به، لكنّه كذلك خُلق على التخيير فيما لا تسيير فيه؛ فهو بالنّسبة إلى المستحيل والمعجز مسيّر، أمّا بالنّسبة إلى دائرة الممكن؛ فهو مخيّر بين متوقّع وغير متوقّع وفقا للإرادة والمقدرة.

فبمرور الزّمن كان التكاثر البشري بين اختلاف وخلاف حتى أصبحت الهوة بين النّاس تتسع صداما ونزاعا واقتتالا؛ فبعث الله الأنبياء والرُّسُل مبشّرين، ومنذرين، ومحرّضين، وداعين للكلمة السّواء، ومع ذلك كفر من كفر، وأشرك من أشرك، وآمن من آمن، ومن هنا، اتخذ الاختلاف والخلاف أوجها جديدة بين من يؤمن بالله، ومن يكفر به أو يشرك، حتى وُصف هذا الصّراع بأنّه الصراع بين: (الخير والشّر).

ولسائل أن يسأل:

هل الخلاف والاختلاف نتاج تفكير بشري أم أنّ الإنسان مجعول عليه جعلا؟

أقول:

الخلاف لا يكون إلّا من بناة الفكر البشري، كونه لا يكون إلّا نتاج الخصام على المشبع للحاجة، أو الملبي للشهوة، وهو نتاج الرّغبة الشخصانية أو الذاتية التي تتمدّد على حساب رغبة البعض وعلى حسب ممارستهم حقوقهم وأدائهم واجباتهم وحملهم مسؤولياتهم؛ فيكون الإكراه والقهر وحتى القتل أساليب من أساليبها.

أمّا الاختلاف كونه تنوّع فقد جُعل الإنسان عليه جعلا وفقا لمشيئة الرّب، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}25.

ولأنَّ الرّب جعل النّاس مختلفين خَلقا؛ فهو بلا شكّ يريدهم على الاختلاف بقاء إلى النّهاية، ولذلك سيظلون على الاختلاف حتى النّهاية، ولا إمكانية لتبديل خلق الله، {فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ}26.

---

[25] هود 118 ، 119.

[26] الرّوم 30.

ولأنَّ النّاس مجبولون على الاختلاف فطرة، فهل الرّبّ يجعل خلقه على ما يسيء لِفطرة صُنعهِ؟

أقول:

لو أنّ الله خلق النّاس بلا اختلاف، لكانوا على الكمال، وهذه من صفة الله وحده، أي: لو لم يُخلقوا على الاختلاف ما كان أحد في حاجة للآخر، ولولا الاختلاف ما كان التنوّع مغريا، ولو لم يكونوا مختلفين ما كان للأمومة معنى، وللأبوة معنى، ولا للأخوة والعمومة والغير معنى، وهكذا، ليس الذّكر كالأنثى؛ ولأنّهما كذلك كان للمودّة دلالة ومعنى، ولهذا، كان الاختلاف بين النّاس رحمة؛ فينبغي أن يسود بينهم رحمة.

إذا، لو لم يكن الاختلاف فطرة بين النّاس ما كان العقل متدبّرا؛ فالاختلاف خلقا هو أساس الوحدة بين النّاس، وأساس التذكّر والتدبّر والتفكّر، أي: لو لم يكن النّاس مختلفين لكانوا آحادا، وليسوا أزواجا، وجماعات، وشعوبا.

ولهذا؛ فلاختلاف ارتقاء لا تضاد فيه، لكونه الاعتراف بالخصوصية (أنا وأنت)؛ فاللون الأسود لا يكون ضدّ اللون الأبيض، وما الاختلاف بين الألوان إلّا زيادة الجمال جمالا؛ فالألوان مع أنّها تتعدّد جمالا، ولكنّها عندما تُنسج بساطا تلاحظ أنّها أرقى بكثير عمّا كانت عليه قبل أن تُنسج في وحدة من الجمال.

والإنسان لكونه خُلق في أحسن تقويم؛ فهو بدون شكّ إنسان واحد، ولكنّه لم يكن نوعا واحدا (ذكرا وأنثى)، ولم تكن قدراته وظروفه ومعارفه متساوية؛ فالاختلاف تنوّع ألوان، وأشكال، وأراء، ومعارف، ومع ذلك؛ فالتّشابه والتّماثل ارتقاء لا ينقطع؛ فالنّاس من بعد الرّسل لو شاء الله ما اقتتلوا، ولكن لأنّهم خُلقوا على الاختلاف، اختلفوا ثمّ تخالفوا على ما جاءت به الرّسل، فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ ارتقاء، وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ سُفلية. ولو لم يختلف النّاس بما اختلفوا فيه لكانت الحياة ذات وجه واحد، وطعم واحد، ولون واحد، ورؤية واحدة؛ وهذا الأمر يجعل الحياة مُملّة وكأنّها بلا مستفزّات، وبلا مغريات، وبلا طموحات، وبلا منافسة، وبلا أمل (حياة لا تشدّ الرّغبة إليها).

أمّا الخلاف فيسود بين النّاس عندما يرى كلّ طرف منهم أنّه صاحب الحقّ الوافر، وغيره لا حقّ له، أو ليس له إلّا حقّا منقوصا؛ فتُرفع الأصوات على الأصوات وكأنّ الأطراف المتخاصمة لا تعرف أنّ الحقّ دائما أعلى من أيّ صوت، ولأنّه كذلك؛ فلا داعي لرفعه، ولذا؛ فاترك الحقّ يعلو ارتقاء على كلّ شيء بما فيه صوتك، وإن كان خصمك على حقّ؛ فلا ترفع صوتك عليه، وإن رفعته؛ فلا تستغرب أن يأتي اليوم الذي تُلجمك فيه الحُجّة، ويكون صوته بين النّاس وعلى الملأ أكثر منك حجّة وارتقاء.

ومن ثمّ؛ فالخلاف لا يكون إلّا بما تعمل أيدي النّاس، أمّا الاختلاف فالنّاس مفطورون عليه خَلقا، {فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ

عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ}27. ولذلك؛ فالاختلاف رحمة، أمّا الخلاف فنقمة، لا ينبغي الالتجاء إليه إلّا من أجل ما يرسّخ قيمة الإنسان وكرامته وسلامة حياته ومعتقده وحرّيّته.

ومن ثمّ؛ فالخلاف مع المخالف لما يجب يعدّ ارتقاء، والخلاف معه على ما لا يجب يعدُّ انحدارا؛ فالإنسان مع أنّه خُلق في أحسن تقويم إلّا أنَّه إذا لم يفكّر فيما يفكِّر فيه قبل أن يحدث، قد يجد نفسه في دائرة الممكن في مواجهة مع غير المتوقّع، ومع ذلك ليس له بدّ إلّا أن يفكّر حتى يعرف من جديد كيف يفكّر ارتقاء، وإلّا ليس له إلّا الانحدار الذي تكمن فيه معطيات الألم.

فالتفكير ارتقاء يُحدث النُقلة المأمولة تقدّما، وما دونه يجعل الفكرة غير فاعلة، والتفكير غير مُفعَّل.

ولأنّ العلاقة متداخلة بين التفكير والفكرة؛ فمن الصّعوبة تناول أحدهما بمنعزلٍ عن الآخر؛ فالتفكير يولِّد الفِكّرة التي متى ما كانت راقية أضافت معارف جديدة نافعة، ومتى ما كانت على غير ذلك، تؤدّي إلى ما يترتّب عليه فراقا وألما.

ولذا؛ فمن لا يفكّر في مستقبله مع المختلفين عنه، لا يمكن له أن يسعى لتأمينه، ومن لم يفكّر في صناعة مستقبل أفضل، لن يجد لنفسه مكانة يتبوّؤها بين النّاس، ولن يكون له مستقبل مقدّر، بل قد

---

[27] الروم 30.

يجد نفسه على الرّصيف متسوّلا، أو سجينا بين الجدران بأسباب فقدانه مشبعات الحاجة المتطوّرة، وعدم معرفته كيف يفكّر تعاونا مع المختلفين، فينبغي أن يفكّر فيما يفكّر فيه قبل أن يقرّر، وعليه ألا يغفل عن اختلاف الغير عنه، وأن يعلم أنّه مثلما هو مخيّر هم مخيّرون، {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[28].

وبما أنَّ الإنسان قد خُلق مخيّرا؛ فلا استغراب من الاختلاف، بل الاستغراب ألا يكون مختلفا، فالنّاس بطبيعتهم يرضون عن تخييرهم، ولكن البعض صدورهم من الاختلاف تضيق، وهنا تكمن العلّة التي لا تتمشّى مع الفطرة التي خُلق الإنسان عليها مخيّرا بين اختلاف وخلاف، وهكذا هي الحياة جدل من بعده جدل.

تطوّر الفِكَر جدلا وحجّة:

مع أنَّ الإنسان خُلق من طين، لكنّه خُلق معدّا للتفكير؛ فكانت الفكرة نتاج عقله ومن إعماله، وأوّل فكرة كانت هي من عقل أوّل من خُلق في أحسن تقويم، (آدم) ثمّ تعدّدت الفِكَر بتعدّد البشرية وبتعدّد ما تفكّر فيه، ولهذا أصبحت فِكَرا بعد أن كانت فكرة. أي: في هذا المسار الأمر يتعلّق بالفكرة التي أصبحت بتكاثرها فِكَرا، ولكن هذا لا يعني أنّ الأمر لا يتعلّق بالفِكْرِ الذي هو مكمن التفكير؛ فالفِكْرُ من

[28] الكهف 29.

معطيات العقل، وفي المقابل الفكرة لا تكون إلّا من التفكير وإنتاج العقل، وفيما يُفكَّر فيه. ولذلك، يؤسّس التطوّر على قاعدتين:

الأوّلى: تطوير الفِكْرِ بما يمكّن الإنسان من التفكير، وهو يُفكّر فيما يُفكّر فيه قبل أن يتّخذ القرار تجاه ما فكّر فيه بداية حتى يُحسم الأمر تطوّرا.

الثانية: تطوير الفكرة بفكرة أكثر ارتقاء، حتى تتولّد الرّؤى المتجاوزة للمألوف والمعتاد التفكير فيه.

وعلى هاتين القاعدتين تطوّرت رؤى البشريّة وهي على التخيير بين اختلاف وخلاف، ولا حاسم للأمر إلّا المحاجّة والمجادلة، أي: لا حاسم للأمر إلّا الالتقاء الذي فيه تُدحض الحُجّة بالحُجّة، وحتى إن امتلأت الحجج والجدل شدّة، لكنّ الشدّة الجدلية ضرورة؛ فهي لا تكون إلّا من أجل الحرص، وهي كذلك، لا تكون إلّا بغرض التسوية لما سلف من انحدار وسُفلية، وهي بغاية الارتقاء عن كلّ ما يؤدّي للفرقة والخصام. ولهذا؛ فمن أجل التطوّر والارتقاء لا يجادلك إلّا من هو حريص عليك، ويأمل ألا تظل مغيبا عن ممارسة وتأدية ما يجب أن يكون من أجلك وأجل من تربطك به علاقات.

إنَّ أصحاب الحُجج تطوّرا يسعون إلى إحداث النُقلة، والارتقاء بالنّاس إلى ما يجعلهم قمّة، وفي المقابل من يخالفهم بغير حُجّة يشدّ إلى الخلف إعاقة، وبين هذا وذاك؛ فلا استقرار، ولا أمن، ولا ارتقاء ولا

تطوّر لأحد ما لم يؤخذ بالحُجّة ارتقاء واستيعابا، ولا استثناء لأحد بأيّة علّة، إلّا إذا كان أحد علّة في ذاته، ولا استغراب من هذا الأمر، حيث لكلّ قاعدة شواذ، ومع ذلك، الحجّة الجدباء لا تصمد أمام الحجّة الحلّ التي تعلو بأصحابها تطوّرا وارتقاء إلى ما يمكّن من المعرفة، التي بها سترتق الأرض والسّماوات كما كانت أوّل مرّة.

ولأنّ المجادلة تطوّر وارتقاء؛ فهي لا تكون إلّا بالتي هي أحسن، {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}29؛ أي: لا ينبغي أن تكون المجادلة بالتي هي أسوء؛ فالأسواء لا يقود إلّا للخلاف والصّدام والاقتتال، ومن هنا، يلد الألم ألما.

وحتى لا يسود الألم بين النّاس، ينبغي الأخذ بمبدأ المجادلة حرصا وتطوّرا وارتقاء، ويجب أن تبدأ المجادلة مع المختلفين من حيث هم عليه اختلافا، لا من حيث ما يجب أن يكونوا عليه اتفاقا؛ فما ينبغي أن يكونوا عليه اتفاقا هو المأمول الذي من أجله تجري المجادلة بالتي هي أحسن، أمّا المجادلة غِلظة؛ فلا تكون إلّا مع من يستغلظ على الحقّ بغير حقّ، وهنا، يصبح المستثنى من جنس المستثنى منه (غلظة بغلظة) ومع ذلك؛ فللعفو والصّفح مكانة لا يبلغها إلّا من تدبّر أمره حكمة.

[29] العنكبوت 46.

ولأنّ الجدل بالتي هي أحسن وسيلة للارتقاء؛ فينبغي أن تكون أساليبه على الترغيب والتشويق والنّهي والرّهبة والتحذير والإنذار مع مراعاة الفروق الفردية بين المجادلين ارتقاء؛ ففي الجدل الرّسائل تُرسل بين المجادلين لكلٍّ حسب ما هو عليه من معرفةٍ، وثقافةٍ، ومعتقدٍ، ومنطقٍ، مع عدم الإغفال عن أهمية الحكمة في إدارة الجدل؛ فالإنسان مع أنّه خُلق من نطفة، ولكنّه خصيم، ولهذا؛ فهو مجادل، ولأنّه كذلك؛ فمن حقّه أن يجادل، ولكن حرصا وتطوّرا وارتقاء ينبغي أن يجادل بالتي هي أحسن؛ فهو كلّما جادل بالتي هي أحسن، كسب قلوب النّاس، وفي المقابل متى ما استغلظ عليهم استغلظت قلوبهم عليه.

ولذلك؛ فالجدل تطوّرا وارتقاء لا ينفصل عن الحُجّة، مع أنّ الحُجّة أساسا هي معلومة مستقلّة بذاتها، وستظل إلى أن تُستخدم أو تُوظّف جدلا، بما يقرّ حقّا أو يؤدّي واجبا، أو يُمكّن من حمْل مسؤولية، ومن ثمّ، فالحُجّة تُفحِم أو تُلزِم من كان على غير حُجّة حتى يُغيّر ما بنفسه، ومن هنا، تلد الموعظة والعبرة ارتقاء. وفي المقابل الجدل غِلظة يدخل المجادلين في حلقة الصّدام الذي كلّما انتهى بدأ.

ولأنّ الجدل بالتي هي أحسن جدل حُجّة؛ فينبغي أن يكون على اللين مع تبيان الدّليل والبرهان شاهدا بين أيدي المتخالفين، ولنا في إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام القدوة الحسنة حينما جادل أباه آزر وهو يخاطبه بقوله، {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي

أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا}30، فقوله وهو يجادله رأفة وودّا: (يَا أَبَتِ) وهو يكررها مرات (يَا أَبَتِ)، هي: بهدف صحوة أبيه آزر من الغفلة التي ألمت به، والجهل الذي استحوذ على عقله، وبخاصّة أنّ إبراهيم لم يخف علمه وحرصه ومحبّته له، ولذلك؛ كان ارتقاء إبراهيم مؤسّسا على عدم الإكراه؛ فالإكراه هو: حجّة من ليس له حُجّة، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}31.

ولأنّه الجدل ارتقاء؛ فهو لا يكون إلّا عن صبر، وسعة صدر، بهدف استيعاب المختلفين، وأخذ الحجر من أيديهم التي به امتلأت، ولذا، ينبغي أن يمتلك المجادل المقدرة على استجلاب الدّلائل والبراهين؛ لإثبات قضيّته، وفكّ القيد عنها، مع فكّ اللبس والغموض عمّا يستخدمه من مفاهيم؛ وفي هذا الشأن أتذكّر تلك المجادلة التي جرت بين النبي إبراهيم ومن حاجّه في ربّه، {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ}32؛ فاللبس في ذهن من جادل إبراهيم في ربّه كان متعلّقا بمفهوم الإحياء والإماتة؛ فإبراهيم قال: (رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ)

---

[30] مريم 42 . 45.

[31] يونس 99.

[32] البقرة 250.

وفي المقابل كان قول المجادل له: (أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ). واللبس هو: أنّ إبراهيم يجادل بحجّة من يحيي ويميت، وفي المقابل فهم المجادل، أن الإماتة هي القتل، ولهذا، أجابه بقوله: (أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ) أي: وكأنّه يقول: إذا أردت أن أقتل أحدا، قتله، وإذا أردت عدم قتله تركته حيّا. ولكنّ الفرق كبير بين القتل الذي يكون على أيدي المتقاتلين أو القتلة، والموت الذي لا يكون إلّا بيد الله.

ومن ثمّ؛ فالحُجّة يمكن أن تكون مُعجزة تفحم المجادل بغير حُجّة، {قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ}33، وفي المقابل يمكن أن تكون حلّا، ويمكن أن تكون موعظة، ويمكن أن تكون عبرة، ويمكن أن تكون دليلا ملاحظا أو مشاهدا (قولا وعملا وفعلا وسلوكا) {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا}34.

وعليه:

فالجدل تطوّرا هو ما ليس بتفاوض؛ بل هو: التوجُّه للنّاس بالحُجّة تطوّرا وارتقاء، وهي الحُجّة التي لا تقبل التنازلات، ذلك لأنَّ الحُجّة ينبغي أن يؤخذ بها، أمّا التفاوض؛ فلا ينتهي إلّا بتقديم التنازل الذي من ورائه تنازلات.

---

[33] البقرة 158.

[34] يوسف 26.

ولذلك؛ فالمجادلة تطوّرا وارتقاء فيها مكابدة وعُسرة، وهي في معظم الأحيان تستدعي تقديم المزيد من الحُجج الدّامغة التي لا تستفز أحدا، وبتقديم المزيد من الحجج ينبغي أن ينبهر الخصم بما يجذبه إلى الحقّ حُجّة بعد حُجّة.

ولذا؛ فالصّبر حُجّة المتجادلين؛ فعليهم به دون استرخاء؛ ولا داعي للقلق حتى وإن كانت الاستفزازات من ورائه، بل كلّما طال زمن التجادل والصّبر لم يفارق المتجادلين حُجّة بحُجّة اختنقت أنفاس من لا حُجة له.

ومن ثمّ؛ ففي المجادلة إصرار، وعدم إعطاء الفرصة لمن يريد أن ينهي الجدل قبل الوصول إلى نتائج مقنعة، أمَّا الحوار فقد لا تكون فيه مكابدة، والمتجادلون عندما يفقدون قواعد الرّكون إلى المحاجّة المنطقية، قد يضطرون إلى الخصام الذي لا طائل من ورائه إلّا الخلاف والفرقة. ومن هنا، يصبح كلّ شيء ممكن سواء أكان متوقّعا أم غير متوقّع.

ولذا؛ فعندما تغيّب الحُجّة بين المتجادلين ارتقاء، يصبح المجال بينهم مفسوحا للخصام والاقتتال، ومن ثمّ؛ فالجدل وما فيه من شدّة؛ هو منطق السّلام، الذي إن لم يؤخذ به، قد تصبح مصارف الدّم بين النّاس في حاجة للمزيد.

ومن هنا؛ فالمحاجّة تطوّرا وارتقاء ليست نقاشا بلا دراية، ولا مفاوضات بلا خبرة ولا مهارة، بل المحاجّة تحاور يتكئ على حُجج بيّنة

بغرض تنقية الشوائب التي نُسجت بين المتخالفين أو المختلفين، الذين يميلون عن صائبة المطلب والقول بعلل فيها علّة.

ومع أنّ الإنسان ارتقاء قد خُلق في أحسن تقويم، لكنّه خُلق ليجد نفسه بين قيم حميدة وفضائل خيّرة، وبين استفزاز الحاجات المتطوّرة في مقابل قصور مشبعاتها؛ ممّا يدعوه إلى قبول التكيّف بتنازلات، أو أن ينتظر زمن التوافق الذي قد يطول ويجعله على غير أملٍ.

ومع أنّ الإنسان خُلق على الارتقاء مقوّما، لكنّه لم يُخلق نسخة واحدة وكأنّه أوراق سحب، بل لكلّ خصوصيته التي بها يتميّز عن غيره كما غيره يتميّز عنه؛ فالنّاس مختلفون، ولكلّ بصمته الخاصّة التي لا تتكرّر، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}35؛ فما أعظم هذه الآية (وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)، أي: مع أنّهم من نفس واحدة ولكنّهم لا يتطابقون، وإن تماثلوا صفة؛ فهم مختلفون بصمة ومقدرة وتذكّرا وتدبّرا وتفكّرا، ولهذا؛ فهم يختلفون، وسيظلون مختلفين (وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)، أي: أنّهم خُلقوا على الاختلاف الذي جعلهم في حاجة لحشد الطّاقات حيث لا إمكانية للتطوّر والبقاء بغير الاختلاف.

---

[35] هود 118، 119.

ولأنّهم خلقوا على الاختلاف؛ فهم في حاجة لِما يجمع شملهم متى ما اختلفوا، أو تخالفوا؛ فالمحاجّة والجدل جهود تُبذل لإظهار الحقّيقة التي لا تكون إلّا بامتلاك السّند الذي يَحتكم به ويُحتكم إليه، ومع ذلك تختلف المجادلة عن المحاجة من حيث كون المجادلة تتمركز على التمسّك بالحُجّة دون تفريط ولا يأس ولا قنوط، أمّا المحاجّة فالأمر يقتصر على تقديم الحُجّة؛ لتكون شاهدة على القضية، ولمن شاء أن يحكم بها عدلا؛ فليحكم.

الفِكَر تلد حلّا:

الفكرة كونها من إنتاج العقل، لا تستمدّ إلّا من واقع هو في حاجة لأن يُطوّر، أي: معظم الفِكَر هي نتاج استشعار معضلة تستوجب حلّا، ومتى ما بلغ الإنسان حلّا اكتشف معضلة أخرى تلفت عقله وتستثيره تفكيرا بغاية بلوغ الحلّ فيفكّر تدبّرا حتى يقتنص لها حلّا من خلال بحث يتّضح فيه أثر المتغيّرات المستقلّة والمتداخلة في كلّ معضلة، ولهذا؛ كلّما ازداد عدد المشاكل والمعضلات الحياتية تولّدت الفِكَر، وهذا يعني: وجود علاقة واسعة بين تعدّد المعضلات الحياتية، وعدد الفِكَر المتولّدة في عقل الإنسان تطوّرا.

فالإنسان بداية لم يكن على الفكرة، بل كان على الفطرة والتقليد، ثمّ الإنباء، ولهذا، تعدّ الفكرة لاحقة لِما سبق، والإنسان ليس بمولودها؛ فهو المخلوق الذي لا إرادة له في خلقه، ولا تخيير له في ثنائية

وجوده. بل التخيير كان بأسباب الاختلاف الذي خُلق عليه جنسا ونوعا، ولهذا، الإنس غير الملائكة والجن، وكذلك الذّكر غير الأنثى، والرّجل غير بقية الرّجال، والأنثى غير بقية الإناث، وهكذا كان الاختلاف بين الأجناس والأنواع، ولكلّ بصمته التي تعطيه خصوصية تجعله مختلفا عن خصوصيات الغير.

ولأنّ الإنسان في دائرة الممكن خُلق مخيّرا؛ فهو يفكّر فيما يشاء كيفما يشاء ومتى يشاء، وهو يقبل ويرفض، ويخطئ ويصيب؛ وبإمكانه أن يتطوّر ارتقاء، أو أن يتخلّف وينحدر دونية. ولأنّه مخيّر؛ فله من المشيئة في دائرة الممكن ما له؛ فهو يؤمن ويكفر ويشرك كما يشاء، ذلك لأنَّ كلّ شيء في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع هو بين يديه إرادة.

ومع أنّ الإنسان مخيّر، لكنّه لم يترك هكذا وكأنّه بلا قيود؛ فهو المعرّض للاختبار من قِبل من خَلقه في دائرة الممكن مخيّرا. وأوّل اختبار آدمي هو ما فشل فيه آدم نفسه، يوم أن أغواه الشّيطان وزوجه وزيّن لهما الأكل من تلك الشّجرة، {قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}[36]، أي: في ذلك اليوم كانت المواجهة بين العقل والشّهوة، فتغلّبت الشّهوة على العقل الذي لم يستدع قوّته في حينها؛ فارتكب آدم فعل المعصية، التي مازالت ترتكب

[36] طه 120 ، 121.

إلى يومنا هذا شهوة ورغبة وغفلة، {قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}37؛ فهبط الأعداء على الأرض دونيّة. ولأنّهم الأعداء؛ فهل يمكن أن تكون حياتهم على المحبّة ولا شيء غيرها؟

أقول:

كلّ شيء في دائرة النّسبية هو بين متوقّع وغير متوقّع، ولهذا؛ فالقلب الواحد يحمل في سويداءه المتناقضات (حبّ وكره) ولكلّ مستفزّاته وعِلله، ولا استغراب أن تحدث المفاجآت في الزّمان والمكان غير المتوقّعين؛ فهذه من طبيعة خلق الإنسان الذي خُلق مسيرا ومخيّرا في ذات الوقت؛ ولأنّه كذلك؛ فلا بدّ وأن يكون على التخيير بين متوقّع وغير متوقّع ولا استغراب.

ولأنّ بني آدم مخيّرون؛ فقد اختار بعضهم المعصية كما اختارها أبوهم من قبلهم، غير أنّ أباهم استغفر لذنبه؛ فتاب الله عليه، ولكنّ بعض الأبناء لم يستغفروا عن ذنوبهم؛ فأضافوا إلى ما هم عليه من ذنوب ما أضافوا.

ومن هنا، كانت بداية الخلاف والصّراع والاقتتال بين بني آدم بما تثيره الشّهوة والرّغبة تحت مظلة الغفلة، ثمّ أخذ الخلاف والصّراع منحى دينيا بين من يأخذ بالنّبأ والرّسالة، ومن يكفر بهما. وهكذا ظل العداء بين بني آدم وكأنّ العداء قد خُلق معهم على الفطرة والتقليد،

---

37 طه 123.

وهكذا ظلّ القتل من بعد تلك الحادثة (قَتلُ ابن آدم لأخيه)، وكأنّ الأنبياء والرّسُل لم يبعثوا بعد.

وما يُلفت النّظر هنا، أنّ الذي قُتل من بني آدم هو من اتّقى ربّه هداية ومخافة، ممّا جعل البقاء لمن لم يتقه بما عملت يداه، ومن هنا، أصبحت كفّة المغالبة راجحة تجاه (بني من قتل أخاه ظلما)، ولهذا، {أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ}38، ولكن لو كُتِبَ البقاء للذي اتّقى ربّه في نفسه وأخيه؛ لكان الأمر في دائرة المتوقّع غير ذلك، ومن ثمّ، اتسعت دائرة العصاة بقتل المسالم وبقاء الظالم، وظلت الفتنة على التكاثر مع تكاثر بني آدم إلى يومنا هذا، وحتى النّهاية. أي: لا يمكن أن يقف الاقتتال، والمفسدون والمخالفون والعصاة والمجرمون في الأرض هم الذين أهبط بهم والأرض أرضا.

ولهذا؛ فالفساد في الأرض كَثُر بما عملته أيدي النّاس، ومع ذلك لم يبق الفساد على حاله؛ فبعث الله نوحا نبيا لينذر قومه الذين أفسدوا في الأرض، {فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ}39، ومع أنّه لبث فيهم هذه السّنين، ولكنّ أكثرهم ظلوا ضالين، إلى أن صدر حكم الله عليهم غرقا، وهو غرق من لم يتّعظ ولا يعتبر ولا يهتدي للتي هي أحسن؛ فغرقت تلك البقعة من الأرض بمن عليها خلافا، إلّا المؤمنين بما جاء به نوح من عند ربّه،

---

[38] الأنعام 111.

[39] العنكبوت 14.

كُتبت لهم النّجاة على ظهر سفينة النّجاة، التي حُمِلَ فيها من كلّ زوجين اثنين {قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ}40.

إنّها بداية حقبة جديدة لنشوء مجتمع إنساني جديد، كلّه على الهداية والإيمان؛ فكان البقاء للحقّ، ولا وجود للباطل، ولكن يظل للتخيير والاختلاف والإرادة والرّغبة والشهّوة أدور مؤثرة على الفعل والعمل والسّلوك البشري؛ ممّا يجعل بني آدم بين تطوّر وارتقاء، وبين سُفلية ودونية، ومن ثمّ؛ فإذا كان الإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، لم يستطع البقاء على حُسن تقويمه اختيارا، {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}41؛ فكيف بمن خُلق من نطفة من زوجين مختلفين؟

ولذلك، حصلت الانتكاسة من بعد نوح والطّوفان؛ فأصبحت الكثرة على الضّلال والقلّة على الإيمان؛ فبعث الله إبراهيم ومن بعده الأنبياء تترى، من أجل الهداية والإصلاح وبلوغ الحلّ فيما هم فيه مختلفون، {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ}42.

ومن هنا، أصبحت الشرائع بين النّاس تنظّم العلاقات الإنسانية على الفضائل الخيّرة المستمدّة من الأديان، سواء أكان النّاس مؤمنين،

---

[40] هود 40.

[41] طه 121.

[42] المؤمنون 44.

أم غير ذلك، وذلك وفقا لقاعدة قوله تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}43. أي: أصبحت الأديان هي المصدر الأوّل لتنظيم العلاقات بين الأمم والشّعوب، فهي قد لفتت النّاس إلى آيات الخالق في كونه وفي المعجزات التي بعث بها رُسُله؛ فكان الجدل حجّة بحجّة، حتى وُلدت الفلسفة في عقول النّاس بحثا عن الحقيقة المجرّدة. ولا شيء في دائرة الممكن يعيق العقل عن البحث والتقصي بما أنّ العقل قادر على الإعمال فكرا.

العمل تفكير:

التفكير جهد يبذل دون أن يشاهد، ذلك لأنّه عمل داخلي، (التفكير في مملكته) أي: في الحيز الذي تتولّد منه الأفكار ويُحسن التدبّر، ومن هنا، فالتفكير عمل؛ لأنّه نتاج الحيوية التدبّرية التي تستقرئ المشاهد وتفكّر في كيفية وجوده، حتى يتم التبيّن المعرفي المنقذ من التأزّم.

فالتفكير عمل يمكّن المفكرين من معرفة ما يؤدّي إلى الارتقاء رفعة عن كلّ ما يؤدّي بأصحابه إلى السُفلية والدّونية، وهو الأخذ بالقيم الحميدة والفضائل الخيرة مع وافر التقدير والاحترام للأفراد والجماعات والمجتمعات والحضارات والثقافات، والأديان، كما أنّه الممكّن من التوافق والاندماج الذي فيه الإنسان قيمة في ذاته؛ فلا يهان

[43] البقرة 256.

ولا يقلل من شأنه ولا يحرم من ممارسة حقوقه وأداء واجباته وحمْل مسؤولياته. والارتقاء قد يكون بأسباب العلم والثقافة وحسن المعرفة وقد يكون نتاج التربية وتهذيب السلوك ومخافة الله.

ولأنّ العمل ارتقاء هو نتاج التفكّر إذن لا عمل بلا تفكير، أي: لو لم يكن التفكير سابق على العمل ما كان العمل منتجا؛ فالعمل على صفتين:

الأولى: أنّ التفكير عمل في ذاته، كونه الجهد الذي يبذل عقليا حتى ينتج فكرة قابلة لأن تتجسد في عمل يسلك من قبل الغير (الذين لم ينتجوه فكرا).

الثانية: أنّ العمل وظيفة يمكن أن يمارس، (يمكن القيام به على أيدي العاملين) المنفّذين للفكرة عملا.

فالعمل كونه نتاج الفكرة فهو بين كيفية وكميّة: كيفية من حيث الجودة، وكمية من حيث ما يشبع دون أن يكون هناك نقص.

إذن: العمل تفكير يستوجب جهدا يبذل مع خالص النيّة، أي: لا عمل ولا إنتاج إلّا والجهد يبذل، والجهد هنا قد يكون فكريا وقد يكون عضليا وقد يكون فنيّا (خبرة ومهارة) وهذه من مجوّدات العمل ارتقاء؛ فلا ينبغي الإغفال عنها وعن أهميّتها وعن أدوار أصحابها. أي: يجب أن تقدّر تقديرا عاليا من حيث الحوافز والدّوافع

وكلّ ما من شأنه يشجّع على المزيد أو يشجّع آخرين ليلتحقوا بخانة المبدعين المهرة.

العمل تفكير مسؤولية لا يحملها إلّا من هو على دراية ومعرفة بما له وما عليه، أي: معرفة بما يجب ويتّبع، وما لا يجب ويجنّب أو يبتعد عنه، مع معرفة وافية بقوانين وتشريعات العمل والمهنة والوظيفة وحمْل المسؤولية حتى وإن كانت عبئا جسيما.

وعليه:

. العمل تفكير لا يكون إلّا عن وعي ومعرفة ومسؤولية.

. العمل تفكير لا يكون إلّا والأمل لا يفارق عقول المنتجين.

. العمل تفكير يحقّق الرّفعة الذّوقية.

. العمل تفكير يُحدث النُقلة إلى الأجود والأنفع والأفيد.

. العمل تفكير احترام للمهنة.

. العمل تفكير حقّ ينبغي أن يمارس.

. العمل تفكير واجب ينبغي أن يؤدّى.

. العمل تفكير مسؤولية يجب أن تُحمْل.

. العمل تفكير حُسن تدبّر ينبغي أن يقدّر.

. العمل تفكير نتاج تفكّر فيما يجب وأدائه مهنيّا.

. العمل تفكير تجاوز للكسل والاتكالية والطمع.

. العمل تفكير حسن أداء وجودة إنتاج.

إذن: العمل تفكير هو الارتقاء رفعة وتقدّم تجاه ما هو أفضل وأجود وأنفع، ولا يكون الارتقاء إلّا ببذل الجهد وعن دراية مع سابق تخطيط وفقا للإمكانات الممكنة، ومن ثمّ فلا إمكانية للتقدّم ما لم تتوافر معطياته من بحث علمي وأخذ بالقيم الحميدة والفضائل الخيّرة مع طموح وغايات من ورائها نيل المأمولات العظيمة.

ولذلك فالكلمةُ مهما عظمت إن لم تتجسّد في سلوكٍ يدفع إلى العمل المنتج تظلّ كلمة في حاجة للحياة، ولا حياة لها إلّا العمل، ولكن أيّ عمل؟ إنّه العمل ارتقاء (بناء وإصلاحا وإعمارا مع ارتقاء الأخلاق قمّة)، والعمل ارتقاء هو إنشاء الشيء من الشيءٍ، كما أنشأ نوح عليه السّلام سفينة النّجاة من جذوع الشّجر إبداعا، والفضائل والقيم من ورائها إنقاذا.

ولأنَّ الأمم والشّعوب التي تقدّمت لم تتقدّم إلّا بالعمل؛ فَلِمَ لا يقدِم المتأخّرون عنهم على العمل الممكّن من طي الهوة بينهم وبين المتقدِّمين الذين ارتقوا علما وتقنية وحُسن إدارة؟

ولأنّ التفكير لا يكون إلّا عملا؛ فينبغي على من يرغب ارتقاء أن يفكّر في العمل النّافع، وينبغي أن يجوِّد منتجاته لتكون منافسة لمنتجات الغير، ذلك لأنّ المنتجات غير المنافسة لن تجد لها مكانا في أسواق المستهلكين.

وهذا يعني: إن لم تَقدِم الشّعوب وبكلّ طاقاتها على العمل المنتج والمبدع فستظل متخلّفة وتابعة لمن يمتلك القوّة المنتجة ويسيطر على السّوق، وقد تصبح مدانة بما لم تستطع تسديده، وهنا ستجد نفسها أمام خيارات قد لا تكون محمودة، ويومها لن ينفع النّادمين ندما.

فالعمل تفكير يجعل المكانة لمن لم تكن لهم مكانة، ولذا؛ فمن رغب مكانة ويأمل تبوءها فعليه بالتفكير عملا ثم عليه تفكيرا أن يعمل ويحرّض على العمل لتكون المكانة فردية وجماعية، {قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ}44. فالأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام جميعهم يعملون ويحرّضون النّاس على العمل، ويحبّون من يعمل من أجله وأجل من تربطه بهم علاقات، {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ}45.

---

44 الأنعام 135.

45 التوبة 105.

وهكذا جميع الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام أرسلوا للنّاس من أجل الهداية والعمل ارتقاء؛ فكانت القيم الحميدة والفضائل الخيّرة جنبا إلى جنب مع الإصلاح والبناء والإعمار ارتقاء عبر التّاريخ؛ فالإنسان الأوّل الذي خُلق في الجنّة رأى الارتقاء بأمّ عينه، بل عاش الارتقاء حياة نعيم، ولكن بأسباب المخالفة والمعصية ارتكب خطأ فأخرج به هبوطا من الجنّة إلى الحياة الدّنيا، والتي من بعدها أصبح واضعا نصب عينيه أمل العودة إلى تلك الجنّة، التي ضاعت من بين يديه وهو يتحسّر، بما أقدم عليه إرادة، حتى وإن كان بأسباب الإغواء، ولكن بعد أن استغفر ربّه، ظل يعمل من أجل العودة إلى ذلك العيش الرّغد الذي حُرم منه بما ارتكبه من فعل منهي عنه، ومع ذلك ساد الصّراع بين النّاس إلى يومنا هذا (بين من صدّق الرّسل ومن كذّبهم)؛ فمن صدّق الرّسل يأمل كما أمِلَ الإنسان الأوّل الارتقاء إلى الجنّة التي عاشها حياة فردوس، ومن لم يصدّق؛ فلا يرى جنّة، وهنا تكمن العلّة.

وهكذا؛ فالإنسان تفكيرا لم يقف عندما يأمله، بل تجاوزه بالتفكير والعمل حتى صعد إلى القمر الذي كان يعتقد أنّه الجنّة، ثم تجاوز القمر كونه لم يكن كذلك، فغزى الفضاء اكتشافا، وهو في سعيه لم ييأس ارتقاء من بلوغ ما هو أعظم، ولا غاية له من وراء ذلك إلّا بلوغ الجنّة، إنّها رسالة الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، فمن أخذ بها ارتقاء، أخذ بما يجب الأخذ به، ومن لم يأخذ بها فلن يبلغ التقدّم

والارتقاء المحقّق لإشباع الحاجات المتطوّرة والمتنوّعة، وبناء الحضارة التي ترتقي بصُنّاعها إلى صناعة المزيد.

ومع أنَّ الإنسان خُلق على الارتقاء خَلقا، لكنّه لم يحافظ على ارتقائه؛ فأُهبط به من علوٍ إلى دنيا، ومع ذلك عيناه لم تفارق السّماء تفكيرا، ظلّت تبصر هناك بأمل العودة، وهذا الأمر هو الذي حفّزه على العمل ودفعه إليه ارتقاء.

إنَّ الإنسان لو لم يكن مؤهلا للارتقاء، ما فكّر وتدبّر حتّى تمكّن من اقتناص الفكرة التي مكنته من غزو الفضاء وهو يأمل في المزيد ارتقاء، ولأنّ حاجات الإنسان متنوّعة ومتطوّرة؛ فهي إن لم تواكب من قِبله بالعمل المتطوّر تصبح ضاغطة عليه ألما شديدا؛ فعليه بالعمل وتحدّي الصّعاب، ولا يخشى شيء سوى الحقّ الذي يمكّنه من التقدّم والنّهوض وتحقيق الرّفعة والمكانة قمّة.

ومن هنا؛ فما بلغه الإنسان من ارتقاء علمي وثقافي وحضاري يؤسّس قاعدة عريضة للمزيد المعرفي الممكّن من الإصلاح والبناء وقبول التحدّي من أجل الأفضل والأفيد والأنفع والأرقى؛ ولهذا فالتفكير عملا يحقّق:

- التعرّف على المتوقّع وغير المتوقّع.

- التعرّف على المجهول.

. عمل الخوارق.

. الرّفعة.

. تبوء المكانة.

. القدوة الحسنة.

. الاعتماد على الذّات.

. بلوغ الغايات.

. نيل المأمولات.

وعليه:

. فكّر تعلّما؛ حتى تجعل الجهل خلفك ولا فرصة له أن يلاحقك.

. فكّر عملا؛ حتى ترتقي وتتبوأ المراكز المتقدّمة.

. فكر تحدٍّ حتى تخلق لك مستقبل أفضل.

. فكّر حتى تجعل المهنة وكأنّها الهواية وعن رغبة واشتياق.

. أتقن عملك حتى يصبح لك هويّة.

. فكّر تطلّعا إلى الأجود حتى وإن تمكّنت من أداء عملك ارتقاء.

. فكّر واعمل فلا قيمة لك إلّا بالعمل ارتقاء.

. التفكير لا سقف له؛ فلا تجعل من مستوى الجودة الذي بلغته مظلة لتجلس تحت ظلّها وكأنّها الغاية، بل عليك أن تعرف أنّ الجودة درجات سُلم يتمّ الصّعود عليها، ولا يتمّ الصعود إليها؛ ذلك لأنّ الوسيلة ليست الغاية ولا المأمول، ولأنّ السّلم وسيلة فلا تقف عنده وكأنّه المهم الذي لا شيء مهم من بعده.

ولهذا فعليك بالتفكّر والعمل، فالعمل الصّالح كما يرضي القائمين به جهدا مبذولا فهو يرضي الله، ولكلّ جزاؤه، {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}46. أي: لكلٍّ حسابه؛ فللعمل الراقي حسابه، وللعمل المنحط حسابه، ولا يظلم أحدا. {نَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا}47.

---

46 الزلزلة 7 ، 8.

47 النساء 40.

تطوّر الفِكْر

مرّ الفكر الإنساني تطوّرا وارتقاء بمراحل الخَلق والنّشوء والفطرة والتقليد، ثمّ بلغ مراحل إنتاج الفكرة التي كانت الأديان مثيرها المعرفي، والتي منها الشّعوب صاغت فِكْر وفلسفة؛ بغاية تنظيم العلاقات بين النّاس وممارسة الحريّة عن إرادة بلا إكراه ولا هيمنة ولا حرمان؛ فتأسّست النّظم والنّظريات السياسية والاقتصادية والاجتماعية على قيم غير ثابتة إلى أن أصبحت قيم الاستيعاب، والاحترام، والتقدير، والاعتبار، والتقّبل، والاعتراف ثوابت لممارسة الحرّية، وأصبح العالم قرية لا تستقر ارتقاء إلّا على حقوق تمارس، وواجبات تؤدّى، ومسؤوليات تُحمل.

وحتى لا يظن البعض أنّ التطوّر كان انسيابيا، وأنّ الإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم لم يمرّ سلوكه بانتكاسات وسُفلية ودونية؛ فتلك العصور المظلمة حتى وإن بعدت عنّا زمانا مازالت شواهدها في محفظة التاريخ، وهي في أذهان البعض مازالت أساطير على قيد الحياة حتّى وإن لم تدخل سوق العمل.

الفِكْر الأسطوري:

الفِكْر في ذاته لم يكن جزءا من الأسطورة، ولا الأسطورة جزءا من الفِكَر، بل الفكر ملكة إعمال العقل، وشمعة نوره التي بها يهتدي إلى ما يشاء وفقا لما يريد، أمّا القصد بمفهوم الفكر الأسطوري فهو ما

يدلّ على مستوى التفكير في حقبة من أحقاب النّضج المعرفي ارتقاء؛ فالأسطورة في معظم الأحيان لا تستند على واقع إلّا لتضخّمه وتزيّنه، ثمّ تسوّقه وكأنّه الحقيقة.

فالفِكْر الأسطوري مشهد من مشاهد الحياة، التي مرّت بها البشريّة، يسرد المعلومات ويفسّرها، ولكن لا يقدّم الحلّ، ولا علاقة له بالتحليل، ولا بالمحاجّة المنطقية، ولا التجربة (المشاهدة والملاحظة المصنّفة). بل المستوى الفكري الأسطوري مستوى خرافي، والشواهد فيه بين المتحاجّين خرافة بخرافة، وشعوذة سحرية بأخرى مثلها، والطبيعة هي المسيطرة، والخنوع إليها يحقّق الاستئناس. وحيث ما وجدت الأسطورة، غاب الشّك العقلي، وساد التسليم بالأمر الواقع خيالا، ودون حاجة للبرهان.

والتناقض مع أنّه السّائد حكاية، ولكنّ الاستغراب في زمنه لا يلاحقه، والدّليل لا يزيد عن كونه حكاية فاقدة للشواهد. وفي الأساطير من البطولات ما فيها، وفيها من المتناقضات ما يسفّه بعضها البعض، ومع ذلك لا تفقد الحكاية الأسطوريّة صوغها حكيا وسردا.

والأسطورة مع أنّها من إنتاج العقل، ولكنّها على غير علاقة بصناعة المستقبل؛ فهي مرتبطة بالحاضر وحاضناته في التاريخ، وكذلك الطبيعة التي لا إمكانية لمغالبتها إلّا بسحرٍ أو إله قادر على أخذ الثأر منها. ولذلك؛ فالمستوى الفكري الأسطوري تملؤه الخرافات والشعوذة وعبادة آلهة من الطبيعة وممّا تصنعه أيدي النّاس.

وتعدّ مرحلة التفكير الأسطوري مرحلة: الأنا هو البطل، والخرافة مرتكز الغيبيات، والكون مصدر العقيدة، ويُعدّ السّحر هو الممهّد للأسطورة، والأسطورة هي الممهدة للفكر الفلسفي.

ولهذا، في زمن الأساطير تستمدّ المعلومات حكاية شفويّة، وتفسّر برؤية الأنا البطل، وتوظّف بوجهة نظر السّارد، وتتناقل عنعنة دون ضرورة لمعرفة المصدر. والمجتمعات في زمن الأساطير مفكّكة، حيث لا سياسة ولا اقتصاد ولا فلسفة، بل السّلوك وحده مقياس القيم، أمّا العمل؛ فالطبيعة وحدها المتحكّم فيه. ولكن هذا لا يعني لا وجود للأديان، بل الأديان بدأت مع بداية الخَلق (آدم)، ولذا؛ فمهما انحرف البعض وأخذ من دون الله أربابا، يظل البعض على كفّة الخير مؤمنا حتى وإن واجه أصحاب الشّر صِداما وخلافا واقتتالا.

ففي زمن الأساطير، تصطنع المواقف، ويبالغ فيها بطولة، وتسرد كلاما وكأنّها حقائق مع أنّها تفتقد للبرهنة والشّاهد، أمّا القدوة في زمن الأسطورة وكأنّه خُلق وحيدا، ولن يتكرر.

الأسطورة وإن كان لها سند من الطّبيعة، ولكن في بعض الأحيان تُنسج خيالا، وتقدّم حقيقة، وفي كثير من الأحيان تتولّد الأسطورة من الإشاعات والخرافات المتناقلة شفاهية، وهي كمن يكذب كذبة، ثمّ يصدّقها. وفيها من الحكي عن الآلهة وما يمتلكونه من قوّة وكأنّهم لم يكونوا آلهة بلا حول لهم ولا قوّة، وفيها من الحكي عن الأبطال الذين لا بطولات لهم ما فيها من تسويق وتضليل لعقل

المستمع، ومع ذلك يستمدّ الحاكي بطولته ممّا يحيكه من تخيّل وما يسوّقه عن غير معرفة ودليل.

ولذلك؛ فالأساطير تجعل القصّاص وكأنّهم في ساعة عمل وإنتاج، وفي المقابل تجعل المستمعين منبهرين في حالة استرخاء، وهم يأملون لو كانوا مثل أولئك الأبطال المحكي عنهم بطولات، ولهذا؛ فمقدّمات القضيّة الأسطوريّة دائما بدايتها صفر ونتيجتها صفر.

ومن هنا؛ فمرحلة الفكر الأسطوري مرحلة لكّ العلكة من فمٍ إلى فمٍ، ذلك لأنَّ الزّمن الذي يشغله الحُكاة حكيا، هو بحقّ زمن شغل الفراغ بالفراغ، أي: إنّ الأسطورة لا تكون إلّا نتيجة حالة من الرّكود الحياتي، مع أنّ الأسطوريين في زمنهم يظنّون أنّ حياتهم حياة مملوءة بحيويّة البطولات المتفاعلة بينهم وبين الآلهة والطّبيعة.

ومع أنَّ الفكر الأسطوري سردي، حيث لا جديد، ولكنّه بقدر ما يتبنّى رأيا يرفض الرّأي المخالف حتى وإن كان المنقذ، وعندما يتمّ الأخذ بفكرة ما يتمّ التسليم بها حتى وإن لم تكن صادقة. ولهذا يتمّ الرّكون إلى الخيال، وكأنّه مصدر الحقائق، ولا شكّ يلاحقه.

ومع أنّ عصر الأساطير قد ولّى، ولكن في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع متى ما توفّرت معطياته عاد إلى المشهد من جديد؛ فالانتكاسات المؤلمة فكريا وسياسيا واقتصاديا ودينيا متى ما ألمت بالنّاس وانحدروا دونية تحت العوز وضغط الحاجة؛ فلا استغراب أن

تعيدهم الظّروف المؤلمة إلى الفوضى، ثمّ من بعدها إلى تلك الأساطير والخرافات التي كانت قيدا على الفكر البشري في زمن سيطرة الطبيعة. وفي المقابل متى ما توفّرت معطيات النّهضة (فكرا وعلما ومعرفة وتجربة) نهض النّاس تحدّ لكلّ ما يؤلم.

ففي زمن الأسطورة كان الهنود يعتقدون أنّ توحّد الأرواح الخيّرة في روح واحدة تمثل النّور، وتوحّد الأرواح الشريرة في روح واحدة تمثل الظّلمة؛ وعندما يحدث الصّدام والمواجهة ينتصر النّور على الظّلمة، وينتهي الحدث التّاريخي، وكذلك كانت رؤية الرّومان الأسطوريّة، لا ترى إمكانية لتحقيق الارتقاء إلّا بالقوّة، ولذا؛ فعندما امتلكوها قالوا: (الأرض للرّومان). أمّا اليهود؛ فلا يرون نهوضا ولا نهاية لطي صفحات التخلّف إلّا بالتفوّق ارتقاء، ولهذا قالوا: (شعب الله المختار). أمّا الإسلام؛ فلا يرى ارتقاء وحلّا إلّا بالمشاورة والكلمة السّواء ولا إكراه في الدين. وهكذا اليوم يرى الفكر الغربي لا ارتقاء ولا حلّ للمشكلات الإنسانية إلّا بالبحث العلمي وممارسة الديمقراطية فكرا وسلوكا وعملا.

وعليه:

إذا أردنا القطيعة والفرقة مع عصر الأساطير حتى لا يعود ثانية؛ فينبغي أن نتجاوز عن تعميم الرؤى والأحكام الخاصّة على العموم، فالإنسان قيمة في ذاته؛ فينبغي أن يكون مقدّرا في كرامته، ومحترما برأيه، ومعترفا بإرادته، ومعتبرا باختلافه، ومستوعبا في شخصه (هو كما هو عليه) من أجل الانتقال معه إلى ما ينبغي أن يكون، مع وافر الثّقة في

ممارسة الحرّية بأسلوب ديمقراطي يسمح بالتمدّد إلى النّهاية دون أن يكون التمدّد على حساب الغير.

الفِكْر الفلسفي:

يعدّ الفِكْر في ذاته معطية عقلية تميّز الإنسان تذكّرا وتدبّرا وتفكّرا، وهو الملكة الذهنيّة التي يثيرها المفهوم انتباها كما يثيرها المشاهد والملاحظ والمجرّد. أمّا الفِكْر الإنساني: فهو إنتاج العقل وهو المتولّد من مجموع الفِكَر المنتجة معرفة. وعلينا أن نميّز بين مفاهيم ثلاثة وإن كانت متداخلة معنى لكنّها دلالة ليست كذلك:

المفهوم الأوّل: الفِكَر، هي: حاصل مجموع الفِكَرة التي ينتجها العقل.

المفهوم الثاني: الفِكْر، وهو من إعمال العقل، ومحفظته الذّهنية التي تلفته إلى ما يجب، وهو المنتِج للمعرفة.

المفهوم الثالث: الفِكْر، وهو: الصّفة المستمدّة من الفِكْر ذاته، باعتباره من إنتاجه؛ أي: إنَّ الفِكْر لا ينتج إلّا فِكْرا، أمّا العقل؛ فلا ينتج إلّا معقولا، سواء أكان سالبا أم موجبا.

ومن ثمّ؛ فالفِكْر الإنساني يتمركز على نضج الفِكَر، وصوغها في قضيّة تجيب على التساؤل الفلسفي (كيف؟). ولكن عندما تصاغ الفِكَر المتعدّدة وتنصهر في بوتقة الرّؤية أو النّظرية، تأخذ صفة الفِكْر

الذي هو من معطيات العقل الإنساني. ومن هنا؛ فالفِكْر ملكة عقلية تثيرها مستفزّات المشاهد والملاحظ والمجرد على السواء؛ فتتعامل معها تفحّصا بلا إشارة قف، ولكن وفقا للمقدرة؛ ولهذا؛ فالفِكْر من إعمال العقل، أمّا ملكة توليد الفِكَر؛ فهي من مجموع الفكرة.

ولأنّ الفِكَر هو مجموع الفكرة، وفي المقابل الفِكْر هو صوغها في رؤى أو نظريات؛ إذن، الفِكْر لم يعدّ ملكا لشخص بعينه، بل هو نتاج بشري بغاية تنظيم العلاقات الإنسانية على فضائل وقيم تمكّن من النّهوض والارتقاء الممكّن من ممارسة الحرّية وتحقيق إشباع الحاجات المتطوّرة تنوّعا.

فالفِكْر الإنساني نتاج ما وصل إليه العقل البشري من معارف وعلوم ورؤى، وهو الفكر الذي أسّس ثقافات وحضارات سادت، ثمّ بادت، ثمّ نهضت حضارات غيرها، وهكذا ستظل الحضارات بين نهوض وارتقاء، وبين إبادة وسُفليةٍ، وفقا لقاعدة الصّراع بين ما يجب وما لا يجب، وهكذا ستظلّ الحياة البشريّة في دورة من التفاعل بين (ارتقاء ودونية) حضارات تسود، ثمّ تبيد، ثمّ تنهض حضارات أخرى.

ولذا، يعدّ الفِكْر من إعمال العقل، وهو المنتج لمجموع الفكرة، وصائغها فِكْرا، إنّه (المنتِج) عقلا في مقابل مفهوم الفِكْر (المنتَج) معرفة، وهو المستهدف تفسيرا.

لقد تطوّر الفِكْر الإنساني من الاستئناس للفطرة، إلى الأخذ بالتقليد تخييرا؛ فكان إرادة بين مفترق طرق العشوائية الفكرية؛ مرّة يأخذ بما يؤدّي إلى الارتقاء، ومرّة يأخذ بما يؤدّي إلى الانحدار، حيث عاش الإنسان الأوّل حياة الخلق في أحسن تقويم، ثمّ انحدر سُفليّة؛ فاتّسعت الهوة بينه وبين تلك المكانة ارتقاء؛ فكانت الدّونيّة بين يديه سلوكا على غير فضائل ولا قيم حميدة، وكانت الأساطير ترافقه وكأنّها الحلّ في الوقت الذي فيه الخرافة لا علاقة لها بواقع، ومع ذلك جعلته الظروف يفكْر في نفسه ومن حوله وما حوله، فبدأت الفكرة تلد بعد الفكرة حتى استقام أمره فِكْرا؛ فانتبه إلى أهميّة الأديان حتى أثارته وعيا تجاه ما يجب، ولكنّ الانتكاسات ظلّت تحفّه حتى أصبح كلما بنى حضارة أو أسّس ثقافة، هدّها بيديه، وهنا تكمن العلّة التي تستوجب حلّا.

وهنا أقول:

إذا أردنا حلّا؛ فعلينا باحترام خصوصيات الغير، وعدم تهميشها أو إقصائها، بل ينبغي أن تقدّر؛ فتقديرها يلغي الاستثناء، ويجسّد الاختلاف الذي كلّما ساد بين النّاس اعترافا ساد الحلّ بينهم عدلا وارتقاء.

ولمتسائل أن يتساءل:

وماذا تعني سيادة الخصوصيّة ارتقاء؟

إنّها سيادة الاختلاف، وهو الذي خُلق الإنسان عليه خَلقا، ولذا؛ فكلّ من يحاول أن يلغي الاختلاف يجد نفسه في مواجهة مع طبيعة الخَلق التي لا يمكن أن تتبدّل، وكلّ من يحاول أن يلغي أو يطمس الخصوصيّة، وكأنّه يحاول أن يلغي الاختلاف، ومن هنا، تصبح المواجهة مع كلّ من له خصوصيّة. والخصوصية لم تكن العادة ولا العرف؛ فالعادة والعرف بالزّمن والتعلّم قابلان للتغيير، أمّا الخصوصية؛ فهي الاختلاف الذي لا يتغيّر. إنّها الهويّة المميّزة للجنس والنّوع، والمميّزة للجماعات والشّعوب والأمم (إنّها المستمدّة من فضائل الدّين، وقيم المجتمع، وطبيعة المكان، والظّرف السياسي، والاقتصادي، والنفسي، والذّوقي، والثقافي)، وهذه ستظل، وسيظل النّاس مختلفين، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}48.

ولذا؛ فالحلّ، هو اعتماد الاختلاف قيمة ضامنة للارتقاء، كما هو قيمة ضامنة لممارسة الحقوق، وأداء الواجبات، وحمْل المسؤوليات وتحمّل ما يترتّب عليها من أعباء جسام.

ومع أنّ الفِكْر الإنساني واحد، ولكن يظلّ للخصوصيّة الموضوعيّة ما يميّزها فكرا؛ فهناك الفكر الفلسفي، والاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي، وهناك التجربة، وهذه الخصوصيات الفكرية

[48] هود 118، 119.

تتفرّع هي الأخرى إلى علوم نظرية وتطبيقية تمكّن من معرفة الحلّ اختلافا.

وبما أنَّ وراء الفكر الإنساني فلسفة، إذا؛ فهو المؤسّس على التساؤل: كيف؟

إنّه التساؤل الذي يسعى إلى معرفة الكيفية التي كانت عليها الأشياء، وكذلك الكيفية التي ينبغي أن تكون عليها وفقا لما نشاء؛ فالفلسفة تتساءل عن كيف خلق الشيء شيئا؟ وكيف هو شيء؟ أي: كيف كان؟ وكيف يمكن أن يكون؟ ولهذا؛ فالتساؤل عن الكيفية تساؤل نوعي احتمالي، فيه من التعجّب ما فيه، إلى جانب الاستغراب بين الصّعب والمستحيل وكذلك الميسّر.

إنَّ التساؤل عن الكيفية يجعل الفكر الفلسفي على حالة من التنقّل بين المشاهد والملاحظ والمجرّد، والسؤال كيف؟ لا يرتبط بفلسفة أفراد ولا مجتمعات، بل يرتبط بالفكرة التي دفعتها الحيرة بحثا عن بلوغ الحلّ؛ ولهذا، وراء كلّ فكر وعلم فلسفة (حكمة)؛ فللرياضيات فلسفة، ولعلم الكيمياء فلسفة، وللعلوم الاجتماعية والإنسانية فلسفات، ومن هنا، لا يمكن أن تكون الفلسفة غاية في ذاتها، بل الفلسفة هي الغاية وراء كلّ غاية.

ومن هنا، لا معنى للعلوم ما لم تكن من ورائها فلسفات، ولا يمكن أن يتذوّق المتعلّم حلاوة العلم ارتقاء ما لم يتمكّن من معرفة الفلسفة التي من ورائه.

ومن ثمّ؛ فالتساؤل (كيف؟) هو تساؤل الواعين من النّاس الذين يتفحّصون المشاهد، ولا يتوقّفون عنده نهاية، بل النّهاية بالنّسبة لهم: لا وجود إلّا ومن ورائه سرّ (حكمة)، وهنا يكمن الحلّ، الذي ينبغي أن يتمّ التفكير فيه بحثا حتى يُكتشف ويُقدّم شاهدا بين أيدي النّاس حلّا يملؤه وجودا.

فالتساؤل عن الكيفيّة، تساؤل تدبّري بغاية معرفة العلّة والسّبب والنتيجة الممكّنة من المعرفة الواعية، ومن ثمّ بلوغ الحلّ، ولا شيء غير اليقظة إذا أرد النّاس أن يتجاوزوا المعضلات بحلول حاسمة، ولكن أيّة يقظة؟ إنّها معرفة الكيفيّة، أي: معرفة الكيفية التي خُلقت المخلوقات عليها، والكيفية التي ينبغي أن تكون عليها المتهيآت. {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ}[49].

إذن، معرفة الكيفية تتجاوز بأصحابها التوقّف عند حدود المشاهد والملموس إلى معرفة المجرّد ومعرفة القانون الذي وُجد المشاهد

[49] الغاشية 17 . 20.

عليه، ومن يتمكّن من معرفة المجرّد والقانون الذي نشأ عليه، يتمكّن من معرفة ماهيته كما يتمكّن من توليد المعرفة المضافة.

ومع أنّ القاعدة المنطقية ترى: أنّ الارتقاء أساس الخَلق البشري، {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}50، ولكن الاستثناء يرى: كفّة الانحدار تكاد أن تتعادل مع كفّة الارتقاء، وهنا تكمن العلّة، حيث قلّة الجهد المبذول من قبل من يأمل ارتقاء، في مقابل الجهد المبذول من قبل من تشدّه السُفلية. وهذا الأمر يشير إلى أنّ زمن الصراع سيطول بين من يأمل رتق الأرض بالسّموات، ومن لا يرها إلّا مفتقة.

الفِكْر الفلسفي ارتقاء:

الفلسفة لم تكن علما مستقلا بذاته، بل هي ما يتولّد من الفكْر رؤى تمكّن من المعرفة، وترشد ارتقاء إلى تجاوز المشاهد والملاحظ إلى معرفة الكيفية التي هو عليها، ومعرفة القوانين التي تتحكّم فيه، ومن أين جاءت تلك القوانين؟ وكيف كانت للشيء هيئة قبل أن يكون له شكل أو صورة؟ ذلك لأنّ الفِكْر الفلسفي جدلي، لا يأخذ الفكرة إلّا بعد تبيّن، وهو وإن قبل الفكرة تجريدا، لكنّه لا يعدّها نتاجا إلّا إذا أدت به إلى بلوغ المعرفة.

---

50 التين 4.

ولهذا؛ فالفلسفة نتاج التساؤل الفكري: ما هذا الكون؟ وكيف كان كونا؟ ما هذا الشيء؟ وكيف كان شيئا؟ وما ذلك الشيء؟ وكيف كان شيئا آخر؟ وما هو القانون الذي خُلق عليه الشيء؟ وكيف كان قانونا؟ وما هذه الصور؟ وكيف كانت هيئة قبل أن تصبح صورا؟ ومن الذي يسيّر الأشياء؟ أم أنّ الأشياء تسيّر ذاتها؟

تساؤلات تلفت العقل تفحّصا؛ فتزيده حيرة، يكون التفكير فيها بين صعوبة ويأس، ولكن عندما يكون الأمل ارتقاء؛ فلا قنوط، ومن هنا، تلد الحيرة يسرا يُمكّن من بلوغ المعرفة وعيا.

ولأنّ الفلسفة نتاج تساؤلات الحيرة المصنّفة علما؛ فهي نتاج العقل المتأمّل في الوجود وأسرار الكون بغاية المعرفة الواعية، ومع ذلك يمكن أن تكون النتائج المعرفية خاضعة للتفسير شذوذا عن القاعدة. فتكون نتائج المعرفة أحكاما مسبقة، أو استنتاجات غير صائبة؛ فيحدث التشوّيش على الحقيقة المعرفية، كما هو حال العالم الإنجليزي ستيفن هوكينغ الذي استنتج فيما كتبه في مؤلفه المشروع العظيم (The Grand Design) أنَّ الكون خالق نفسه ولا خالق له[51]. ولأنّه استنتاج تفسيري؛ فالاستنتاج التفسيري بلا أدلة قانونية تثبتها التّجربة يظل مرتبطا بوجهة نظر المفسّر أكثر من ارتباطه بالحقيقة، وهنا تكمن العلّة، وبخاصّة إذا أُخذ التفسير وكأنّه حُكم

[51] ستيفن هوكينغ، المشروع العظيم، الناشر، بنتام بوكس، الولايات المتحدة الأمريكية، 2010.

قاطع، وهذا ما يتعارض مع الأحكام العلمية التي لا تكون إلّا عن حُجّة وبرهان أو عن بيّنة قابلة للتجربة والقياس.

إنّ مثل هذه التفاسير تُلفت العقل البشري تذكّرا لتلك الاستنتاجات، وتلك التفاسير الأسطورية التي سادت ثمّ بادت بلا حجّة، ولا استغراب أن تتكرر التفاسير الخاطئة بلا حُجّة، بل الاستغراب ألا يستفاد من النتائج التي انتهت إليها تلك التفاسير الخاطئة، ولذا علينا أن نميّز بين تفسير الخيال والأسطورة، وبين تفسير خطاب العقل والمبدأ.

حيرة الفِكْر:

تُعدّ الحيرة انشغال ذهني بحلقة مفقودة متى ما تمّ التعرّف عليها فكريا، تجلّت الرّؤية، بين ما يشاهد ويلاحظ، وتلك العلاقة المجهولة.

والسؤال كيف؟ دائما هو السؤال المحيّر. والإجابة عليه تُعدّ مرتكزا فكريا؛ والمعرفة تكسر حاجز الحيرة كما تكسر الجمود الفكري ساعة الإجابة على التساؤل: كيف؟ وأوّل محيّرٍ للفكر الإنساني كيف خُلق الكون؟

من الذي خلقه؟

أين الخالق؟

ما هي قوانين الخَلق؟

ما هي صفات الخالق؟

إنَّ التساؤل عن الكيفية التي خُلق الكون عليها تقود إلى معرفة خالقه، ومعرفة الخالق لا يمكن أن تتأتى إلّا بمعرفة صفاته؛ فالذين قالوا: إنّ الكون خالق نفسه، فقولهم يقبل لو عدّدوا لنا صفات الكون الخالق نفسه، ولكن إن لم يجدوها (لم يجدوا له صفة)؛ فكيف لهم بالبقاء على ما يقولون؟

فالكون لا يمكن أن يكون كونا، لو لم تسبقه صفة بقائه وجودا، ومن يجيز غير ذلك، وكأنّه يودّ أن يقول: متى ما وجد المخلوق وجد الخالق، ولكنّهم إذا أجازوا ذلك عن وعي لأدركوا أنّهم قد فصلوا المخلوق عن الخالق، ومن هنا، لن يصبح الكون إلّا على حالة واحدة: إمّا خالق، وإمّا مخلوقٍ، وفي كلا الحالتين؛ فإن كان خالقا؛ فهو المسيِّر، وإن كان مخلوقا؛ فهو المسيَّر، ولأنّ المخالفين هم من علماء الفيزياء؛ فهم متى ما فكّروا في صفات خالق نفسه عرفوا أنّه على غير صفة، وفي المقابل إن قالوا: له من الصّفات ما له؛ فعليهم بعدّها؛ فإن عدّوها، أحصوها، وإن أحصوها؛ فلا يمكن أن تكون صفات خالق؛ ذلك لأنّ صفات الخالق لا تعدّ ولا تحصى، وإلّا هل هناك من يعدّ نعمه؟

النّعم لا تحصى، وما من نعمة إلّا من صفة، ولأنّه ما من نعمة إلّا من صفة، والنّعم لا تحصى، إذن؛ فكيف بإحصاء الصّفات التي لا تستمدّ النّعم إلّا منها؟

وعلينا أن نميّز بين أمرين: أن أكون على صفة، أو أن تكون لي صفة؛ فإن كنت على صفة؛ فأنا المجعول عليها جعلا، وهنا؛ فلا تطابق بين الصّفة والموصوف، ولكن إن تطابقت الصّفة مع الموصوف، كان الموصوف واحدا وإن تعدّدت صفاته.

ووفقا لهذه القاعدة المنطقيّة، فأين هي صفات الكون؟ وأين الكون من صفته؟

لا يمكن أن تكون الإجابة بلا لبس وغموض ما لم تحدّد صيغة السؤال: بأحد أمرين:

ما هو الكون؟ أم من هو الكون؟

فإذا قبلنا السّؤال الأوّل، قبلنا بأن الكون شيء غير مدبِّر، وإلّا لماذا استخدمنا الأداة الاستفسارية (ما) التي لا تستخدم إلّا لغير المدبّر (غير العاقل)؟

أمّا إذا قبلنا السّؤال الثاني (من يكون الكون)؟ فإنّنا كمن يقول: الكون مدبِّر أو عاقل، في الوقت الذي نعترف فيه بغير ذلك؛ ولأنّه لم يكن مدبّرا ولا عاقلا؛ فلا يمكن أن تستخدم الأداة الاستفسارية (من) التي لا تستخدم استفسارا إلّا عن المدبّر أو العاقل.

وبما أنَّ الكون مجعول على الصّفة الحركية (تمدّدا وانكماشا وسكونا) إذا؛ فليس له من صفة إلّا ما جُعل عليها جعلا، ولهذا؛ فلا

يمكن أن يكون الكون مصدرا للصّفات. ولأنّه كذلك، إذن: فمن ورائه خالق تتعدّد صفاته، وهو الواحد الذي لا يتعدّد.

وعليه: فالفرق كبير بين دلالة السؤالين:

من هو؟

وما هو؟

فمن هو؟ هو الخالق.

أمّا ما هو؟ فهو المخلوق.

ولذا؛ فمصدر الصّفات المتعدّدة لا يتعدّد، ولهذا نقول: الصّفات سواء أكانت اسمية أم فعلية؛ هي المتطابقة مع اسم الذّات (الله) {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}52.

ولأنَّ الخالق يُدعى؛ فهل هناك من يدعو الكون؟ وإذا دُعي؛ فهل من مستمع يجيب؟

بدون شكّ، من لا يُسأل عنه بأداة الاستفهام (مَن) لا يمكن أن يكون مدبِّرا (خَالقا) ولا يمكن أن يُجيب. ولهذا؛ فلا صفة خَلقيّة

[52] الإسراء 110.

للكون إلّا التي خُلق عليها تمدّدا وانكماشا وسكونا، أي: لا صفة له إلّا الحركة التي خُلق عليها تسييرا إلى النّهاية.

هكذا هي الحيرة ترتبط بالشيء من محطّة فكرية إلى محطّة أخرى؛ فهي قد ألمت أوّل ما ألمت بالإنسان الأوّل (آدم) عندما وجد نفسه في حيرة بين خيارات ثلاثة: أمر الله ونهيه، وإغواء إبليس، وما اشتهته نفسه؛ فظل على حيرته حتى عصى ربّه، وهنا، وُلدت من بعد الحيرة حيرة لم تلد حلّا؛ فألمت به ثانية عندما اكتشف أنّه أصبح في دونية مخالفة لطبيعة خَلقه في أحسن تقويم؛ فظل في حيرته حتى استجاب الله لاستغفاره وتاب الله عليه.

وهكذا هي الحيرة من بعده ظلّت تلاحق بنيه؛ فألمت بأحدهم ساعة قتله أخاه، ولم يعرف (كيف؟) يواري سوأته، حتى بعث الله غرابين؛ فتقاتلا، ثمّ دفن القاتل قتيله في حفرة قد حفرها لهذا الأمر، حينها عرف ابن آدم ما يخرجه من حيرته، مع أنّ حيرة القتل ظلّت تلاحقه إذ لا إمكانية لإدارة العجلة إلى الخلف.

ومن ثمّ، وجب التفكير فيما يُفكّر فيه بنو آدم قبل أن يقدِموا على الفعل والعمل والسّلوك، حتى يتجنّبوا الوقوع فيما يحيّر في لحظة المفاجأة، أو يؤلم، أو يؤزّم العلاقات؛ فتلك الأساطير في زمانها كانت والحيرة كانت فيها، وفي المقابل جاءت الأنباءات والرّسالات لتزيح الحيرة، وتجيب على المجهول، ومع ذلك ظلت الحيرة في كلّ المجالس

والمجادلات والمحاجّات التي لا ينفكّ غموضها إلّا بمعرفة الإجابة على السؤال: (كيف؟) الذي سيظل محيّرا حتى بلوغ المعرفة عن بيّنة.

فظلت الحيرة الفكرية تراود عقول النّاس من أجل بلوغ ما يفكّ أزماتهم، وينهي آلامهم، ويمكّنهم من الاختيار المشبع للحاجات المتطوّرة تنوّعا، سواء أكانت حاجات فكرية، أم سياسية، أم اقتصادية، أم نفسية، أم اجتماعية، أم ذوقية. ومع ذلك سيظل السؤال (كيف؟) يلاحقنا وهو في حاجة للإجابة، أي: كيف تشبع الحاجات الفكرية؟ وكيف تشبع الحاجات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والنفسية، والذوقية؟ وهنا، يكون أمر الإجابة بين أيدي النّاس الذين يتعلّق الأمر بهم؛ حيث تقدير الخصوصيات، ووجوب الإرادة.

تفسير الخيال أسطوريّة:

في تلك الأزمنة الأسطوريّة كانت الثّقافة شفويّة، فيها من الخيال والخرافة ما فيها، وفيها من البطولات الكلامية بغير بطولات ما فيها، فيها الحقائق تزوّر، والأكاذيب تسوّق، والأنا شاهد على كلّ الشواهد، أمّا كفّة ميزان الغير فهي على الدّونية، في الوقت الذي فيه الغير قد لا يكون كذلك.

إنّه العصر الذي سادت فيه الحكاية والسّرد الخيالي، واللجوء إلى مظاهر الطبيعة الكونية، وكأنّها كما يراها اليوم العالم الفيزيائي ستيفن هوكنيغ خالقة لا مخلوقة، وبالتوقّف عند هذه العلّة تفحُّصا نلاحظ

وكأنّ زمن الأسطورة ليس ببعيد عن زمننا، حيث انعدام وجود الحجّة دليلا شاهدا بين أيدي النّاس.

ففي ذلك الزّمان كانت المبالغة الكلاميّة هي سيّدة المواقف، إذ وصل الحال بمن يجهل الحقيقة إذا حكى عنها وأُخذ بحكيه كان حكيه وكأنّه الدّليل والحجّة. ومن هنا، قد يأخذ البعض بتفسير العالم الفيزيائي ستيفن هوكنيغ مع أنّه بلا دليل، ولا شاهد علمي، سوى الاستنتاج تفسيرا.

تفسير العقل والمبدأ:

إنّه التفسير المستند على الحُجّة والدّليل والشّاهد والبرهان المتوافر بين أيدي المتحاورين أو المتجادلين، مع الأخذ بالمكتوب الموثّق كونه مصدرا من مصادر المعرفة الموثوقة. فتفسير العقل والمبدأ تصحبه الدقّة في التعبير مع الأخذ بالمفاهيم الفاصلة بين المتشابهات والمتقاربات في الصّفات والخصائص.

ولأنّ التفسير العقلي نقدي؛ فهو يعتمد على البرهان المنطقي (مقدمات ونتائج صادقة)، وهو لا يقبل بتفسير المعلومات المشكوك في أمرها، ومن يقدم على تفسير المعلومات قبل أن تحلّل متغيراتها وتبلغ نتائجها؛ فهو كمن يفسّر الماء بالماء، ومن ثمّ؛ فلا يكون التفسير إلّا عاكسا لوجهة نظر المفسّر. ولهذا؛ فالمعلومات غير قابلة للتفسير، أمّا

النتائج فتفسّر. ولذا؛ فمن يفسّر المعلومات قبل أن تُخضع للتحليل فمهما بلغ من نتائج؛ فنتائجه غير موثوقة.

ولذلك؛ فتفسير المعلومات قبل أن تحلّل متغيراتها يكون أقرب إلى التفسير الأسطوري الذي يعتمد على القصّ (الحكي) الشفوي الإغرائي مع سيطرة الخيال على الموضوع قيد الحوار أو المحاجّة، وفي المقابل التفسير العلمي يعتمد على الدّقة الموضوعيّة مع تقديم الحجج وإجراء التجارب في الميادين الاجتماعية أو في المعامل والمختبرات، ولهذا؛ فالعلاقة بين التفكير الأسطوري والعلمي والفلسفي علاقة تضاد وتنافر وتعارض.

ومع أنّ التفكير الأسطوري قد طويت صفحاته ثقافة وحضارة، ولكنّ عقول البعض مازالت على مقربة منه، وهنا تكمن علّة الخيال غير الموضوعي، وبخاصّة عندما يحكي الإنسان عن نفسه وكأنّه البطل الوحيد، المتمكّن من خوض المغامرات والصّراعات متى ما حدثت، ومن ثمّ؛ فالأنا يتخيّل ما يتراءى له كيفما يشاء، ويقصص ما يشاء، في الوقت الذي لا تكون فيه قصصه على علاقة بالواقع.

إنّ هذا الأمر يتعارض مع الفِكْر الإنساني الذي يكشف العلل بما ينتجه من معارف متجاوزة لذلك المتخيل، من خلال حُسن التدبّر والتفكير في المستقبل، والعمل على صناعته بدلا من المحكي خيالا؛ وبخاصّة بعد أن عرف الإنسان الرّياضيات والعلوم الفلسفية والتجريبية ذات النتائج المقاسة حجّة وبرهانا، والتي من بعدها وبها تأسّست الدّولة

المدنية؛ فحلّت العُملة محلّ تلك المقايضات العينيّة، وأصبحت البنوك مركزا استثماريا يدفع عجلة الإنتاج إلى المزيد، وأحدث التّبادل التّجاري نُقلة واسعة بين قارات العالم وكأنّ العالم لا حدود بين قاراته ودوله. وتمكّن المواطن من إقرار دساتير وقوانين كفيلة باحترام سيادته وحريّته وحقّه في التنقّل والتملّك، وانكشف اللثام عن تلك المعلومات التي كان البعض يظنّها ثوابت الوجود، وهي: الماء الذي قال عنه طاليس: إنّه أصل الوجود. والنّار التي قال عنها إقليدس: إنّها أصل العالم، وغيرهما قال: إنّ أصل العالم (هواء وتراب) ثمّ أُكتشف أنّ العقل هو القوّة المحرّكة لعناصر الوجود الأربعة.

أمّا نحن فنقول:

إنّ وراء كلّ مخلوق خالق؛ فلا الماء، ولا النّار، ولا الهواء ولا التراب أصل الوجود، بل الوجود أساسه خالق. وهنا، ينبغي أن نميّز بين الوجود، ومن أوجده (بين الكون ومن كوّنه)؛ فالوجود ظهور ما لم يسبق له وجود إلى حيّز المشاهدة والملاحظة، أمّا الموجد (المكوِّن) فهو من بيده أمر الكينونة.

ولهذا؛ فالماء الذي قِيل عنه أصل الوجود، لا يزيد عن كونه جزءا من وجودٍ أعظم، وهكذا النّار والهواء والتراب؛ فهي جميعها لا تساوي إلّا جزءا بسيطا من المخلوق الكوني الذي تغلب عليه الظلمة والفراغ والمجرات والطّاقة.

ومن هنا؛ فالماء لا يكون إلّا لاحقا لسابق، {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}53، أي أنّ الماء لاحق لوجود السّماوات والأرض؛ فلو لم تكن السّماوات والأرض ما كان الماء، الذي جاء لاحقا بغاية إحياء الشيء المراد إحياؤه في (التراب)، ومع ذلك ليس كلّ التراب؛ فهناك من الكواكب والنّجوم الترابية ما لا ماء فيها، حيث لا قابلية للحياة، إلى أن يشاء الله.

ولأنّ الماء لا يكون إلّا لاحقا على الشيء، خلق الله آدم وزوجه خلقا من تراب، ثمّ بعد ذلك تزاوجا؛ فكانت النّطفة ماء الحياة المستمدّ من الشيء السّابق عليها (آدم وزوجه) {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا}54. أي: خلق من آدم وزوجة ماء (نطفة)؛ فخلق منها بشرا وهم السّلالة التي جاءت من النّطفة التي لو لم يكن الزّوجان ما كانت، وهكذا جعل الله الأحياء من الماء، {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}55، قال: (وجعلنا)، ولم يقل: (وخلقنا)؛ فالجعل يتعلّق بما هو مخلوق، أمّا الخلق؛ فهو إيجاد ما لم يكن قد خُلق، ولهذا؛ فالأشياء المخلوقة هي في حاجة للماء لتكسب حياة وحيويّة ونشوء وارتقاء، وهذا يدلّ على وجود الأشياء أوّلا، ثمّ جعل الماء فيها مُبعثا للحياة والنّمو.

---

53 الأنبياء 30.

54 الفرقان 54.

55 الأنبياء 30.

إذن؛ فعندما يقول طاليس: إنّ أساس الوجود الماء؛ فهو كمن يقول: لا عناصر للوجود سوى (الهيدروجين والأكسجين) وعندما يقول إقليدس: إنّ أصل الوجود النّار؛ فكأنه يقصر الوجود على (العناصر الغازية والكربونية)، وكذلك عندما يقول الفيلسوف اليوناني أنكسيمنس: إنَّ أصل الوجود الهواء فكأنّه يقول: قد اقتصر الوجود على عناصر الهواء التي هي (مجموعة من الغازات المختلفة)، وهكذا يرى الفيلسوف اليوناني أكزينوفانوس: أنّ أصل الكون هو تراب الأرض التي لا تكون إلّا جزيئا من الوجود العظيم. ومن هنا، يلاحظ أنّ المدرسة الطبيعية تُرجع الوجود الكوني إلى المادّة، في الوقت الذي فيه الوجود الكوني لا يقتصر عليها؛ فهو كما قدره بعض العلماء الفيزيائيين يحتوي على 5% مادة عادية كالنّجوم والكواكب والغازات والغبار الكوني، 25% مادّة مظلمة لم تكتشف بعد، 70% طاقة مظلمة56.

ولهذا؛ فالوجود الكوني لم يكن مقتصرا على الوجود المادّي سواء أكانت المادّة (ماء، أم نار، أم هواء، أم تراب، أم أنّها مجتمعة) ، بل الكون مبنيّ على معطيات تتعدّد ويصعب عدّها، سواء أكانت طاقة، أم مجرّات، أم فراغا وظلمة، أم نجوما وكواكب، وهذه جميعها تتمدّد بين المستحيل بلوغا، والمعجز نشوءا ومعرفة، والممكن تيسيرا وصعوبة. وهذا

[56] كولين رونان، الكون، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1980 م.

التفسير لا يختلف عمّا قاله فيثاغورس، الذي ذهب إلى أنّ العالم عبارة عن أعداد رياضية57.

أمّا أفلاطون؛ فيرى أنّ: العالم الحقيقي هو عالم المثل الذي يوجد فوقه الخير الأسمى، والذي يمكن إدراكه عن طريق التأمّل العقلي والتفلسف، ولذا، تعدّ فلسفة أفلاطون فلسفة مثالية مفارقة للمادّة والحسّ؛ فهي تعتبر عالم المثل العالم الأصل، بينما العالم المادي عالم زائف. ولكن الفيلسوف اليوناني أرسطو ذهب إلى غير ذلك؛ فهو يرى أنّ العالم الحقيقي هو: العالم الواقعي المادّي، أمّا العالم المثالي فهو غير موجود58.

هكذا هو الفِكْر الفلسفي يتولّد فِكَرا (فكرة بعد فكرة)، ثمّ يعمل العقل على صوغها بما يمكّن من المعرفة المنظّمة للسّلوك، والممكّنة من العمل والارتقاء، ولذلك؛ فتلك الفلسفات والرّؤى المختلفة والمتناقضة والمتضادة والهابطة والصّاعدة لو لم تمرّ البشرية بها، ما وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم من غزوٍ للفضاء وهي تأمل بلوغ المزيد ممّا يمكّن من رتق السّماوات والأرض جنّة.

وعليه:

---

[57] منتديات ستار تايمز، مدارس الفلسفة اليونانية ومناهجها، أرشيف الدراسة والمناهج التعليمية.

[58] برتراند رسل، حكمة الغرب: عرض تاريخي للفلسفة الغربية في إطارها الاجتماعي والسياسي، ترجمة د. فؤاد زكريا، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1983م.

يستند الفكر الفلسفي ارتقاء على تلك الفضائل الخيّرة، والقيم الحميدة المستمدّة من الأديان والأعراف الاجتماعية والإنسانية، مع إضافة المنتج فِكَرا وبحثا علميا.

فالفكر الفلسفي يرسّخ قيمة الإنسان تعبيرا، وسلوكا، وعملا، مع التقدير للمختلف، والقبول بالحوار والتعايش مع الغير، دون إكراه ولا هيمنة ولا حرمان ولا إقصاء، وترسيخ قيم التسامح والاستيعاب والتقبّل والتفهّم، وتقدير الإرادة وممارسة الحريّة.

ولهذا؛ فالإنسان الطّموح يعرف أنّ المسافة واسعة بين نقطة الصّفر التي وضع قدميه عليها، وبين ما يأمله ارتقاء، ومع ذلك يسعى ولا يأس في قاموسه العقلي؛ فيرسم الخطط وفقا لمنهجٍ مفتوح على كلّ الاحتمالات، حتى يتمكّن من معرفة: كيف يتعلّم؟ وكيف يبحث؟ وكيف يصوغ تساؤلاته وفروضه لِما يود بلوغه؟ وكيف يفكّك ما يعوق سبيله؟ وكيف يركّب ما تم تفكيكه من أجل تحقيق أهدافه بسلام؟ ثمّ كيف يحدث النُقلة إلى ما هو أفضل؟

ومن هنا، تلد الفلسفة منهجا به يتمّ توليد الفكرة من الفكرة، وتوليد الحُجَّة من الحُجة، من أجل رؤية المستقبل والتطلّع إليه ارتقاء؛ فالمنهج لم يعد كما يظنّ البعض قالبا ثابتا لصهر الأفكار مثل القوالب التي تُصهر فيها المعادن تحت درجات حرارة عالية، بل أصبح قواعد معيارية، بها تقاس الأقوال والأفعال والسلوكيات، وعلى ضوئها تُرسم الخطط المحدثة للنُقلة والارتقاء المأمول.

فالمناهج التي تنتظر أن يصاب المجتمع بالمشاكل والأمراض لكي تجد مواضيع لتبحث فيها، هذه المناهج لا تزيد عن كونها مناهج اجترارية عقيمة؛ فهي كمن يَلُكُّ العِلكة أكثر من مرة، وهي لا تُمكِّنَ من توليد الفكرة من الفكرة، ولا المعلومة من المعلومة، ولا الأحدث من الحديث، ولا أكثر جدّة من الجديد، ولا الأنفع من النّافع؛ فالمناهج التي تُمكن من الارتقاء هي التي تجعل المجتمع بأسره في حالة حركة متجدّدة، وفي حالة تسابق ومنافسة وتطلّع من أجل بلوغ أمانيه وغاياته بكل شفافية مع أخذ الحيطة والحذر من كلّ انتكاسة.

ومن ثمّ؛ فالفكر الإنساني ارتقاء لا يسوّق المناهج الجاهزة التي تخلق التُّبع، بل يسوّق المناهج التطلّعيّة السبّاقة لتحقيق الأماني الإنسانية وتطلعاتها المأمولة اتجاه كلّ ما من شأنه أن يحدث النُقلة المأمولة.

إنَّ الفكر الإنساني الطّموح لا يستهين بالزّمان، بل يعطه قيمة، ويثمّنه ساعة بساعة خوفا من أن تزداد الهوة اتساعا بينه وبين الأمل المرتقب؛ فهو يخاف الزّمن، وبخاصّة المستقبل منه، ذلك لأنّه يجهل ما يُخفيه، ومن ثمّ؛ فلا يثق فيه، كما أنّه لا يثق في الماضي والحاضر، لأنّ الماضي قد تركنا دون أن يتأسف علينا، ولا على الماضيين، وكذلك الحاضر مصرّ على ذلك بتنازله عنا ثانية بثانية، ولا يودّ الاستمرار معنا، ولهذا؛ فالثّقة تنعدم في الزّمانين (الماضي والحاضر)، ممّا يجعلنا لا نقصُر تفكيرنا عليهما إلّا لأخذ العبر والمواعظ. ولذا؛ فينبغي أنْ نفكّر في

غيرهما، ولا غير لهما إلّا المستقبل، الذي هو الآخر قد يغدر بنا إنْ لم نَحتَط من غدره، ولهذا؛ فلا ثقة في الزّمن، بل الثّقة في العمل.

إذن؛ فيجب العمل دون توقّف؛ ذلك لأنَّ التوقّف قليلا يؤخّر كثيرا؛ وعلينا الأخذ بالمناهج التي تُمكننا من الارتقاء بعد أن تعلّمنا كيف نتعلَّم؟ وكيف نفكّر فيما نفكّر فيه؟ وكيف نولّد الحُجّة من الحُجّة؟ وكيف نكتشف أخطاءنا؟ وكيف نصلحها أوّلا بأوّل؟ وكيف ننتقل من التوقّف عند حدود الإصلاح إلى بلوغ الحلّ؟ ومن ثمّ؛ فعلينا ترك تلك المناهج التي تُبلغنا أو تُعلِمُنا بما عَلِمت به، ولا تُحفِّزنا على الارتقاء.

وعليه:

ينبغي أنْ نفكّر بعمق حتى لا تضمر ذاكرتنا، وأن نقارن بين الدّقيق والأدق منه حتى تنشط عقولنا، وتستعيد عافيتها التي تمكّنها من التفكير المتوقّع وغير المتوقّع ارتقاء؛ فالعقول دائما في حاجة لأن تُمرّن حتى تمتلك القوّة التي تُلفت الإنسان لنفسه، وتُمكّنه من ملاحظة الآخرين وما يدور من حولها.

ومن ثمّ؛ فعلى الإنسان أن يستدعي محفظته من الذّاكرة ويخضعها للتقييم، ثمّ يقوّم حالته حتى يستبصر نفسه وما هي عليه، وما يجب أن يُغيره من أجل نفسه وأجل الآخرين.

فالإنسان إذا أراد ارتقاء؛ فعليه أن يستوضح نفسه مثلما يحاول استيضاح أنفس الآخرين؛ حتى يتمكّن من إزاحة النقاط المظلمة فيها، وأن يتنزّه في نفسه حتى يستبصر من هو؟ وما له؟ وما عليه؟ ثمّ يعمل على التصحيح، ويتحدّى عقله تفكيرا في نفسه حتى يدرك أسرارها وخفاياها، ومن ثمّ، يعرف أنَّ قوّة البصيرة بقوّة التفكير فيها، وهي لا تضعف إلّا إذا دخلتها الغفلة وسيّرتها الشّهوة. ولهذا؛ فالفكر ارتقاء يمكّن الآخذين به من التفكير فيما يفكّرون فيه حتى يفكّروا في غيره.

ولهذا؛ فالارتقاء لم يكن نتاج العاطفة، بل هو نتاج حسن تدبّر لصناعة المستقبل المشبع للحاجات المتطوّرة والمتنوّعة، والممكّن من بلوغ الغايات العظام التي تجعل من الإنسان قيمة مقدّرة؛ فينبغي أن يرتقي الإنسان علما ومعرفة وخُلقا، وأسلوبا، وإلّا سيجد نفسه في منازل المستهلكين الذين يعيشون ليومهم عالة على جهود المنتجين والمبدعين وأهل الحُجّة والحكمة؛ فهم بهذه الأعباء يُجهدون المنتجين ويُشَدّونهم للخلف ممّا يجعل الفارق كبيرا بين الجهد المبذول من أجل بلوغ قِمم الارتقاء، والحاصل المنتج الذي تُنتجه الصّفوة العاملة والمتطلّعة ارتقاء.

ولهذا؛ فالجيوش والطّلبة مع أنّهم حيويّة المجتمع، لكنّهم في الغالب هم مستهلكون ممّا يجعلهم عبئا على جهود المتطلّعين لكلّ ما من شأنه أن يحدث النُقلة والارتقاء، ومن هنا، وجب أن تكون القاعدة: تحويل الجيوش إلى ميادين التدريب والتأهيل والإنتاج، أمّا الاستثناء: أن يعدّوا مقاتلين متى ما دعت الضّرورة من أجل المحافظة

على درجات سلمّ الارتقاء، وهكذا الطّلبة ينبغي أن لا يقضوا جلّ وقتهم تعليما على أيدي الملقِنين، بل يجب قضاؤه في تعلّم العلوم الممكّنة من الحياة ارتقاء مع تعلّم الخبرة والتّجربة الممّكنة من ميادين العمل المنتج والمبدع على أيدي المتطلّعين إلى ما هو أفيد وأعظم.

أمّا الأطفال والمعاقين والعجزة فحقّ الرّعاية والعناية مسؤولية وطنية أولى. أي: إنّ معرفة الحقيقة شيء مهم، ولكن الأهم أن تمكّن معرفة الحقيقة من معرفة الحلّ.

مراحل الارتقاء الفكري:

عبر التّاريخ والمنحنى التكراري للسّلوك والفعل البشري بين هبوط وصعود؛ فمع أنّ الإنسان خُلق ارتقاء (سويّا) على صراط مستقيم، لكنّ سلوكه وفعله انحدر إرادة عمّا خُلق عليه من ارتقاء واستقامة فالإنسان لم يُخلق على الانحراف والحيوانية، بل خُلق في أحسن تقويم، عقلا وصورة، ولا مثيل له، {أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[59]، ومع ذلك، انحدر دونية عمّا خُلق عليه من حسن قوام وتقويم، عندما خالف أمر ربّه الذي نهاه عن الأكل من تلك الشّجرة، ومن هنا، نلاحظ أنّ النقطة الصّفرية التي بدأ منها رسم المنحنى التكراري لسلوك الإنسان وفعله، لم تكن من دونية إلى علوٍّ ورفعة، بل كانت من علوٍّ إلى دونية،

[59] الملك 22.

وهذه أوّل مخالفة (أوّل استثناء) والتي أعقبتها استثناءات كما هو مبين في الشكل رقم (1) الذي فيه الخط الأفقي يمثل المستوى القيمي، والخط العمودي يمثل المستوى الخَلقي.

ومع أنّ السّلوك والفعل أخذا الاتجاه إلى الدّونية، ولكنّهما توقفا عند الخط الأفقي للقيم لحظة استغفار آدم عمّا ارتكبه من فعل وأقدم عليه من سلوك وعمل؛ فكان له الارتقاء حتى اصطفاه الله نبيا على الملائكة والجنّ والإنس (زوجه). ثمّ بقيت تعاليم آدم من بعده ارتقاء كما أنبأه الله وأعلمه بها بين أيدي بنيه رفعة وارتقاء، إلى أن انحدر أحدهم قيما يوم أن قتل أخاه بغير ذنب (الاستثناء الثاني).

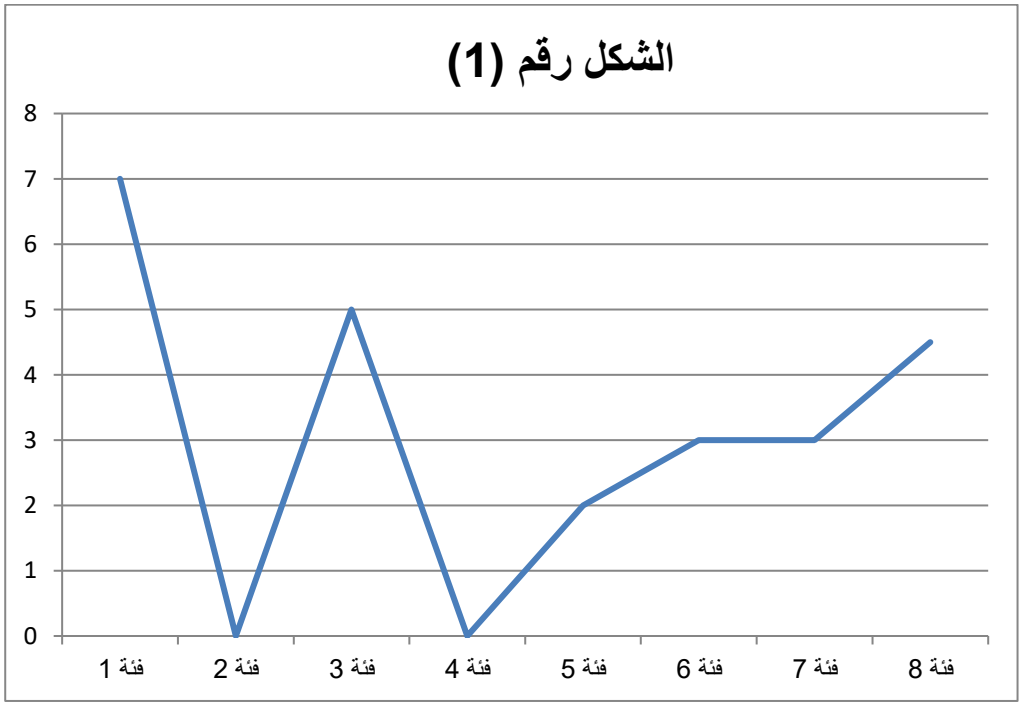

وظلت الحياة بين بني آدم بين من يرى الخير قيمة فيتّبعه، ومن لا يراه كذلك فيخالفه، فوُلد الصّراع بينهم يوم أن ظهر الأنا على حساب الآخر، ثمّ تعاظم بتعاظم بني آدم عددا وشهوة وحاجة، بداية من حياة الفطرة التي عاشها أبوهم جنّة، ثمّ حياة الاختيارات المتنوّعة التي استوجبت إيجاد نُظم تنظم العلاقات بين المختلفين والمتخالفين على ظهر الدّنيا؛ فكانت الحياة بينهم فوارق، عبيد وسادة، فقراء وأغنياء، بدو وحضر، طبقة عليا وطبقات دنيا، إقطاعيون وخدم، ولهذا، ظل المنحى التكراري للقيم بين المختلفين والمتخالفين على غير استقرار (بين قاعدة واستثناء)، بالرّغم من بعث الأنبياء والرّسُل لأقوامهم وشعوبهم وأممّهم وللكافّة، وسيظل الخلاف بين النّاس ما ظلّت الحاجة والجهل والإقصاء والتهميش والهيمنة والظلم والعدوان.

وفي المقابل ستطوى الهوة بين النّاس إشباعا للحاجات المتطوّرة، مع عدالة تُمكّن من ممارسة الحقوق، وأداء الواجبات، وحمل المسؤوليات، وتحفّز على المزيد من البحث العلمي. وإلى جانب تلك المراحل الخَلقية (الفطرية) جاءت بوادر أخرى كان النّاس فيها بين ارتقاء ودونية (بين قاعدة واستثناء) فكانت مراحل تكوين الدّولة.

. مرحلة العبودية:

ظهرت هذه المرحلة بعد انتهاء مرحلة الصّيد، وظهور الملكية الخاصّة والعمل في الزّراعة؛ فتكوّن المجتمع المشاعي الذي قبل البعض

فيه التكيّف ضرورة (استثناء) حيث تحكّم الحاجة وتسلّط الملّاك؛ فظهرت قيم جديدة على حساب كرامة الإنسان الذي قبِل العبودية، وارتضى أن يبيع نفسه للغير (جهدا ووجودا) حتى أصبحت أسواق العبيد منتشرة بيعا وشراء.

ومن ثمّ، تطوّرت مرحلة العبوديّة زيادة في الدّونيّة من بيع الجهد، إلى بيع الأبناء، ثمّ إلى بيع النّفس، وهنا يكمن الاستثناء، في مقابل القاعدة (إنّ الإنسان لم يُخلق عبدا) ولهذا، تظل العبودية استثناء في مواجهة الحرّية قاعدة.

وتنوّعت أسواق العبوديّة بين من قَبل بيع بنيه ونفسه، أو بيعهم جميعا من قِبل مالكهم دون أن يكون لهم رأي حتى في الثّمن الذي سيباعون به سوقا، وكذلك كان أسرى الحروب عبيدا يباع جهدهم ثمّ يباعون.

ومع أنّ القاعدة الخَلقيّة تستوجب صون كرامة الإنسان، ولكنَّ الاستثناءات تعدّدت في زمن العبودية، وقوّضت الحريّة؛ فبعث الله الرّسُل آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر، ومحرّضين على تحرير العبيد، {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَا وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ

مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ}60، ولأنَّ الحرّية هي القاعدة، والعبوديّة هي الاستثناء جاءت الرّسالات تنزيلا مرسّخة للقاعدة ومقوّضة للاستثناء.

. مرحلة الإقطاع (feudalism):

بعد أن كانت الأرض وفقا للقاعدة الطبيعية فسحة للنّاس تنقلا ورعيا وصيدا، أصبحت إقطاعيات تحت سيطرة من يمتلك القوّة والنّفوذ استثناء، فيها جهد المنتجين على حساب ممارسة الحريّة يباع ببيعهم في أسواق المزاد عبيدا، وفيها حيازة الأرض تتّسع، وكذلك التمدّد على حساب الغير سلما وحربا، وفيها الولاء للأشخاص والتكيّف معهم علّة من عِلل الحاجة، ذلك هو الإقطاع الذي يمثّل مرحلة من مراحل تأسيس الدّولة اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وحربيا؛ فالإقطاع أساسه امتلاك القوّة، ولا مجال فيه لأن يتمكّن أهل المنطق والقيم والفضائل الخيرة المستمدّة من الدّين من المنافسة والسيّادة؛ فكان حكم الاستثناء بدلا من حكم القاعدة الطبيعية (الناس خلقوا أحرارا فليبقوا أحرارا)، ولذلك يعدّ الإقطاع استثناء؛ لكونه وجودا على حساب الغير (جهدا، وملكيّة، وحرية).

60 النساء 92.

مرحلة رأس المال:

رأس المال امتلاك ثروة من بَلغها بلغ التمكّن من توظيف جهد الغير وأفكاره استثمارا أو استغلالا (سلبا أو إيجابا)؛ ذلك لأنّ الغنى غاية النّاس، وهذه قاعدة، أمّا الفقر؛ فلا أحد يأمله وإن حدث؛ فهو الاستثناء (الشذوذ عن القاعدة)؛ ولذلك؛ فالنّاس ارتقاء يأملون الغنى، وفي المقابل انحدارا يعيشون الفقر والألم. ولا عيب في امتلاك رأس المال، بل العيب أن يتمّ استغلال النّاس به، ومن ثمّ؛ فالعيب لا يلحق رأس المال، بل قد يلحق الكيفيّة التي بها أصبح رأس مال، فإن كان شرعيّا غير منهوب بأيّ أسلوب من أساليب التحايل والنّهب؛ فهو من حقّ مالكه عملا أو إرثا، وهو لا يتعارض مع قاعدة التملّك، أمّا إذا كان نتيجة استغلال جهد الغير، أو على حساب وجودهم بأيّة علّة؛ فهو العِلّة في ذاتها.

ومن ثمّ؛ فالغنى ارتقاء غاية عظيمة، ينبغي السّعي إليها جهدا وعملا واستثمارا، على ألا يكون على حساب جهد الآخرين، ولا على حساب حقوقهم.

ولأنّ الإنسان غايته الارتقاء حتى بلوغ الجنّة فمهما بلغ من النّعيم فهو لايزال في حاجة لنعيم أعظم؛ ومن هنا؛ فعليه أن يعمل كلّ ما من شأنه أن يمكّنه من بلوغ الجنّة نعيما وافرا، دون أن يغفل عن حقوق الآخرين فيما يمتلك من ثروة (زكاة وصدقة وضريبة)، إلى جانب

عدم غفلته عن أهميّة الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة في تنظيم العلاقات، وبناء الدّولة الوطنيّة.

وعلينا أن نميّز بين الاستغلال والاستثمار؛ فالاستغلال لا يكون إلّا على حساب جهد الغير، أمّا الاستثمار؛ فلا يكون إلّا برأس مال مضاف إلى الجهد المشترك مع جهود الآخرين؛ لكونهم جزءا من العملية الإنتاجية والاستثمارية، وهنا، يصبح العائد على ذوي العلاقات الاقتصادية وفقا للمستثمَر (ثروة وجهدا)، وهذه هي القاعدة، أمّا الشذوذ عنها؛ فلا يكون إلّا استثناء بلا مبررات، وبخاصّة عندما تستغل الجهود من قبل من يمتلك الثروة بلا عدالة.

ومع أنَّ جذور النّظام الرّأسمالي ضاربة في تلك الفلسفة الرّومانية القديمة، التي رغبت امتلاك القوة وبسط النفوذ والسّيطرة، ولكنّها تطوّرت مع التاريخ من الإقطاع إلى البرجوازيّة ثمّ من بعدها إلى الرأسمالية المعزّزة للملكيّة الفردية وممارسة الحرّيّة.

ولأنَّ الغنى ارتقاءً رغبة بشرية؛ فبلوغه لا يعدّ شذوذا عن القاعدة، بل الشذوذ ألا يعمل الإنسان ليكون غنيا، وله من رأس المال ما له مشروع.

فالرّأسمالية تبحث عن الرّبح بشتى الطّرق والأساليب المشروعة، وهذه قاعدة، وفي المقابل لا أحد يعمل بأمل تحقيق الخسارة، ولهذا فالخسارة هي: الشّذوذ عن القاعدة، ومن ثمّ؛ فعلينا أن نميّز بين

الخسارة، والرّبح، والرّبا؛ فالخسارة تسيء لرأس المال، وهي الاستثناء، وكذلك الرّبا استثناء؛ لكونه نتاج الاستغلال وآلامه، أمّا الرّبح؛ فهو القاعدة؛ كونه الزيادة المشروعة، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً}61، أي: من حقّ الإنسان أن يحافظ على رأس ماله، ومن حقّه أن لا يخسر، ولكن لا حقّ له أن يستغلّ جهد الغير بما يسيء لأحوال النّاس المعيشية والسياسية والاجتماعية، ومن هنا؛ فالقاعدة: (اعمل ما شئت من المشاريع المشروعة دون أن يترتّب على ما تُقدِم عليه من عمل ما يؤلم النّاس)، ومن حقّك أن تكسب وتنافس جودة دون استغلال الآخرين، أو أن تكون مكاسبك على حساب معيشتهم أو كرامتهم.

إذا؛ فالقاعدة: العمل المشروع أساس المكاسب والغناء، والعمل غير المشروع شذوذ عن القاعدة، وإن كانت من ورائه مكاسب وغنى.

مرحلة الشيوعيّة:

لقد عَبَرت الإنسانيّة التّاريخ بمراحل التغيير بين ارتقاء ودونية، وكأنّها لم تستفد من تجاربها، ذلك لأنَّها لم ولن تستطع طي صفحات الاستثناء ولن؛ ولهذا ظل مُنحنى الارتقاء التكراري معرّضا للانتكاسات، وسيظل.

61 آل عمران 130.

ومع أنَّ مرحلة الشّيوعية جاءت لاحقة على مرحلة الرّأسمالية، ولكنّها لم تلغها، ولم تحلّ محلّها، بل جاءت تنظيرات لمجموعة من المفكّرين على رأسهم: أنجل، وماركس المرسّخان لمبادئ تأسيس الدّولة على قاعدة الملكية المشتركة لوسائل الإنتاج، وحكم الحزب الواحد، المحاط بطبقة البروليتارية، مع تفسيرهما المادّي للتاريخ، وتقييدهما للمنافسة الحرّة، واعتبارهما أنَّ الدّين قيد ينبغي أن يفكّ، كما أن تنظيراتهم ترى أنّ لكلّ فرد عمله وحسب حاجته، وليس حسب جهده، وأنّ الشيوعية تترسّخ بالقوّة وتعمّم اقتصادا وسياسية واجتماعا. ولكن بطرحهم هذا، كمن يقول: اقلبوا القاعدة استثناء، والاستثناء قاعدة.

ولأنّ المبادئ الشّيوعية تأسّست على مواجهة الإرادة (القاعدة)؛ فهي قد تأسّست على الإكراه (الاستثناء)، ولذلك سيظل حكم الحزب الواحد وإدارته للدّولة حكما استثنائيا لكونه مخالفا لطبيعة المواطنة التي فيها الحقوق يجب أن تمارس عن إرادة، والواجبات تؤدّى عن رغبة، والمسؤوليات تحمل وإن كانت أعباء.

ومن ثمّ، يعدّ الحكم الشّيوعي حكما استثنائيا، من حيث مواجهته للقاعدة التي لا ترى ارتقاء للدّولة إلّا بمشاركة مواطنيها سياسة واقتصادا واجتماعا، مع مراعاة الخصوصيّة للأفراد والجماعات والمجتمعات، ولا إكراه.

مرحلة الفوضويّة:

مع أنَّ الاستثناء خروج عن القاعدة، ولكنّ البعض لا يراه إلّا حلّا كما هو حال الفوضويّة التي تعدّ من وجهة نظر برودون حلّا للمشكل السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وبخاصّة عندما تنكسر هيبة الدّولة وتحلّ محلّها الجماعات الحرّة التي لا قيود عليها سوى إرادتها ومشيئتها الخاصّة.

ولأنَّ الفوضويّة استثناء، والبعض يطالب بها حلّا؛ فهي عبر التّاريخ تهدّد الأنظمة والسّلطات، وتعدّ أسلوبا ضاغطا على مؤسّسات الدّولة، وهي دائما بمثابة المعارضة غير الديمقراطية؛ لكونها خروجا عن الفضائل والقيم (خروج عن القاعدة).

وتتمركز فكرة الفوضوية على إلغاء الدّولة، بهدف تحرير الفرد من قيودها، وقيود المجتمع بأسره، ثمّ يرى برودون أنّ ما يفسد الحياة الاقتصادية هو: نظام النقد والفائدة اللذان يؤدّيان ببعض الأفراد إلى استغلال الآخرين؛ فهو يدعو إلى استبدال هذه الأنظمة بعقود حرّة بين الأفراد والجماعات يتعهد الجميع على التمسك بها، ومن ثمّ، يحلّ مكان الدّولة نظام اتحادي يقسّم السّكان بموجبه إلى جماعات سياسية صغيرة تنظم علاقاتها على أساس التعاقد الحرّ.

ويرى برودون أنّ الإنسان من طبعه يميل إلى التمسّك بالنّظام وقواعد العدل، وأن ميله هذا كفيل بتحقيق التفاهم والانسجام بين

البشر، ولا مُفسد لذلك إلّا قيام الدّولة. ومن ثمّ، يعدّ كل مواطن مشروعا لنفسه، ولا داعي للمؤسّسات، ولهذا، قال الفيلسوف الألماني كاسبر شميدت: "لا يوجد شيء أعلى أو أسمى مني، إنّني أعلنها حربًا ضدّ كلّ دولة حتى ضدّ أكثرها ديمقراطية"[62].

ومع أنّ البعض يعتبر الفوضويّة نوعا من النّظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي، ولكنّه نظام خارج عن النّظام، (شذوذ عن القاعدة).

ولأنّه شذوذ عن القاعدة؛ فسيظل شاذا عنها، وملازما لها، وأينما حلّت حلّ معها جنبا إلى جنب، ومع إنّه الشذوذ عن القاعدة؛ ولكنّه المتكوّن من مجموع السّالب والموجب، ولذا؛ فلا شذوذ إلّا في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع (سلبا وإيجابا).

ولأنّ لكلّ قاعدة شذوذ؛ فلا استغراب أن يتمدّد الشذوذ استثناء كلّما شاخت القاعدة. ومن هنا، يعد الشذوذ موقظا للعقل انتباها بغاية إعادة الاستقراء وإضافة الجديد ارتقاء.

ولأنّه الشذوذ عن القاعدة؛ فلا يمكن أن يكون حلّا، حتّى وإن كان على شيء من الإيجابية.

وعليه:

---

[62] رءوف عباس ، أوراق هنري كوبيل والحركة الشيوعية المصرية، ترجمة عزة كامل، الطبعة الأولى، سينا للنشر القاهرة، 1988 م.

لم تكن مراحل تنظيم العلاقات البشرية منفصلة مرحلة عن أخرى؛ فهي مراحل تتداخل بلا قطيعة؛ فحيثما كانت القاعدة كان الشذوذ استثناء، فلو أخذنا الدّين على سبيل المثال: لوجدناه منذ أن خُلق الإنسان الأوّل وهو لم ينقطع تنزيلا في كلّ المراحل التي مرّت البشرية بها ارتقاء وانحدارا، وكذلك لو أخذنا حياة الفطرة أو التقليد أو حتى زمن الأساطير لوجدناها مازالت في الأنفس على قيد الحياة في أقوال البعض وفي أفعالهم وسلوكياتهم وأعملهم، وفي كلّ المراحل، ولهذا، تستمدّ الخصوصية أعرافها وأديانها، وتُكتسب هويّتها جيلا بعد جيل، والاعتزاز يملؤها ثقافة.

وبمراجعة مراحل التطوّر والارتقاء البشري، نلاحظ أنَّ الانحدار قد التصق أوّل ما التصق بأوّل الخَلق الآدمي (آدم)، ثمّ التصق بأوّل أبنائه نطفة، ثمّ اتّسعت دائرة الانحدار فوضى مع تكاثر بني آدم، ولكن المواجهة مع الانحدار كانت جادّة باصطفاء الأنبياء والرّسل عليهم الصّلاة والسّلام؛ فكان الارتقاء إيمانا بالحقّ ووجوب اتباعه، ومع ذلك، ظلت المواجهة بين ما هو فطري وأسطوري، وما هو مُعجز؛ ممّا حفّز العقل الإنساني إلى توليد الفكرة من الفِكرة، فكان الارتقاء وعيا في مقابل الانحدار جهلا، ومع ذلك ظلّت الفوضى هي المتغيّر المتربّص بكلّ تقدّم وارتقاء؛ فحيثما تُبنى حضارة تُهدّ بأيدي بُناتِها، وحيثما تؤسّس دولة تسقط بأيدي بنيها، {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا

كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ}63. ولكن اليأس والقنوط لم يجد مكانا له في عقول وإرادة المؤمنين بأهميّة الارتقاء وضرورته وجودا؛ فكان التعلّم والتعليم من متغيرات الحياة ارتقاء؛ فجاءت النّهضة علما وإعمارا وإنتاجا وتنظيما؛ فكان غزو الفضاء فُسحة الاستكشاف العلمي لمن شاء أن يرتقي إلى ذلك المأمول الذي فقده آدم (العيش النّعيم)، وفي المقابل ظلّت الفوضى بألوانها المختلفة (الثُلث المعطّل للإرادة)؛ فمرّة تأخذ صفة العبودية، ومرّة تأخذ صفة استعمارية (احتلال الدّول)، ومرّة تأخذ صفة الجوع، وأخرى تأخذ صفة المظلومين، وهكذا تتولّد الفوضى من رحم الأنظمة، ومع ذلك؛ فهي مرّة تؤدّي بأصحابها إلى الانحدار، وأخرى تؤدّي بهم إلى النّهوض.

فذلك الإنسان الأوّل (آدم) الذي خَلقه الله في أحسن تقويم، وعلّمه ما لم يكن يعلم، فكرّمه، وفضّله على كثير ممّن خلق، واصطفاه نبيا للملائكة والجنّ والإنس، كان وزوجه أساس التكاثر، والتناقض؛ فهو أساس الارتقاء والانحدار، والفوضى والنّظام، والقوّة والضّعف، والاختلاف والاتفاق، والخطأ والصّواب، ومع ذلك؛ فهو مصدر المعرفة الواعية بعد أن أنبأه الله وعلّمه، ولأنّه كذلك؛ فهل يصدق عليه القول: كان يأكل اللحم نيّا، ولم يكن يعرف النّار؟

هكذا كُتب تاريخ الإنسان الأوّل، وكأنّه لم يكن آدم (أوّل الخَلق البشري)، تاريخ كُتب بلا وثائق، ولا شواهد دالة على ما كُتب،

---

63 الرّوم 41.

ومع ذلك أُخذ حكما، وكأنّه مسلّمات، وفيه صورة الإنسان الأوّل رُسمت بعقل من ظنّ أنّ أصل الإنسان الأوّل قرد، ثمّ تطوّر، وهذا ما يخالف قوله: {وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ}64.

ولذا؛ فالإنسان الذي خُلق على هذه الصّورة، وعلّمه الله الأسماء (الأسرار) التي منها النّار؛ فكيف يُقبل ما قيل عنه: لقد عرف النّار مصادفة، ومن يصدّق هذا القول، كمن يصدّق أنَّ النّار لم تكن اسما، {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا}65، ولأنّ الله علّمه الأسماء كلّها؛ فهو يعلم الأسماء والأسرار التي من ورائها بلا استثناء.

ومن ثمّ؛ فمع أنَّ الإنسان خُلق على الارتقاء، ولكنّه انحدر رغبة وغفلة، ثمّ انتبه لأمره ارتقاء؛ فاستغفر لذنبه؛ فتاب الله عليه، وجعله من المكرّمين، {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}66. ومع إنّهم المفضّلين، ولكنّ البعض غير مقدّرٍ لهذا التفضيل؛ فمنهم من ضلّ، ومنهم من اهتدى، وهم لا يزالون مختلفين وسيظلون كذلك.

ولأنّهم مختلفون وسيظلون كذلك؛ فهم في حاجة للالتقاء والحوار والجدل من أجل الاتفاق، ولهذا؛ فالمختلفون هم الذين في حاجة

---

64 التغابن 3.

65 البقرة 31.

66 الإسراء 70.

للالتقاء، وليس أولئك المتفقين؛ فالمتفقون كلّما التقوا كرّروا أنفسهم، حيث لا جديد يضاف.

ولذا؛ فمن أراد أن يجد لنفسه مكانة وارتقاء؛ فعليه بالالتقاء مع المختلفين بهدف الاتفاق، حتى لا يكون الالتقاء وكأنّه غاية في ذاته. ثمّ عليه بالتذكّر ارتقاء؛ كي يتجاوز المتذكّر ما يعيق أو يسيء ويؤلم؛ فيأخذ بما يفيد من عبر ومواعظ وتجارب إنسانية تفاديا لما يؤزّم العلاقات أو يؤخّر التقدّم تجاه ما يفيد، ولذلك؛ فالتذكّر يمدّ المفكّرين والمخطّطين بما يحفّزهم على بلوغ ما يجب الإقدام عليه ارتقاء.

ومع أنّ التذكّر يرتبط بالموروث المعرفي والتّاريخي، ولكنّه بالنّسبة لمن خُلق أوّلا (آدم) لا وجود له، لكونه لم يمرّ بمرحلة الحمل والطفولة والمراهقة؛ فهو قد خُلق على الرّجولة خلقا، وبالتّالي ليس له ما يتذكّر، ولكن بعد أن علّمه الله وأنبأه، أصبح لديه رصيد واسع من العلم والمعرفة؛ فيُمكنه أن يتذكّره، ليذكّر به الغير، {قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ}67 فتلك الأسماء التي أصبحت في محفظة عقل آدم، وتمّ استدعاؤها، أنبأ بها الملائكة حجة؛ فسلّم الملائكة لآدم بعد إن كان الرأي اختلافا.

ولكن على المستوى البشري من بعد آدم؛ فالتّجارب الإنسانية متشابهة، ويمكن تكرارها، فيكون النّظر إلى تلك التجارب من باب

---

[67] البقرة 33.

البحث عن حلولٍ علّها تكون ناجعة في معالجة ما يحدث، وهنا تكون النّظرة إلى الماضي من باب البحث عن كلّ ما من شأنه أن يسهم في الوصول إلى حلّ، حتى وإن كان افتراضيّا، لأنَّ الكثير من المشاكلّ تحتاج إلى اتكاءات جديدة تكون قادرة على حلّها؛ فيحدث الانزياح المراد ضمن توليفة يُجمع فيها في بعض الأحيان حتى النقائض التي لا يتوقّع لها أن تجتمع في يوم من الأيام.

وقد يكون الخوف حاضرا فيها، لكونه يمثّل الانطلاقة الأولى التي يكون على أساسها الوصول إلى الغايات المرجوة؛ فالبحث عن اتفاق وحلّ يكمن من خلفه وجود خوف يحفّز ويرشد بطريقة أو بأخرى إلى تجنّب ما يجب تجنّبه وأخذ ما يجب الأخذ به؛ فيكون الاستشعار في هذا التوجّه قائما على درجة عالية من الحذر كي تكون النّهاية ملبّية للخوف المجنّب من الوقوع في السُفلية ومؤدّيا إلى ارتقاء مأمول.

وعليه:

وجب التدبّر باعتباره دراية عقلية يرتقي بحاضر أصحابه إلى ما يمكّنهم من الأخذ بما ينبغي في سبيل إحداث النُقلة سياسة واقتصادا وعلما وحداثة، نُقلة تطوي صفحات الحاجات المتطوّرة بمشبعات مُرضية وفقا للفرضيات التي تأسّست عليها؛ ممّا يجعل المعالجة منطوية على إيجاد حلول سريعة يمكن من خلالها تفادي المشكلّة، أو حلّها من

جذورها؛ فالتدبُّر ارتقاء يمكّن من مواجهة المفاجآت التي يمكن أن تحصل دون أن تترك أثرا سلبيا.

أمّا التفكّر ارتقاء؛ فهو الذي لم يكن منزويا عن الماضي والحاضر، بل هو مرتبط بهما ويمثلان له قاعدة التأسيس لكلّ الافتراضات التي من شأنها أن تكون مسهمة وفاعلة في صناعة المستقبل المأمول ارتقاء.

ولأجل النّهوض ارتقاء، وجب المزيد من البحث العلمي الممكِّن من المعرفة الواعية التي بدورها تُمكّن من الإسراع في طي الهوة بين المأمول والأمل، وذلك بما يطوي مشاعر الخوف طمأنينة، ويخلّص من الحيرة حلّا بعد تأزّم، فالبحث العلمي ارتقاء يستوجب أسلوبا مرنا، وطريقة تستوعب التاريخ تجربة ومنهجا ووسيلة.

ولأنَّ الإنسان قد خُلق في أحسن تقويم؛ فليس له بدّ إلّا المحافظة على حُسن تقويمه، وهذه قاعدة، ولكن إن انحدر استثناء، وبأيّة علّة؛ فليس له إلّا النّهوض، وهذه قاعدة أيضا.

ولأنَّ الانحدار بين قاعدتين (حُسن الخَلق، وضرورة الارتقاء)؛ فهو باق ما دمنا باقين، وله الثلث في حياتنا من المورث انحدارا، ولهذا؛ فلا داعي للقلق بما أنّنا نرث الثلثين (خلقا وارتقاء)، ولكن هذا لا يعني: أن نظل كمن ترك له أبوه إرثا ولم يستثمره؛ فانتهى صفرا.

ولأنَّ لكلّ قاعدة شذوذا إذن: فلا إمكانية لبلوغ الحلّ كمالا؛ فتلك الجهود عبر التّاريخ، وهذه الجهود، ستتلاقح ارتقاء بغاية إنتاج الفِكْر المِمكِّن من إشباع الحاجات المتطوّرة.

ولأنّ الارتقاء رغبة وأمل، إذا؛ فسيظل أملا، ولا يُمكن أن يلاحق إلّا بالعمل إنتاجا وإعمارا وبناء وبحثا علميا، مع الاهتمام بالقيم التي تنال التقدير من النّاس.

فكِّر لتعرف كيف تُفكِّر:

الإنسان مع أنّه عاقل إلّا انَّه إذا لم يفكّر فيما يفكِّر فيه قبل أن يحدث قد يجد نفسه في دائرة الممكن في غير المتوقّع، ومع ذلك ليس له بدّ إلّا أن يفكّر حتى يعرف من جديد كيف يفكّر.

إنَّ الاعتماد على الفكرة المسبقة بفكرة مسبقة قد يؤدّي إلى قولبة العقل وجعله في حالة تبعية للفكرة التي تؤدّي به إلى التعارض مع ما يجب، والتمسّك بذلك يجعل الفكرة غير فاعلة والتفكير غير مُفعَّل.

فالفكرة الفاعلة هي الفكرة المفتوحة المستوعبة لِما ينبغي والمتطلّعة بأصحابها لِما يجب؛ لذا تُقبر أفكار البعض عندما يصبح هذا البعض يدافع عن الفكرة وكأنّها ثوابت لا تتغيّر أو لا تتحسّن؛ فعندما يتبنّى الإنسان فكرة تستعبده عندها ستموت الفكرة ويصبح متبنيها بلا حُجَّة وكأنَّه فقد ملكة التفكير، ولهذا ينبغي أن يفكّر ليعرف كيف

يفكّر وإلّا سَيُقبر ما يفكِّر فيه قبل أن تقبر تلك الفكرة المتبناة؛ ذلك لأنَّ الفكرة السّابقة على الفكرة قد تكون قيدا عليها، وقد تكون داعمة لها، فهي قيد عليها عندما تكون مُقفلة (إقصائية)، وهي داعمة لها عندما تكون على الاستنارة (استيعابية).

وهناك تداخل علائقي بين التفكير والفكرة؛ فمن الصّعوبة بمكان تناول أحد هذين المصطلحين بمعزلٍ عن الآخر؛ ذلك لارتباطهما الشديد لغةً ومعنىً؛ فتفكيرنا في الشيء أو تفكُّرنا فيه يعني أنّنا قمنا بعملية (التفكير) الذي قد يولِّد فكرةً أو يولِّد فكر أو أفكار أخرى تضيف معارف جديدة متطوّرة.

وعليه: فالفكرة هي ناتج عملية التفكير وهي مولود هذا النشاط الذّهني، ولكن هل بوسعنا القول أنّ التفكير هو مقصور على التفكّر أم هو عملية مركَّبة يمتزج فيها التذكّر والتفكّر والتدبّر؟

إنَّ رغبتنا في الحصول على صورةٍ واضحة المعالم عن شيءٍ ما وعن صفاته التي يتّصف بها أو خصائصه التي يترابط بها ويتفاعل مع الأشياء الأخرى قد يقتضي استدعاء واسترجاع بعض المعلومات والحقائق الجاهزة المحتويات في صفحات الماضي بغية الاستفادة منها واستقراء نتائجها؛ لتوليد فكرةٍ مستقبلية نتطلّع بها إلى ما هو متوقّع وإلى ما هو غير متوقّع، ممّا يرشد إلى اتحاد كلٍّ من التذكّر والتفكّر في إنتاج الفكرة، ولذا فإنْ كان التذكّر مقتصرا على استدعاء واسترجاع المعلومات والحقائق الكامنة في الماضي، فإنَّ التفكّر لا يهتم باستدعائها

بقدر ما يتطلّع إلى ما هو متوقّع وغير متوقّع، وهذا لا يعني إلغاء الماضي، بل الاستفادة ممّا يُستنتج منه لتوليد أفكار مستقبلية، ففي الماضي تكمن المعلومات وتتراكم المعارف والخبرات التي تجعلنا في حالة تفكُّر مصداقا لقوله تعالى: {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}68 ولذا فالأفكار في حالة امتزاج حيث بها يُستقرأ الماضي، وبها يتمّ التطلّع إلى المستقبل فنقف على عتبات الماضي بالقدر الذي يزوّدنا بالخبرة التي تمكننا من استخدامها في التفكّر وتوليد الجديد وفقا لمنطق توليد الفكرة من الفكرة والمعلومة من المعلومة، وعليه:

لِمَ لا نفكّر أوّلا كي نعرف عن تبيّن كيف نفكّر ثانيا؟

أقول:

بالرّغم من أنَّ أصل كلّ شيءٍ فكرة، إلّا أنَّ حوار الفلاسفة ملئ بالتباين في تحديد مفهومها وإن أجمعوا على اتصالها المباشر بالتفكير انطلاقا من تعريفها بأنَّها تصوّر ذهني؛ فالفكرة عند أفلاطون تفيد الماهية أو المثال أو الشيء بالذّات المفارق للمادّة، وفي المذهب التصوّري تصوّر ذهني، وفى المذهب الحسي صورة ذهنية مستمدّة من

68- الحشر 21.

العالم الخارجي، وعند الفيلسوف كانت هي تصور ذهني يتجاوز عالم الحسّ ولا ما يماثله في هذا العالم المتغيّر والمتطوّر69.

إذن: الفكرة هي تصوّر ذهني، وفي ذلك إشارة إلى العلاقة التي تربط بين الفكرة والعقل باعتباره المجال الذي تحدث فيه التصوّرات الذهنية عن الأشياء أو الأشخاص، إلّا أنَّ العقل في اعتقادنا لا ينفرد بهذه العملية (عملية تكوين الفكرة)؛ لأنَّ اكتمال هيئة الفكرة يتمُّ بمشاركة بين العقل (كحاسة داخلية) والحواس الخارجية، ولذا فالعلاقة بين العقل والحواس هي علاقة اتّصال وترابط فلا مجال لاستقلال العقل عن الحواس أو تجاوزه لها أو سموه عنها؛ فالفكرة تحمل في أثنائها مفاهيم عديدة، ومفاهيمها تلك تختلف باختلاف المواقف، فعندما نقول على سبيل المثال: إن فكرتنا عن الشّجرة هي أنّها كائن حي، مخضرّ، ينمو، يتنفس، يشرب، ويتغذى؛ فهذا الأمر يدّل على أنّ الفكرة التي ارتسمت في الذّهن عن الشجرة مساوية لماهية الشّجرة في الحقيقة، وعندما نقول إنّ فكرتنا عن شيء مستقبلي لم تكتمل ملامحه بعد هي كذا وكذا؛ فهذا يدلّ على أنَّ الفكرة هي شيء متخيّل في الذهن، وإذا اعتقدنا في إمكانية أن يمنحنا كِتابٌ ما فكرةً جيدة عن حياة الهنود الحمر، فهذا يعني أنَّ للفكرة صورة يُمكن أن تُطبع في الذّهن، ممّا يجعلها

69 مراد وهبة، المعجم الفلسفي. القاهرة: دار الثقافة الجديدة، الطبعة الثالثة، 1979، ص311-312.

قابلة للملاحظة قبل أن تكون في متناول المشاهدة، وهذه تجعل الصّورة سابقة على ما يجسّدها قبل الحدوث، فهيئة المقعد سابقة في الفكرة قبل تجسدها في شكله القابل للمشاهدة، وهيئة السكّين قابلة للملاحظة الذّهنية قبل أن يتماثل السّكين للمشاهدة البصرية؛ ولذلك فالفكرة عن الشيء تصبح شيئا بذاته عندما تتجسّد الفكرة في شكلٍ أو صورة. وهكذا الشّكل أو الصّورة دائما بين سابقٍ في الفكرة ولاحقا بها؛ فمن حيث كونها سابقة كونها متجسّدة في الفكرة في ذهن وعقل المبدع، وكونها لاحقة من حيث التعرّف عليها أوّلا ثمَّ استدعاؤها ثانيا بأسباب المعرفة الواعية.

وثمّة أنواع عديدة من الأفكار؛ فهناك الفكرة العارضة، وهي التي تقوم في الفكر بمناسبة حركات واردة على الحواس من الخارج، كاللون والطعم والصّوت والرائحة، وهناك الفكرة الفطرية وهي ليست مستفادة من الأشياء ولا مركّبة بالإرادة، ولكن النّفس تستنبطها من ذاتها، وتمتاز بأنّها واضحة جليّة بسهلة، أمّا الفكرة المتسلّطة فهي ظاهرة ذهنية تقوم في استمرار حالة مرضية مسيطرة ولا يقدر فعل الإرادة على محوها، وهناك أخيرا الفكرة المصنوعة وتلك نركّبها من الأفكار الحادثة، كهيئة ثعلب برأس دجاجة أو غزال برأس أرنب.

وفي كلِّ الحالات السّابقة فإنَّ نشوء الفكرة لا يظهر بمعزلٍ عن تفاعل الفرد مع البيئة التي تشكل له حاضنة، وسواءً أكانت الفكرة تتّسم بأنَّها عارضة أم متسلّطة أم مصنوعة، فإنّها تظهر ممّا يمكن أن

تقتضيه الحياة البشرية بصفة عامّة؛ فالشّعور بأهميّة الشيء قد ينشئ فكرة، والإحساس بالمنفعة المادّية أو الرّوحية أو القلبية أو المعنوية في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع ينشئ الفكرة أيضا، وكذلك الفكرة قد تظهر إبّان الشّعور بأنَّ شيئا ما يمكن أن يشبع حاجة وأن يلبّيها أيا كان نوع هذه الحاجة مادّية أم روحية أم قلبية أم معنوية؛ فطبيعة هذه الحاجات دائما تبحث عن مشبعات غير متساوية وبدرجات وميول ورغبات متفاوتة، ممّا يولِّد في الذّهن جملة من الأفكار التي يكون للسّلوك دورٌ في اختبار مدى فاعليتها، بحيث إذا لم يتمّ التحقّق من فاعلية فكرة معينة في إشباع الحاجة كان ذلك مبعثا على التفكير مرّةً أخرى وتوليد أفكارٍ جديدة؛ فالأنا كونه مفردة بشرية إذا لم يفكّر لن يتمكّن من الامتداد خارج حدود الأنا، ومتى تفكّر يستطيع أن يعرف، وعندما يعرف يستطيع أن يتجاوز حدوده مع الآخرين في فسحة (نحن) التي تترتّب عليها فكرة أخرى من حيث:

- هل نحن سويّا في إدارة الأمر المشترك؟
- هل نحن متساوون في ممارسة الحقوق؟
- هل نحن متساوون في أداء الواجبات؟
- هل نحن متساوون في حمْل المسؤوليات؟

. هل الأمر بيننا على الديمقراطية ولكلّ خصوصيّته التي بها يتميّز من حيث المهنة والخبرة والمهارة والدّور والتخصّص والاختصاص؟ أم أنَّ الأمر غير ذلك في دائرة غير المتوقّع؟

هذه التساؤلات لابدّ أن تترتّب عليها قيم وأفعال في دائرة المتوقّع، تكون هذه القيم والأفعال بين المتوقّع الموجب والمتوقّع السّالب ومنها:

أوّلاً: قيم وأفعال المتوقّع الموجب:

1. الاعتراف.

2 . التقدير.

3 . الاحترام.

4 . الاعتبار.

5 . التعاون.

6 . التوافق.

7 . الانسجام.

8 . الاستيعاب.

9 . تفهّم الظروف الخاصّة.

10 . غرس الثّقة.

هذه القيم الحميدة والأفعال الموجبة تترتّب عليها سيادة قيم التوافق والتماسك والصدق والوفاء وأفعالها التي من شأنها أن تؤدّي إلى السكينة والطمأنينة وإحقاق الحقّ.

ثانيا: قيم المتوقّع السّالب وأفعاله:

1 . الظلم.

2 . القهر.

3 . التعصّب.

4 . المغالبة.

5 . التغييب.

6 . الإقصاء.

7 . الاختلاف.

8 . الصدام.

9 . الهيمنة.

10 . الاقتتال.

هذه القيم والأفعال السّالبة تترتّب عليها قيم الكره والبغض والحقد والكيد والمكر وأفعالها التي بدورها تؤدّي إلى كلّ ما من شأنه أنْ يؤدّي إلى شدّة الخوف بأسباب ارتكاب الباطلِ والإفساد في الأرض، ولكن في دائرة الممكن كلّما اشتدّ الإنسان خوفا تخلّص من الجبن الذي يكبّل إرادته؛ فالتخويف المستمر لابدّ أن يؤدّي إلى التحرّر من الخوف المكبّل للإرادة والحرّية، أمّا ذلك الخوف الذي يصنع المستقبل هو الخوف الإرادي الذي لا يتمّ إلّا عن وعي، ممّا يجعل التدبّر والتذكّر والتفكّر ضرورة للخائف؛ لأجل أن يدرك ما يجب ويقدم على أدائه دون تردّد وقبل أن يفوت الأوان.

فالخوف استشعار للمستقبل واستطلاع لِما قد يَحلّ به وقد يؤثّر تأثيرا سالبا على الفرد أو الجماعة أو المجتمع وما يمتلكون، وحتّى لا يحدث تُبْذل الجهود من قِبل مستشعريه وقاية منه أو استبدالا له، أو استغناء عنه في دائرة الممكن.

ومع أنَّ معظم معلومات العامّة من النّاس عن الخوف هي معلومات عن سالبٍ، إلّا أنَّ حقيقة أمره لا تربطه بسالبٍ؛ فالعامّة على سبيل المثال يخافون من الظلمة، ولكن هل يوجد شيء من مكوّنات الظلمة يخيف؟

وعليه؛ فإنَّ العلاقة قويّة بين الخوف والتدبُّر، وبينه وبين التفكّر، والتذكّر، فالإنسان يتدبّر حاله في الزّمن الآن من أجل أن يستمدّ القوّة التي بها يتمكّن من التذكّر والتفكّر، ويتذكّر الماضي لكي يتدبّر حاضره

عن بيّنة، ويعرف ما يجب أن يَقدِم عليه في مستقبله، أمّا التفكّر فلا يكون إلّا في كلّ ما من شأنه أن يحفّزه على صناعة المستقبل حتى وإن كان فيه ما فيه من الضرورة التي تستوجب معرفة الماضي كي لا تتكرر الأشياء أكثر من مرّة.

وكما أنّ هناك علاقة موجبة بين الخوف والتدبّر والتفكّر والتذكّر؛ فكذلك هناك علاقة سالبة بين الخوف والوهم؛ فالوهم مجرد افتراضات لا علاقة لها بالواقّع (تخيّل ليس إلّا)، أمّا الخوف فلا وجود له إلّا مع واقع، ولهذا فالفرق كبير بين متخيلات الوهم وما يكشفه الخوف حقيقة؛ فالآباء في كثيرٍ من الأحيان يرسمون صور وهميّة في أذهان أبنائهم عن المجهول بالنسبة إليهم بغرض السيطرة عليهم وجعلهم تابعين؛ فالغول الذي ليس له صورة لعدم وجوده حقيقة، صورته لم تمحَ من أذهان الكثيرين من أبناء العالم المتخلّف.

ولأنّ للخوف علاقة وثيقة مع المستقبل؛ فالنَّاس تخاف من مفاجِئات الزلازل؛ فتسعى في البحث لأجل أن تتمكّن من المعرفة العلمية التي تكشف مؤشّرات الزلازل قبل وقوعها تفاديا لِما قد تحدثه من كوارث، ولذا فالمهندسون وخاصّة المعماريون دائما يبحثون عن كيفية إيجاد تصميم معماري يُسهم في تفادي الهزّات الأرضية أو الحدّ ممّا تؤدّي إليه من أضرار.

ولأنّ الخوف فطري؛ فكلّ المخلوقات الحيوانية حالها كحال الإنسان تخاف فطرةً لا تعلّما؛ فالخروف بدون شكّ يخاف الذئب،

والذئب يخاف الكلب، والكلب يخاف صاحبه ولا يخاف أعداءه، وهكذا الدّجاج يخاف الثعالب، والثعالب تخاف الصيادين، ولكن دون تدبّر؛ فكلّ سلوك حيواني يكون الحسم فيه في أثناء المواجهة للأقوى، ممّا يجعل للمفاجئة مكانة في إلحاق المغالبة بين حيوانا وآخر.

والفرق بين الخوف على المستوى العاقل والمستوى الحيواني هو أنَّ الإنسان يخاف فيفكّر ويتدبّر أمره مسبقا من أجل أن يتفادى المخاطر المقدّرة تقديرا بحسبان؛ فالمسلم يعلم أنّ أمامه مستقبل بين (سكينة وألم) وله أن يختار إرادة (جنّةً أم نارا) ولهذا فالمؤمن في حياته الدّنيا يتّقي الشرور ويبتعد عن ارتكاب المظالم خوفا من النّار وحبّا في الجنّة، ولهذا فهو يُصلّي ويُزكّي ويصوم ويتّبع أمر الله ونهيه، فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويسعى للإصلاح في الأرض وإعمارها وفلاحها، أمّا غيره من بني جنسه (الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم)؛ فهم غافلون، ولهذا لم يعملوا على صناعة مستقبلهم وهم في الحياة الدنيا، ولذا فالخوف تفادٍ للفعل المؤلم سواء أكان هذا الفعل في الحياة الدنيا أم أنّه عندما يكون مترتّبا عقابا في الحياة الآخرة على ما لم يُفعل في الحياة الدنيا أو أنّه فُعل عن غير طاعة لما يجب أن يُفعل إرادة.

ولأنّ الخوف يُجنّب الألم؛ فالواعون دائما يتجنّبون لحظة الغضب بحكمة وتدبّر؛ بغرض إضاعة الفرصة على الغاضب وإعادته لرشده، ولذا فإنْ لم يتمّ تفادي الغضب لحظته تحدث المواجهة المؤلمة؛ فتتأزّم

الأمور ويتصدّع البناء الأسري أو العشائري أو أيّ بناء اجتماعي وإنساني على مستوى الأفراد والجماعات وحتى الدّول.

وهكذا العالم المتقدّم دائما في دائرة الممكن يَقدم على كلِّ شيء يمكن أن يُسهم في صناعة المستقبل الأفضل؛ فبالنّسبة له كلّ شيء بحسابه؛ ولذا كلّ يوم نلاحظ أسعار النّفط والذّهب والفضة والعملات وأسعار الأسهم وما شابهها اقتصاديا تتغيّر وتتبدّل قيمها أحيانا بتعديل رؤية في سياسة منظّمة الأوبك أو تصريح من رئيسها أو تصريح من أيّ رئيس له أثر فعّال على السّاحة العالمية، أو إذا وقعت كارثة طبيعية أو غير طبيعية من حروب أو حتّى تهديدات باردة ترتفع بأسبابها أحيانا جميع الأسعار عقاريّة ومالية وذهبية ونفطية وفضيّة وغيرها، وكلّ ذلك بأسباب الخوف التي تجعل الكلّ يفكّر بغاية أخذ الحذر الذي به يتمكّن الإنسان من تأمين مستقبله.

ولأنَّ الخوف يثير العقل تفكّرا وتذكرا وتدبّرا لأجل أنْ يقتنص الفكرة التي فيها يكمن الحلّ؛ لذا لن يكون الخوف أمنا إلّا في الفكرة المقتنصة حلّا.

وهنا فالفكرة تحملها الكلمة بين مرسلٍ ومستقبلٍ، وهي تحمل قضيّة تقدِّم حلّا يُخرج من التأزّمات أو يُدخل فيها؛ فكثير من الأسوياء والعلماء والمفكّرين العظام يَجدّون في إنتاج الفكرة التي تحمل حلّا يُخرج من التأزُّمات، والبعض الآخر يكيد أو يمكر أو يحسد ظلما؛ فيُسخِّرون فكرهم وما يمتلكون أحيانا من أجل إشعال نار فتنة يعتبرونها حلّا.

وفي دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع الفكرة تتعرّض لمواجهة الفكرة، ممّا يجعل نيران الاقتتال والفتنة كلّما انطفأت اشتعلت من جديد وعلى وجه السرعة؛ فالوطن عندما لا يكون الرأي فيه مؤسّسا على فكرة حلّ التأزّمات لا يمكن أن يأمن مواطنوه. وإن لم يشتدّ الخوف في نفوسهم على مستقبل أبنائهم ووطنهم وحرّيّتهم فلن يبلغوا حلّا يجمع شتات أبناء الأمّة إرادة في ممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمْل المسؤوليات الوطنيّة سياسةً واقتصادا واجتماعا؛ فالخوف إن لم يوفّر نِعما كثيرة؛ فإنّه يحافظ على ما هو متوفّر من النّعم لدى الإنسان على الأقلّ.

ولذا يؤدّي الخوف إلى تغيير الأفكار والمواقف من حالة السّلب إلى حالة الإيجاب، وهو يربط العلاقة الآنيّة مع المستقبل، إذ إنّه في اللحظة الآنيّة يُعدُّ شعورا سالبا تجاه المستقبل، ومن هنا يكون للخوف علاقة مباشرة باليقظة والفطنة والحذر، فهو ناقوس يدقّ في عقل الإنسان كلّما كان هناك استقراء للمستقبل؛ وهو استطلاع مستقبلي للمخاطر التي ينبّه عليها الخوف قبل أن تأتي، ممّا يجعل الإنسان يفكّر في إيجاد موانع وحواجز تدفع المخاطر المستقبلية وتمنع وقوعها، وبهذا تكون عاطفة الخوف قد دفعت بالعقل إلى البحث عن الأسباب التي يمكن أن تحقّق ما يُمكّنه من التطلّع إلى الأفضل.

إذن: الخوف شعور متحقّق لدى الإنسان لا نقول إنّه ينتابه عند استشعار المخاطر، وإنّما عند استشعار المخاطر يخرج من مكمنه في

النفس الإنسانية كجزء من العاطفة؛ فالإنسان كونه مفكّرا هو في دائرة الممكن من يفكِّر في وجوده، ومن كان وراء وجوده، ومن هو وليّا على أمره، وكيف له أنْ يفكّر فيما يفكِّر فيه وليّ أمره تجاهه؛ لكي يعرف كيف يفكّر.

ولذا فإنَّ تفكير الإنسان في دائرة المتوقّع وغير المتوقّع ينضوي على قدر من الخطأ أو الشكّ أو التناقض والغموض، وبالتالي تتّسم الأفكار التي أوجدها هذا التفكير بنفس هذه السمات؛ فهي أفكار تحاول الاقتراب من الحقيقة ومعرفتها، لكنَّها قد لا تصل إليها، ومع ذلك فهي تسعى والأمل لا يفارقها، وفي دائرة المتوقّع وغير المتوقّع يعرفها الإنسان ويدركها بقدر ما أوتي من قدرات ذهنية ليغوص فيها ويتأمّل في علل وجودها، مع إعجازه عن معرفة المبرّرات، وقد يتدرّج الإنسان في تفكيره ويصل إلى أعلى المراتب التي فيها نهاية الفكرة.

الاستبدال الفكري:

يرتبط مفهوم الاستبدال الفكري بدلالة وجود البديل، واستبدَل الشيء بغَيْره إذا أخذ مكانه، فالاستبدال يقوم بالضّرورة على وجود كينونتين منفصلتين، يفترض أن يؤدّيان دورا متماثلا باختلاف مستوى الأداء أو نوعه، وهنا تُحدث الأنا مفاضلة بينهما ممّا يفضي إلى استبدال القديم بالجديد وفق معطيات مختلفة ووفقا للمصلحة أو المنفعة التي بها يتمّ تجنّب الأضرار والمخاطر في حالة ما إذا كان المستبدل معرّض

للمخاطر أو التهلكة والانتهاء، ممّا يجعل التخلّص منه على سُلّم الأولويّات قبل أن يتمّ القضاء عليه من قِبل الآخرين.

ويتّضح هذا الأمر على الصّعيد السياسي بصفة خاصّة عند بعض المقرّبين والموالين للأنظمة الحاكمة بغير حقّ؛ فمثل هؤلاء إذا ما عرفوا أنَّ الحاكم أو النّظام الذي يوالونه أصبح معرّضا للسّقوط؛ يسارعون بالتخلّي عنه قبل موعد سقوطه، ويتمّ القبول باستبداله حتّى لا يتعرّضون للمسائلة على ما فعلوا في عهده من مفاسد وجرائم.

وأفعال الاستبدال تتمّ على أوجه منها:

أوّلا: أنْ تنسحب مجموعة من العناصر التي كانت توالي النّظام من ميادين المواجهة، ثمَّ تهرب إلى الخارج تحت غطاء الهجرة، وطلب اللجوء السّياسي، قبل أن يزداد عدد اللاجئين والمهاجرين وتصعب الأمور؛ فهؤلاء الحذّاق كما تسابقوا على اغتنام الفرص وأخذ المغانم والفوز بالمكاسب في ذلك النّظام، هم أنفسهم الذين يتسارعون إلى الهروب من أجل المحافظة على تلك المكاسب؛ لأجل سلامتهم وسلامتها من المخاطر المتوقّعة وغير المتوقّعة في دائرة الممكن.

ثانيا: الانسحاب من المنظومة الحاكمة والتطلّع إلى تغييرها؛ ليكونوا وفق ظنّهم بديلا للسّابق مع إظهار المواقف المؤيدة أو الراضية، فمثل هؤلاء همّ المتقلّبون، ولكن في دائرة المتوقّع وغير المتوقّع فإنَّ لكلّ قاعدة شذ، فبعض الذين انتموا أو عملوا تحت مظلة أحد الأنظمة، ثمَّ

لم يقبلوا ارتكاب الممارسات السّلوكية التي لا تليق، ثم انسحبوا هدوء كي لا يتعرّضوا للمخاطر.

ثالثا: أن يعمل المواطن مسؤولا على أيّ درجة من درجات السلّم الوظيفي دون أن يزيّف الحقائق، ثمّ إذا عرف أنَّ انحرافات بدأت تظهر من قِبل ذلك الحاكم الذي هو أحد أعضاء حكومته؛ فليس له بدٌّ في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع إلّا العمل من أجل البديل الموضوعي.

والبديل يمكن أن يكون شرعيّا ويمكن ألا يكون؛ فذلك الذي كان قريبا مقرّبا من قمّة سُلّم السلطان، وعمل ما في وسعه من أجل نيل المكاسب، ثمَّ أسرع بأخذ البديل الأوّل؛ فلا ثقة فيه مع أيّ بديل يُتّخذ وإنْ تلوّن بجميع ألوان القيم.

ولذا فإنَّ الاستبدال هو ذلك القرار المرتكز على معطيات سابقة أو آنيّة، وينبثق من قراءة متغيّرة بين الواقعيّة والنفعيّة، واقعيّة عندما يحدث اختلال قيمي بين المستبدل القديم والبديل الجديد بحيث ترجّح كفة البديل الجديد قيميا ممّا يوجب الاستبدال، أمَّا النفعية فهي ترجيح محض لمصلحة الأنا في ضوء متغيّرات الحدث ونتائجه المتوقّعة أو غير المتوقّعة.

وفعل الاستبدال يوجب وجود البديل، وجودا محدثا في صورة الاستبدال الواقعي، ومسبقا في حالة الاستبدال المنفعي، حيث في هذه

الحالة تكون الأنا قد أسّست البديل من قَبل وجعلته في خانة الانتظار لحين وصول اللحظة التي تدفع الحسابات النفعية لاتخاذ قرار الاستبدال.

وعليه فالاستبدال على نوعين، هما:

الأوّل: الاستبدال الموجب:

لاشكّ أنّه من البديهي في دائرة الثنائية الضدّية أن يكون لدينا وجهين للاستبدال، وجه موجب وآخر سالب؛ فالموجب هو ذلك الاستبدال الذي يتمثّل بغاية إصلاحية، تهدف من خلال القراءة الحثيثة للمعطيات الانتقال بالإنسان نحو الأفضل من خلال استبدال كلّ ما أصبح في حركة الزّمن متخلّفا أو باليا أو منحرفا أو معوِّقا للتقدّم من أجل البديل الذي يدفع بمسيرة الحضارة الإنسانية المجسّدة في الإعمار والإصلاح نحو الأفضل والأجود والأسرع والأكفأ والأحسن، مثل هذا الاستبدال هو الشّكل الموجب لهذا الفعل الإنساني، وهنا فهو استبدال قيمي أو تقييمي، بمعنى أنَّه ينطلق من قياس حقيقي لقيمة المستبدل ووجوب استبداله، ذلك أنَّه بالقياس إلى البديل الجديد أقلّ قيمة من ذلك السّابق، هنا وجب وبعيدا عن القرارات العاطفية أن يحصل فعل الاستبدال بناء على المقياس القيمي والتقييمي؛ ففي مسيرة الإصلاح والإعمار لا يمكن أن نقتصر في عصرنا على استخدام أدوات استخدمت قبل مائة عام، وهنا لابد من حصول عملية الاستبدال بما يوافق التطوّر الهائل في الفكر الحضاري ومنجزاته العمليّة؛ وذلك بوجود بدائل جديدة متنوّعة وخلاّقة من أجل إحداث النُقلة إلى المستقبل

المأمول حضاريا، ولذا فلابد من استبدال تلك الوسائل بوسائل جديدة أكثر إيجابية في بناء التقدّم الحضاري والارتقاء الإنساني.

وعلى مستوى الإنسان وقيمه يحصل فعل الاستبدال عندما يتأكّد له أنَّ قيما بالية كان شديد التمسّك بها لم يعد لها قيمة أمام القيم التي تعرَّف على حقيقتها من بعد؛ فالزّواج القسري على سبيل المثال الذي كان يحصل في كثير من القرى العربية ويتمثّل على وجه التحديد بضرورة أن يتزوج ابن العمّ من ابنة عمّه بغض النّظر عن موافقتها من عدمها، فهذا النّوع كان من القيم القبليّة والقروية الرّاسخة في الأسر الممتدّة إلى حدٍّ بعيد، ولكن التطوّر والانفتاح والعلم جعلت الإنسان يستبدل هذه القيمة التي يفتخر بها بقيمة جديدة تقوم على احترام قرار الاختيار وبما يُمكِّن من نيل التقدير والاعتبار.

وعليه يمكن أن نحدّد فرقا محتملا في هذا الشكل من الاستبدال هو الفرق القيمي أو التقييمي، مستبعدين المؤثّرات العاطفية أو الرغباتية، ومقرّين أنَّ تقدير القيمة له مقياس أفضل في هذا النمط الاستبدالي الموجب؛ ولذا فإنَّ أيّ استبدال موجب هو الذي لا يكون على حِساب مستقبل الآخرين ولا على خصوصياتهم وما يأملون.

الثاني: الاستبدال السّالب:

يقوم الاستبدال السّالب على مقياس منفعة الأنا بغض النّظر عن القيمة الحقيقة للمُستبدل، وإن كانت قيمة المستبدل هي أكثر من

قيمة البديل، ولكن الحسابات النفعيّة والمنفعيّة ترفض جعل القيمة الحقّة مقياسا لفعل الاستبدال، ولهذا فإنَّ هذا الاستبدال هو نمط أناني يجعل دائرة القرار محصورة بحسابات الرّبح والخسارة للأنا على ضوء المتغيّرات وتفاعل الأنا بأنانيتها وانسحابها، مع تجاهل تام ومقصود لدور التقييم الحقيقي الواقعي، وللقيمة المرجّحة بين المستبدل والبديل، ممّا يجعل قرار الاستبدال قرارا نفعيا أنانيا محضا.

ومن الجدير بالقول أنَّ هذا النّوع يسود الذّوات الضّعيفة والانهزامية المنسحبة؛ ذلك أنَّها لم تبنِ لها قاعدة قيميّة تمكّنها من الارتكاز المستمرّ في قراراتها المفضية إلى التمسّك بالقيم الحميدة والفضائل الخيّرة، إنّها ذوات فارغة من مضامينها، وهي أقرب ما تكون إلى صورة بالون الهواء، مع أنّه ملوّن وجميل لكنّه لا يحتوى إلّا على الهواء؛ ولذا فهو فارغ من كلِّ ما يمكن أن تكون له قيمة سوى الهواء، لذلك نجد مثل هؤلاء يتّخذون قرار الاستبدال ما أن يشعرون أنَّ خطرا محتملا يهدّد منافعهم ومكاسبهم ومصالحهم التي يعتقدون أنَّها رأس مالهم الوحيد، وأنَّ كلَّ شيء آخر لا قيمة تقّدر له حتّى وإن كانت له عند الآخرين قيمة.

وهذا السّلوك منفتح عند هؤلاء زمنا ونوعا وكمّا؛ فهم لا يأبهون لقيمة اللحظة الحاسمة إلّا بمقدار رغبتهم بالمحافظة على مصالحهم، وكذلك بالنّسبة إلى الكم والنّوع فمثل هؤلاء وإن شاركوا الآخرين فيما

شاركوهم فيه لن تكون مشاركاتهم دافعة تجاه وحدة المجتمع وبناء الوطن وإعماره الذي يجعله متبوّئا مكانة حضاريّة إنسانيّة.

مرتكزات الاستبدال الفكري:

يرتكز قرار الاستبدال الفكري في الواقع الافتراضي بتحقّق معطيات القيم الموجبة والسّالبة وفقا للآتي:

. الاختيار.

يمكن القول إنَّ الاستبدال الفكري المرتكز على الاختيار يقوم بشكل أساس على مبدأ التفضيل؛ ذلك أنَّ الذّوات تتفاضل في نواحي كثيرة قيميّة نوعيّة وماديّة، الأمر الذي يفضي إلى إمكان تفضيل ذات على أخرى وفقا لمبدأ الاستبدال الاختياري، ووفقا لمقاييس منطلقة من إحاطة الأنا بقيمة ما هو قابل للتفاضل وصولا إلى قرار الاستبدال الذي يتأسّس على مبدأ المفاضلة مع الإقرار بقيمة المتروك من القيم المستبدلة؛ ذلك لأنَّ الاختيار كان تفضيلا فقط ودون حط من القيم الأخرى.

ولذا فأنَّ الاستبدال الاختياري في دائرة المتوقّع وغير المتوقّع يكون بين أفضل وأفضل منه، أو حسن وسيء، أو بين سيء وأسوأ منه، ممّا يجعل الحركة في حالة امتداد على سُلّم القيم صعودا وهبوطا، ولكلٍّ ثمنه الذي لن يكون متساويا في حالة السلّم وحالة الحرب، ومع

ذلك لكلٍّ حالة من الحالتين هامش امتداد وانكماش، ففي حالة السِلم وقمّة سلّم السّلطان يتحكّم في الأمر وحسم الصّراع في الدّاخل كلّما شبّت نار من نيرانه، لا يمكن لمنتفع أن يغيّر رؤاه تجاه بديل مشكوك في أمره؛ فالمنتفع لا يميل سلبا أو إيجابا إلّا مع ميول النّظام سلبا أو إيجابا، ولذا في حالة ميل النّظام سلبا (إلى المخاطر) لا يمكن له الميل معه إلّا سلبا (في الاتجاه المعاكس) وإذا مال النظام إيجابا (في اتجاه المزيد من كسب المنافع) ليس له بدّ إلّا التمسّك بالاتجاه ذاته مع المزيد من تقديم الولاءات.

أمَّا في حالة الحرب أو ظهور الاضطرابات أو المواجهة مع الغاضبين؛ فإنَّ للمنتفع رؤية أخرى تميل دائما في الاتجاه الأكثر سلامةً وأمنا، أي في اتجاه الابتعاد عن كلّ ما يقرّب من الخطوط السّاخنة (تجنّبا للوقوع في المخاطر)؛ وذلك من أجل السّلامة وحصول المنفعة. ولذلك فالميل الإيجابي المتوقّع من وجهة نظر البعض من المحايدين لو كان هناك ميل إيجاب من أولئك النفعيين مع النّظام المتّجه إلى الهاوية لا يمكن أن يكون إلّا معه مناصرة من أجل البقاء المشترك أو الفناء المشترك، والمناصرة قد تكون متكئة على مبررات المنفعة المشتركة أو رابطة العصبيّة أو الإحساس بالخطر الآتي من الآخرين الذين لا يفرّقون بين رأس النّظام وأعوانه على مختلف درجات سلّم السّلطان، وفي دائرة الممكن أيضا هذا الأمر يجعل البعض يفكّر مرّتين بين الاستسلام تفاديا لمزيد من سفك الدّماء بغير حقّ أو أن يقبل دفع الثّمن مرّتين (الخسران

في الدّارين)، ولذا في مثل هذه الحالة فإنَّ أنظار النفعيين لا تتجاوز أقدامهم.

أمَّا أصحاب القضايا؛ فلا يأبون بالمنافع الزّائلة ولا إليها يلتفتون ولا يميلون؛ فهم المتمسّكون بالحقّ والمرشدون إليه؛ فلا يخافون لومت لائم، هم رجال لا تلههم تجارة ولا بيع، عندهم الحياة الدّنيا متاع الغرور،{وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}70، وقال تعالى: {رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}71.

وعليه؛ فالاستبدال إمّا أن يكون بين أمرين أو بين اختيارين وفقا لِما تمليه القيم أو ما تمليه المصلحة أو حتّى ما تمليه الأطماع، وإمّا أن يكون الاستبدال الإرادي من متعدّد البدائل؛ فالإنسان بإرادته الحرّة يستطيع أن يختار أو يستبدل ما يشاء وفقا لتفضيلاته أو وفقا لِما هو أقلّ ضررا، أو لِما هو أكثر ضررا من غيره؛ فأصحاب الشرّ لا يفضّلون غيره بإرادة، وأصحاب الحقّ والخير لا يفضّلون غيره، وهكذا كلّ شيء بإرادة، ومن بين هذا وذاك في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع يستطيع

---

[70] القصص 77.

[71] النور 37، 38.

الإنسان أن يُرتِّبَ بدائله وفقا للمتاح مع مراعاته للظرف الزماني والمكاني ولكلِّ خصوصية لا تتطابق مع خصوصيات الآخرين وإن تماثلت معها.

ولأنّ العلاقة قوّية بين الإرادة والاختيار والرّغبة في الاستبدال ودرجة التفضيل بين ما هو قابل للاختيار منه أو قابل لاستبداله بالكامل، فإنَّ التقييم للاستبدالات أو الاختيارات والتفضيلات يُسهم في تهذيب الإرادة وتطويرها وتغييرها من أجل استبدال ما هو أفضل أو أنفع، وهكذا تتحسّن الأحوال وتقوَّم من قِبل الواعين بما يجب وبما لا يجب لتكون السُّبل ممهّدة تجاه غايات مستنيرة بالحقّ وموجبات إحقاقه. فالاستبدال هو في واقع الأمر تقديري، بمعنى أنّه يقوم على تقدير الأنا للقيمة المفترضة، ثمَّ تقييم تلك القيمة وصولا إلى قرار الضّرورة الإرادية للاستبدال.

فالاستبدال قد يكون اضطرارا، وبخاصّة عندما تواجه الأنا جملة من التهديدات والتحدّيات التي تعصف بمخطّطاتها المأمولة، الأمر الذي يجعل الأنا في دائرة الاضطرار للقيام بفعل الاستبدال، وذلك عندما تكون التحدّيات والتهديدات أكبر من قدرة الأنا على المواجهة، فيتحقّق الاستبدال هروبا وانسحابا، وذلك بالتحوّل نحو البديل المفترض الذي سبق تأسيسه على نحو يجعله البيئة البديلة لاستيعاب الأنا المستبدِلة في أي وقت تشاء؛ فوجود البديل الافتراضي المؤسّس يجعل فعل الاستبدال واردا في كلِّ حين.

فالذين ينتمون إلى نظام من هو متربّع على قمّة سلّم السلطان من أقارب وأباعد في أيام حُكمه وطغيانه دون أن يرشدوه ولو بموعظة، بل إنَّ منهم من زيّن له كلّ فعلّ متعارضٍ مع القيم الحميدة والفضائل الخيّرة للنَّاس، ثمّ إذا تعرّض نظامه لضائقة أو تعرّض للانهيار تركوه بأسباب مكاسب جنوها بغير حقّ من مكاسب الشّعب (ثروة واقتصادا ومالا)؛ فهؤلاء على أحد وجهي الاضطرار من حيث:

. أنَّهم مضطرون للتّخلّي عنه من أجل الحفاظ على ما اختلسوه؛ فيفرّوا مسرعين بما كسبوا، هروبا لتلك البلدان التي سبق لهم أن هاجروا إليها باعتبارها بديل بالنّسبة إليهم عند كلّ شدّة، وبخاصّة إذا لم ينسفوا جسور العودة بمحافظتهم على علاقات هناك في ذلك الوطن الآخر، ففتحوا التجارة معه وامتلكوا العقارات ممّا جعلهم على حالة من ازدواج الهويّة والانتماء وازدواج الوثائق الشّخصية التي تُثبت وجودهم مواطنين أينما حلّوا في البلدان البديلة، ولهذا فالوطن لا يفاجأ إذا واجهه ما واجهه من مخاطر في دائرة غير المتوقّع.

. مضطرون للتخلّي عنه؛ لأنَّهم يعرفون أنَّ النّظام آيل للسّقوط فيستبدلونه بالآخر لعلّهم يسلمون بما كسبوا.

إمَّا الاضطرار الموضوعي فهو ذلك الاضطرار الذي لا يكون إلّا من أجل النّجاة من أفعال الظّلم التي قد تلحقهم من الذين تمتلئ أنفسهم غضبا على ذلك النّظام؛ فهؤلاء مضّطرون حالهم كحال من كان في مخمصة؛ فلا يلقي بنفسه إلى التهلكة، {فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ

غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّه غَفُورٌ رَحِيمٌ}72، وقوله تعالى: {فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّه غَفُورٌ رَحِيمٌ}73.

ومثلما يكون الاضطرار نمط من أنماط الاستبدال، كذلك يكون القسر نمط من أنماط الاستبدال لا يتحقّق إلّا إكراها، وذلك حين تفرض الأنا فروضها القيمية أو المادّية أو الفكرية قسرا وتطالب الآخر بتبنّي تلك الأطروحات كرها، هذا الأمر يفضي إلى اتخاذ الآخر قرار الاستبدال؛ لأنّه ما من ذات حرّة في اختياراتها ترضى أن تُكره على ما تعتنق أو تؤمن، ولو أبدت رضاها المصطنع إلّا أنّها في الحقيقة تتحيّن الفرصة للانقضاض من أجل إظهار حقيقة فعلها الذي استبدلت فيه كلّ ما أكرهت عليه ببديل هو في دائرة المتوقّع بناء على معطيات الواقّع، وربّما غير متوقّع وخارج معطيات الواقع، فالإكراه يولّد ردودا تصل في بعض الأحيان إلى درجة الغرابة والتطرُّف والانحراف.

ولذا فإنَّ القسر فعل قهري لا مكان للإرادة فيه، ممّا يجعل الأفعال المترتّبة عليه لا تحقّق الطمأنة في نفس المكرِه، وإن ظنَّ المكرِه أنَّه بما أقدم عليه من قسر للآخرين يؤمَّن به حاله أو نظامه، ولا يستغرب في دائرة غير المتوقّع إن واجهته المفاجئات؛ فكلّ فعل سلبي ممكن بما أنَّ الأمور قد تأسّست على الإكراه والقهر والإجبار، ولذا فالبحث عن البديل يعدّ من الضرورات المهمّة بالنّسبة إلى من تمّ إكراهه وقهره بالقوّة

---

72 المائدة 13.

73 البقرة 173.

على القول أو الفعل أو العمل أو السّلوك الذي ليس بحقٍّ؛ فالبديل بالنّسبة إليه هو المخلّص من المظالم والمكائد والمكر والقسر، وهو المنقذ من التأزُّمات والشدائد. ومع ذلك قد يكون المنقذ عادلا، وقد يكون ظالما؛ فكلّ شيء يؤسّس على المظالم والمفاسد والإكراه لابدّ أنْ تواجهه المقاومة السرّيّة أوّلا، ثمّ العلنيّة ثانيا، وبهذه المعطيات تنمو الخلايا السرّيّة النائمة بعناوين متعدّدة ومختلفة من أجل الإقدام على استبدال المكرِه لهم قسرا في كلّ أمرٍ لا يليق بالأخلاق والقيم الاجتماعيّة الحميدة والفضائل الإنسانية الخيّرة بما هو أفضل وأجود.

ولأنّ الاستبدال نتاج الفكرة؛ فهو لا يكون إلّا والأهداف من ورائه، وعلى رأس أهداف الاستبدال: التخلي، وذلك عندما تتخلّى الأنا عمَّا تعتقد أنّها غير راغبة فيه، أو ما تعتقد بعدم فائدته من بعد، أو ما تكره إلى درجة أن تقطع الصّلة معه، الأمر الذي يفضي إلى الحاجة إلى البديل الذي يعوّض الفاقد، هنا يحدث التخلّي عن المستبدل لصالح البديل، وبخاصّة عندما يختار الإنسان أن يستبدل ذي القيمة العالية بآخر أقل قيمة منه، هذه الحالة هي شكل من أشكال البطر، وقد أشار الله عزّ وجلّ إلى هذا النوع من الاستبدال في قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ

كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}74.

فالاستبدال هنا ترك شيء وأخذ آخر بدلا عنه. ولكنّ هذا الاستبدال لم يبن على القيمة الحقّة لما يراد في مقابل ما هو كائن؛ لذلك كان طلب الاستبدال بطرا، وفي المقابل ترتكز قرارات الاستبدال على الرّغبة العاطفية أو المادية أو السياسية، ذلك لأنَّ الرّغبة تستند على ميل إرادي من اتجاه لآخر، ولكن بما يحقّق الموجب المرغوب فيه، حيث الحاجة وضرورات إشباعها المتنوّعة والمتعدّدة والمختلفة، ولهذا النَّاس إرادة يعملون ما في وسعهم من أجل الاستبدال المرغوب، وفي الأمر المرغوب لا يمكن أن تستوي الحسنة ولا السيئة، ممّا يجعل النَّاس يحسبون الحسابات من أجل بلوغ المرغوب دون ضرر، قال تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}75.

ولأنّ الاستبدال فكرا؛ فلا يمكن أن يكون إلّا وله مقاصد، منها: التعويض الذي يتأتّى بعد الفقدان؛ فالمفقود لابدَّ أن يستبدل ببديل قادر على سدّ الحاجة التي كانت تشبع من قِبل المفقود، والفقدان ليس بالضّرورة أن يكون فقدانا ماديّا، فربما يكون فقدانا

---

[74] البقرة 61.

[75] فصّلت 33 . 34.

معنويا، وذلك عندما تستشعر الأنا بفقدان القيمة أو المنفعة بالمستبدل؛ فتقرِّر استبداله بما تظن أنّه يشبع حاجاتها المتعدّدة. وإلى جانب هذا المقصد هناك مقصد المحافظة على المكاسب؛ فعندما تشعر الأنا أنَّ مصالحها ومكاسبها معرَّضة للخطر في هذا الظّرف أو ذاك فهي سرعان ما تقوم باتخاذ قرار الاستبدال وتشرع بتنفيذه بأقصى سرعة ممكنة؛ من أجل المحافظة على مكاسبها، وهي هنا لا تأبه ولا تنظر على الإطلاق لما استبدلته، بل هي تنظر بعين الأمل والاندفاع إلى البديل المؤسّس سابقا.

ثمّ يأتي مقصد الاستغناء الذي لا يكون إلّا بعد أن يفقد المستبدل قيمته التي كان مقدّرا بها، ويكون البديل له أكثر تقديرا؛ فالاستغناء هو القبول بالشيء الآخر بديلا لذلك السّابق المتعارف عليه، ولأنَّ لكلّ شيء صلاحيّة وعمرا زمنيّا، ومقدرة غير مطلقة، فلا استغراب أن يتمّ الاستغناء عن القديم بجديد أكثر مقدرة واستطاعة.

ختاما

الفِكْر مفهوم محيّر من حيث إنّه يرتبط بإعمال العقل من جهة، ومن جهة أخرى يرتبط بما ينتجه العقل من علوم ومعارف ونظريات علمية واجتماعية وإنسانية، ومع ذلك بعض اللغويين لا يرونه إلّا من زاوية ارتباطه بالفكرة.

ونحن نرى أنّ الفكرة لا تزيد عن كونها مفردة لغوية، فإن تعدّدت مفرداتها وجمعت تصبح (فِكَر) أمّا كلمة (الفِكْر) فهي تتعلّق بالملكات العقلية أوّلا، ثم تتعلّق ثانيا بشخص من يتمكّن عقله من التفكّر حتى يبلغ فكْره العقلي استنتاجا أو استنباطا أو استقراء ما يمكن أن يكون وجودا معرفيا وفقا لما يتيسّر من قوانين مستنبطة ذهنيا. أمّا ثالثا فالفكْر صفة لِمَ تمّ إنتاجه صوغا نظريا يعالج معضلة اجتماعية أو علمية أو إنسانية.

ومن هنا جاء مؤلّفنا لفرز هذه المفاهيم وتقديمها على البيّنة المعرفية دلالة ومعنى ومفهوما، فالفِكْر كونه من مكوّنات العقل البشري يولد الإنسان به خلقا، ومع ذلك لا يستخدم إلّا والمثيرات متيسّرة للمشاهدة والملاحظة، ولهذا فالعقل البشري قابل للاستفزاز الموضوعي علما ومعرفة.

ولأنّه كذلك؛ والمستفزّات المثيرة للانتباه تتمدّد وتتسع مع تمدّد الكون المتسارع، إذن لابدّ للعقل من حيرة تلفته إلى البحث عن مَنفَذٍ

يُخرج من هذا المحيّر؛ فإن استكشف، تمكّن من المعرفة التي لم تكن مسبوقة الاكتشاف، ممّا يجعل معرفته هذه إبداعا فِكْريا منتجا بأسباب حُسن التفكّر والتدبّر.

أمّا الخلط الذي علق بأذهان الكثيرين؛ فهو متعلّق بإقصارهم مفهوم الفكْر على المنتج المعرفي فقط، وكأنّ العقل لا مكان فيه لما يمكّن من التفكير تدبّرا معرفيا، ولهذا فنحن تساءلنا:

من أين جاءت صفة الفكْر لو لم يكن هناك موصف به؟

أي: هل يمكن أن يسمّي الفكْر بهذا الاسم لو لم يكن مستمدّا من اسم يسبقه وجودا؟

ولماذا يقال: للمفكّر مفكّر؟

بطبيعة الحال لو لم ينتج المفكّر من فِكْره (عقله) شيئا ما وصف بالمفكّر، ومن هنا انطبقت الصّفة الشّخصية مع الموصوف الذّهني، ثمّ انطبقت صفة المنتج العقلي على الشّخص الذي نظّر إلى ما نظّر إليه من فِكْرٍ معرفي.

ولأنَّ الفِكَر مجموع الفكرة؛ فالفكرة دائما تستمدّ من محيّرٍ أو أنّها تكون المحيّرة في ذاتها، ولهذا بتعدّد الفِكَر يتطوّر الفِكْر الإنساني سياسة واقتصادا وفضيلة وقيمة. والفكر تصنيفا يترتّب وفقا للآتي:

1 . فِكْر.

2 . فكرة.

3 . فِكَر.

وهنا يكون الفِكْر سابق على الفكرة، وتكون الفكرة من إنتاجه، ممّا يجعل الفِكَر لا تزيد عن كونها مجموع الفكرة. أمّا الفِكْر كونه صوغا نظريا فهو المترتّب على ما سبق جميعا.

ولأجل المزيد المعرفي وجب أنْ نميّز بين تطوّر (الفِكَر والفِكْر) فالفِكَر تطوّرها جاء جدلا وحجّة، وكذلك من خلال توليد الفكرة من الفكرة، فكان التطوّر إنتاجا معرفيا من خلال المبدع والمبتكر والمنتج. أمّا الفِكْر فتطوَّرَ تاريخيا من خلال تحسين المعارف وتطوّر العلوم؛ فقد مرّ الفكْر الإنساني بمراحل مختلفة، فكانت البداية خَلقية من لا شيء، ومع ذلك كان أوّل نبأ قد استقرّ في الفِكْر الإنساني هو ما أنزل على أوّل من خُلق على ثنائية الجنس البشري، فكانت مرحلته الأولى حيثما كانت السّماوات والأرض رتقا، {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}76، في تلك المرحلة لم تنتج الفكرة بعد، فجاء النبأ تنزيلا؛ ليلفت الفكْر الإنساني إلى التفكير في المنزّل؛ ليكون الإيمان أو الكفر تخييرا.

ومع أنّ الإنسان قد خُلق في أحسن تقويم، ولكنّه خُلقا قد انحدر بعلل الشّهوة والإغواء؛ فارتكب المعصية التي لفتت آدم لفكره؛

---

[76] الأنبياء 30.

ففكّر في أمره حتى تيقّن أنّه لا مخرج له ممّا وقع فيه إلّا الاستغفار؛ فاستغفر ربّه فتاب عليه، {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ}77، ثمّ جاء المستفزّ والمحيّر الآخر لابني آدم عندما قتل الأخ أخاه، ولم يعرف كيف يواري سوءته؛ فبعث الله غرابين فتقاتلا حتى قتل أحدهما الآخر، ثمّ بعد قتله واراه في التراب، ومن هنا، عمل الفكْر الإنساني على استنباط الفكرة من الفكرة مشاهدة.

وهكذا استمر الفِكْر الإنساني في تطوّره من عصر الأسطورة والفطرة إلى عصور الفكرة والفلسفة؛ فكان الارتقاء الفكري في متوالية عقلية (فكرية) حتى وصل إلى مراحل التقدّم وغزو الفضاء؛ ذلك لأنَّ الفِكْر منبع المعرفة.

أ د. عقيل حسين عقيل

2017م

77 البقرة 37.

المراجع

العربية والمترجمة للعربية

1 الموسوعة العربية العالمية. شركة أعمال الموسوعة، الطبعة الثانية، 1999.

2 ـ الموسوعة الفلسفية. وضع لجنة من العلماء والأكاديميين السوفيت "ترجمة سمير كرم". بيروت: دار الطليعة.1974.

3 ـ الموسوعة الفلسفية العربية. معهد الإنماء العربي، بيروت، 1997.

4 ـ الموسوعة في العلوم الاجتماعية "ترجمة عادل مختار، وسعد عبد العزيز". الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1999.

5 ـ إميل دور كايم، قواعد المنهج في علم الاجتماع "ترجمة محمود قاسم، والسيد محمد بدوي". الإسكندرية: دار المعارف الجامعية، 1988.

6 ـ أحمد كمال أحمد، تنظيم المجتمع نظريات وحالات. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، الجزء الثاني، 1975.

7 ـ إسرائيل 2020 خطتها التفصيلية لمستقبل الدولة والمجتمع. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2005.

8 ـ التفكير الإبداعي. مركز الخبرات المنية (بيمك)، القاهرة: مركز الخبرات المهنية للإدارة "بيمك"، الطبعة الثانية، 2005م.

9 ـ المناهج التدريبية المتكاملة (تحليل المشكلات واتخاذ القرارات). مركز الخبرات المنية (بيمك)، القاهرة: مركز الخبرات المهنية للإدارة "بيمك"، الطبعة الثانية، 2004م.

10 . المناهج التدريبية المتكاملة (التخطيط والمتابعة). مركز الخبرات المنية (بيمك)، القاهرة: مركز الخبرات المهنية للإدارة "بيمك"، الطبعة الثانية، 2004م.

11 . بيتر هوني، الأفراد ذوو المشكلات وكيفية التعامل معهم "ترجمة عبد الله بن سحمي". الرياض: معهد الإدارة العامة مركز البحوث، 2003.

12 . بيل جيتس، الطريق المقبل "ترجمة فتحي شتوان". مصراتة: الدار الجماهيرية، 1999.

13 . باسل شيخو، هل فات الأوان لتبدأ من جديد حدد مسارك. دمشق: دار القلم، 2004.

14 . توماس فريدمان، العالم مسطّح تاريخ موجز للقرن الواحد والعشرين "ترجمة عمر الأيوبي". بيروت: دار الكتاب العربي، 2006.

15 . تريسي جروس، كيف تجعل المستحيل ممكنا التحولات السبعة لإعادة هندسة ذاتك ومؤسستك "ترجمة علاء أحمد صلاح". القاهرة: إصدارات بيمك، 2002.

16 . تد جارات، البرمجية اللغوية العصبية للمدرب الفعّال "ترجمة إصدارات بيمك". الجيزة: 2004.

17 . تخفيض الفقر عبر سياسات سوق العمل. بيروت: المعهد الدولي لدراسات العمل، 2000.

18 . تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام 2004، نحو الحرية في الوطن العربي. عمان: المكتب الإقليمي للدول العربية، 2005.

19 . جورج طرابيشي، نظرية العقل. بيروت: دار الساقي، 1996.

20 . جوان مارك، مارجريت ميد وسن الرشد "ترجمة سعيد محمد" الرياض، مكتبة العبيكان، 1999.

21 . جان جاك روسو، العقد الاجتماعي "ترجمة بولس غانم". بيروت: اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، المكتبة الشرقية، 1972.

22 . جيرار ليكلرك، العولمة الثقافية الحضارات على المحك "ترجمة جورج كتورة". بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2004.

23 . الإدارة الاستراتيجية (المبادئ والأدوات). مركز الخبرات المنية (بيمك)، القاهرة: مركز الخبرات المهنية للإدارة "بيمك"، الطبعة الثانية، 2004م.

24 . خليفة محمد الزعابي، كُن مُعجِزا حلّق في القمة. دبي: مركز الخليفة للتنمية الاجتماعية والإدارية، 2004.

25 . ديفد لورانس، 365 خطوة لتحقيق الثقة بالنفس "قسم الترجمة بدار الفاروق". القاهرة: دار الفاروق، 2004.

26 . دوروثي ليدز، قوة الكلمة "ترجمة عبد الرحمن توفيق". القاهرة: مركز الخبرات المهنية للإدارة (بيمك)، الطبعة الثانية، 1999.

27 . دونالد هـ. ويز، إجراءات المقابلة الشخصية بنجاح "ترجمة شوكار زكي". القاهرة: مجموعة النيل العربية، 2000.

28 . روبرت ك كوبر، كيف تفجر الطاقة الهائلة الكامنة بداخلك وتوظفها في القيادة والحياة "ترجمة مكتبة جرير" الرياض، مكتبة جرير، 2004.

29 . ستيفن ر. كوفي، العادات السبع للناس الأكثر فعالية دروس فعّالة في عملية التغيير الشخصي "ترجمة مكتبة جرير". الرياض: مكتبة جرير، الطبعة الثالثة، 2002م.

30 . سعاد خيري، العولمة، وحدة وصراع النقيضين عمولمة الرأسمال والعولمة الإنسانية. بيروت: دار الكنوز الأدبية، الطبعة الأولى، 2000.

31 . سوسن عثمان عبد اللطيف، تنظيم المجتمع الأسس المهنية. القاهرة: مكتبة عين شمس، 2001.

32 . سو نايت، البرمجة اللغوية العصبية في العمل "ترجمة مكتبة جرير". الرياض: مكتبة جرير، الطبعة الثانية، 2004.

33 . صامويل هنتجتون، صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي "ترجمة طلعة الشايب". القاهرة: دار الكتاب المصرية، 1997.

34 . منهج الإدارة العليا (أدوات تقييم الأداء). مركز الخبرات المنية (بيمك)، القاهرة: مركز الخبرات المهنية للإدارة "بيمك"، الطبعة الثانية، 2004م.

35 . منهج الإدارة العليا (المفاضلة المعيارية). مركز الخبرات المنية (بيمك)، القاهرة: مركز الخبرات المهنية للإدارة "بيمك"، الطبعة الثانية، 2004م.

36 . منهج المهارات القيادية (أخلاقيات وقيم) مركز الخبرات المنية (بيمك)، القاهرة: مركز الخبرات المهنية للإدارة "بيمك"، الطبعة الثانية، 2004م.

37 . منهج الإدارة العلياء (كيف تفكر إيجابيا؟). مركز الخبرات المنية (بيمك)، القاهرة: مركز الخبرات المهنية للإدارة "بيمك"، الطبعة الثانية، 2004م.

38 . منهج الموارد (أساليب إحداث التغيير والتطوير التنظيمي) مركز الخبرات المنية (بيمك)، القاهرة: مركز الخبرات المهنية للإدارة "بيمك"، الطبعة الثانية، 2004م.

39 . منهج المدير الفعّال (الأساليب الإبداعية في تحليل المشكلات واتخاذ القرارات) مركز الخبرات المهنية (بيمك)، القاهرة: مركز الخبرات المهنية للإدارة "بيمك"، الطبعة الثانية، 2005م.

40 . موسوعة مدربون بارعون (التدريب المباشر). مركز الخبرات المنية (بيمك)، القاهرة: مركز الخبرات المهنية للإدارة "بيمك"، الطبعة الثانية، 2005م.

41 . موسوعة مدربون بارعون (العوامل السبع للتغيير). مركز الخبرات المنية (بيمك)، القاهرة: مركز الخبرات المهنية للإدارة "بيمك"، الطبعة الثانية، 2005م.

المراجع الأجنبية

1- Albert, Ethel M, "The Classification of Values, A Method and Illustration", American Anthropologist, Vol. 58, 1965.

2- Abbett, Kants. T. K., Theory of Ethics, London, 1927, In Lancaster, master of Political Though, Hegel to Dewing. George

3- Bush, Chilton R., "A System of categories for General News Content" Journalism Quarterly, Vol.37.no.2,1970.

4- Bolck, J., & Thomas, H., Is Satisfaction with Self a Measure of Adjustment? journal of Abnormal and Social Psychology, 1965-51.

5- Hortshoren, J, & May, M. A., Studies in the Nature of Character: Studies in Desert, New York, Mac. Milan, 1968.

6- Holsti, Ole, R. "Content Analysis for the Social Sciences and Humanities" New York, Addison-Wesley, 1969

7- Gardner, E.F. Value of Norms Based on a New Type of Scale Unit, Proc, 1948.

8- Harold, Folding," A Proposal of Empirical Study of Values" A.S.R., Vol. 30, No. 2, 1965.

9- Jacob, C, Personality and Time Attitude, J. of Abnormal Psychology. Vol. 73, No. 5.

10- Kluckhoon, Florence: variation in Value Orientation, By Florence Kluckhoon and Fred, L. Strode bek-New York, Row peterson,1961.

11- Kelly, E. L., Consistency of the Adult Personality, American Psychologist, 1955.

12- Linton, Ralph: The Culture Background of Personality, New York, Appleton- Century Grafts, 1955.

13- Myrdal, Gunner: value in Social Theory, New York, Harper,1968.

14- Maller, J.B., General and Specific Factor in Character Journal of Social Psychology, 1934-5.

15- Moss. h. A., & Kogen, J., Stability of Achievement of Recognition Seeking Behaviors from Early Childhood Through Adulthood, Journal of Abnormal SOCIAL Psychology,1961-1962.

16- Ohan, Yehodi, A: Social Structure and Personality, New York, Holt Rinebert & Winston,1961.

17- Persons,Talcott: "Toward A General Theory of Social Action", By Parsons&Others,4th printing, Cambridge-Harvad Univ. Press,1961

18- Rogers, C. R., A theory of Personality, In S. Koch (Ed) Psychology, A Study of a Science. Vol. III, New York, Mc Grow-Hill, 1969.

19- Stuit. D.B (Ed) Personnel Research and Test Development in the Bureau of Naval Personnel. Princeton, N.J: Princeton university press, 1967.

20- Throndike. R.L (Ed) Research Problems and Techniques, A.A.F Aviation Psychology Report, No. 3. Washington. D.C: Government Printings Office, 1957.

21- Tiryakian, Edward(ed): Sociological Theory Values and Socio-cultural Change, New York, Glencoe, Free Press, 1973.

22- Wolfe, B.M., & Baron, R.A., Laboratory aggression Related to Aggression in

23- Weir, W. Children's Behavior in a Two-Voice Task as a Function of Patterned Reinforcement Following Forced-Choice Trials, Journal of Experimental Child Psychology,1965-2.

24- Witken, H. A. & Good enough, D. R., Karp, Stability of Cognitive Style from Childhood to Young Adulthood, Journal of Personality, Social Psychology, 1967.

25- Zillmann, D., Excitation Transfer in Communication-Mediated Aggressive Behavior. Journal of Experimental Social Psychology, 1971.

صدر للمؤلّف

صدر للمؤلّف 68 بحثا نشرت داخل ليبيا وخارجها.

صدر له 83 مؤلّفا منها خمس موسوعات.

أشرف وناقش 74 رسالة ماجستير ودكتوراه.

. مجالات اهتمام المؤلف البحثية:

1 . الخدمة الاجتماعية والتنمية البشرية.

2 . طرق البحث الاجتماعي.

3 . الفكر والسياسة.

4 . الإسلاميات.

5 . الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية والتركية.

مواضيع المؤلّفات

1 . مستوى التحصيل العلمي بمرحلة التعليم المتوسط، طرابلس ليبيا، 1989م.

2 . الأصول الفلسفية لتنظيم المجتمع، منشورات جامعة طرابلس، ليبيا، 1992م.

3. فلسفة مناهج البحث العلمي، منشورات الجأ، 1995م.

4 . منهج تحليل المعلومات وتحليل المضمون، منشورات الجأ، مالطا، 1996م.

5 . سيادة البشر دراسة في تطور الفكر الاجتماعي، منشورات الجأ، مالطا، 1997م.

6 . المفاهيم العلمية دراسة في فلسفة التحليل، المؤسسة العربية للنشر وإبداع، الدار البيضاء، 1999م.

7 . البستان الحلم، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1999م.

8 . التصنيف القيمي للعولمة، منشورات الجأ، مالطا، 2001م.

9 . الديمقراطية في عصر العولمة (كسر القيد بالقيد)، دار الجأ، مالطا، 2001م.

10 . نشوة ذاكرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004م.

11 . خماسي تحليل القيم، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

12 . منطق الحوار بين الأنا والآخر، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

13 . خدمة الفرد قيم وحداثة، دار الحكمة، 2006م.

14 . خدمة الجماعة رؤية قيمية معاصرة، دار الحكمة، 2006م.

15 . البرمجية القيمية لمهنة الخدمة الاجتماعية، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

16 . البرمجية القيمية في طريقة تنظيم المجتمع، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

17 . البرمجية القيمية في طريقة خدمة الجماعة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

18. الموسوعة القيمية لبرمجية الخدمة الاجتماعية، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

19 . البرمجية القيمية في خدمة الفرد، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

20 . مفاهيم في استراتيجيات المعرفة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

21 . المقدمة في أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، بيروت . دمشق، 2009م.

22 . موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2009م.

23 . ألستم من آل البيت، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

24 . مختصر موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

25 . خطوات البحث العلمي (من تحديد المشكلة إلى تفسير النتيجة)، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

26 . قواعد المنهج وطرق البحث العلمي، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

27 . أسماء حُسنى غير الأسماء الحسنى، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

28 . آدم من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

29 . نوح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

30 . إدريس وهود وصالح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

31 . إبراهيم وإسحاق وإسماعيل ولوط من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

32 . شعيب من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

33 . يعقوب ويوسف من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

34 . داوود وسليمان من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

35 . يونس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

36 . أيوب واليسع وذو الكفل وإلياس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

37 . موسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

38 . عيسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

39 . محمَّد من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

40 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، آدم ونوح، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

41 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، ادريس ويعقوب ويوسف، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

42 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، أيوب وذو الكفل واليسع والياس، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

43 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، موسى وهارون وعيسى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

44 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، يونس وزكريا ويحيى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

45 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ولوط، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

46 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، هود وصالح وشعيب، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

47 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، داوود وسليمان، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

48 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، النبي محمَّد، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

49 . موسوعة صفات الأنبياء من قصص القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

50 . موسوعة الأنبياء من وحي القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

51 . التطرُّف من التهيّؤ إلى الحلّ، المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

52 . ألسنا أمةً وسطا، ابن كثير، دمشق . بيروت، 2011م.

53 . المنهج وطريقة تحليل المضمون، ابن كثير، دمشق . بيروت، 2011م.

54 . الإرهاب (بين قادحيه ومادحيه) المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

55 . الخوف وآفاق المستقبل، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2011م.

56 . سُنن التدافع، شركة الملتقى للطباعة وانشر للطباعة والنشر، بيروت: 2011م.

57 . خريف السُّلطان (الرَّحيل المتوقّع وغير المتوقّع) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

58 . من قيم القرآن الكريم (قيم إقداميّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

59 . من قيم القرآن الكريم (قيم تدبّرية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

60 . من قيم القرآن الكريم (قيم وثوقيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

61 . من قيم القرآن الكريم (قيم تأييدية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

62 . من قيم القرآن الكريم (قيم مناصرة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

63 . من قيم القرآن الكريم (قيم استبصارية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

64 . من قيم القرآن الكريم (قيم تحفيزية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

65 . من قيم القرآن الكريم (قيم وعظية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

66 . من قيم القرآن الكريم (قيم شواهد) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

67 . من قيم القرآن (قيم مرجعيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

68 . من قيم القرآن الكريم (قيم تسليمية) شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

69 . من قيم القرآن الكريم (قيم تسامح)، شركة الملتقي للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

70 . من قيم القرآن الكريم (قيم تيقُّنيّة)، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

71 . الرفض استشعار حرية، دار الملتقى، بيروت، 2011م.

72 . تقويض القيم (من التكميم إلى تفجّر الثورات)، شركة الملتقى، بيروت، 2011م.

73 . ربيع النّاس (من الإصلاح إلى الحلّ) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011م.

74 . موسوعة القيم من القرآن الكريم، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2012م

75 . أسرار وحقائق من زمن القذافي، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، ودار المختار طرابلس، 2013م.

76 . وماذا بعد القذافي؟ المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

77 . ثورات الرّبيع العربي (ماذا بعد؟) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

78 . العزل السياسي بين حرمان وهيمنة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

79 . السياسة بين خلاف واختلاف، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 3014.

80 . الهويّة الوطنية بين متوقّع وغير متوقّع، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014.

81 . العفو العام والمصالحة الوطنية، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

82 . فوضى الحلّ، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

83 . بسم الله بداية ونهاية، القاهرة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، 2015.

84 . من معجزات الكون (خَلق . نشوء . ارتقاء)، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2016م.

85 . مبادئ التنمية البشرية تحت الطباعة.

86 . منابع الأمل تحت الطباعة.

87 . من الفِكَر إلى الفِكَر، تحت الطباعة.

المؤلّف في سطور

أ د. عقيل حسين عقيل

مواليد ليبيا 1953م

بكالوريوس آداب 1976م بدرجة الشّرف الأولى جامعة الفاتح (طرابلس).

ماجستير تربية وتنمية بشرية جامعة جورج واشنطن 1981م مع درجة الشّرف.

. دكتوراه في الخدمة الاجتماعية.

. أستاذ بجامعة الفاتح كلية الآداب (طرابلس).

. شغل منصب أمين تعليم بلدية طرابلس (1986 . 1990).

. انتخب مفتشا عامّا لقطاع الشؤون الاجتماعية، ثمّ كلّف بالتفتيش على وزارتي التعليم العام والتعليم العالي 2006م.

. شغل منصب أمين التعليم العالي (وزيرا) 2007 . 2009م.

. انتخب أمينا عاما للتنمية البشرية بأمانة مؤتمر الشّعب العام 2009م.

. صدر للمؤلّف 78 بحثا نشرت داخل ليبيا وخارجها.

. صدر له 88 مؤلّفا منها خمس موسوعات.

. أشرف وناقش 74 رسالة ماجستير ودكتوراه.

. مجالات اهتمام المؤلف البحثية:

1 . الخدمة الاجتماعية والتنمية البشرية.

2 . طرق البحث الاجتماعي.

3 . الفكر والسياسة.

4 . الإسلاميات.

5 . الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية والتركية